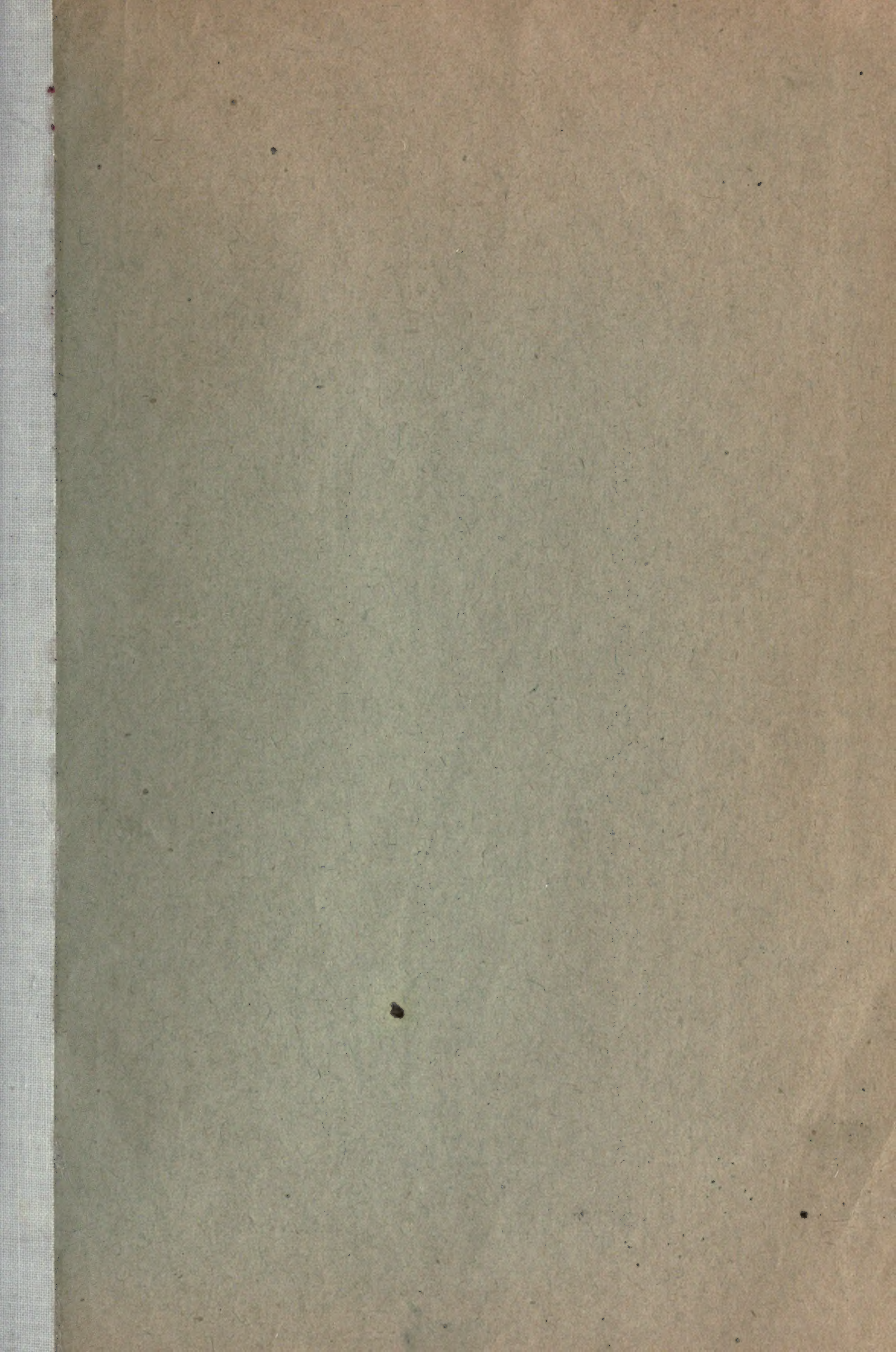
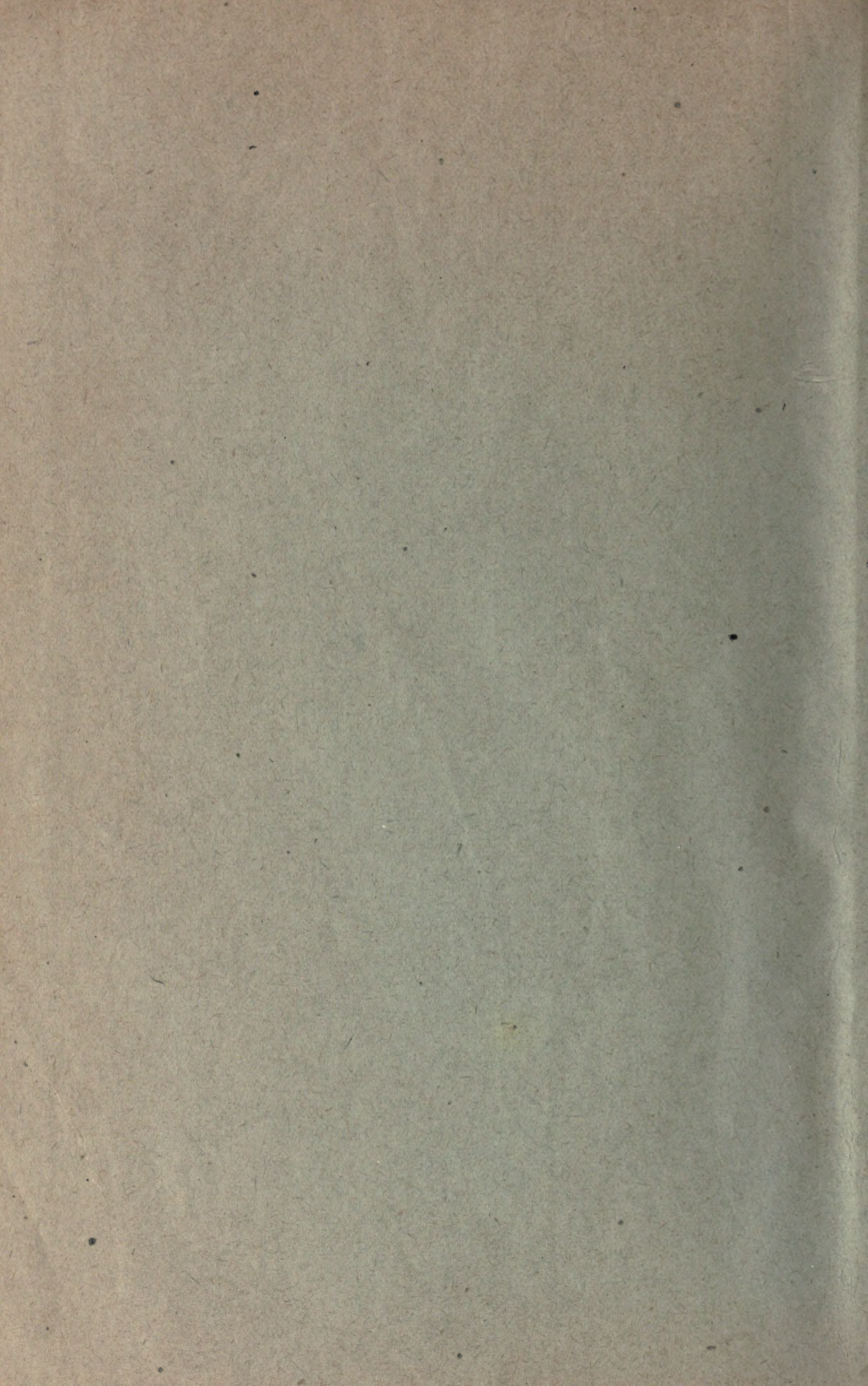
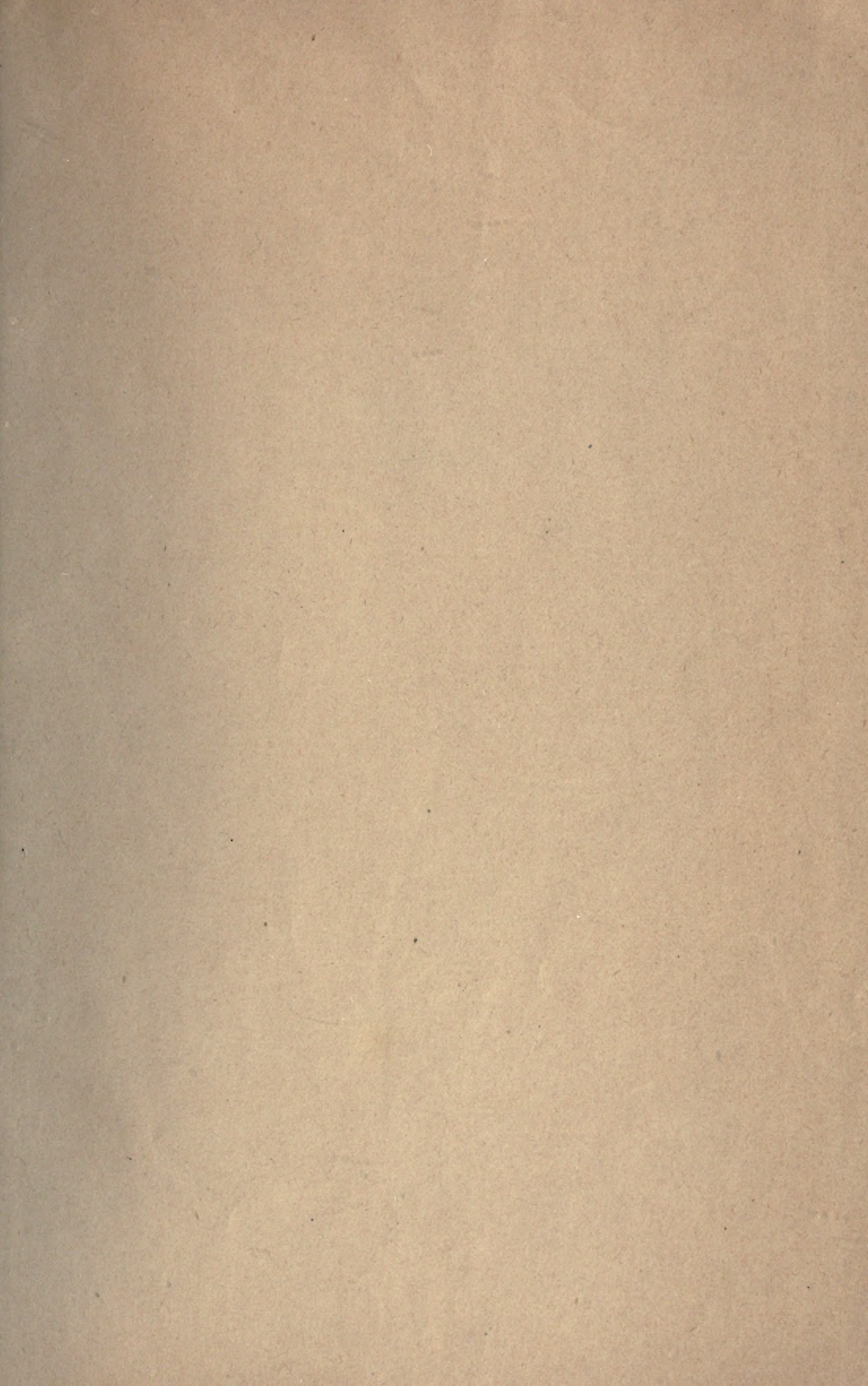
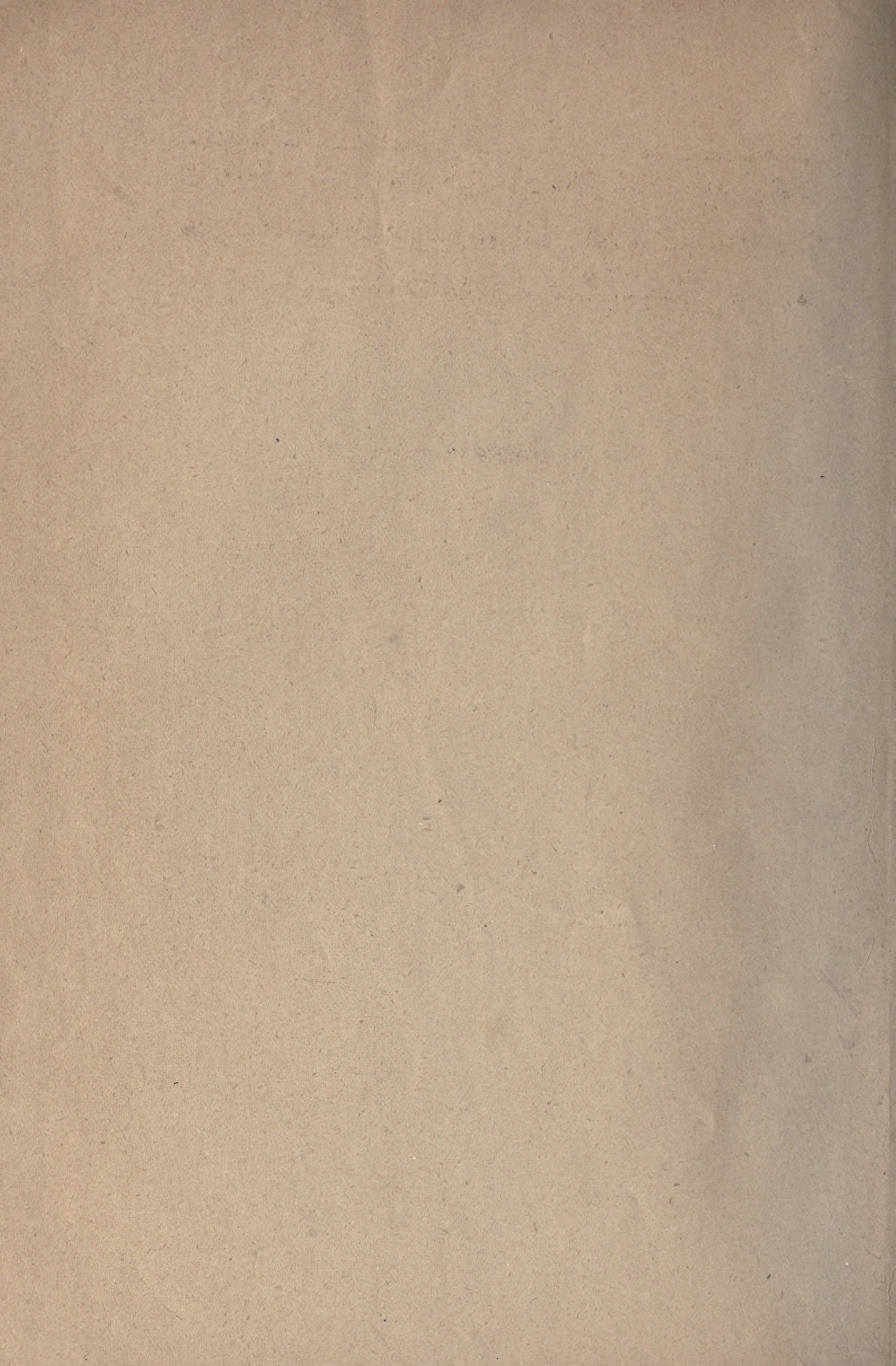












العالية وهذا لا يرجى لنا الا بتكثير سواد امثالكم ياطلاب المدارس العالية فطلاب المدارس العالية هم ولا جرم اهل المطالب العالية فاعرفوا مقدار انفسكم ومقدار الآمال التي تعلقها عليكم امتكم نضر الله وجوهكم وبيض بكم وجوهنا

الغربي يهمه نجاح العمل من حيث هو عمل نافع لامته ولنفسه ولذلك جاءت مصانعهم ومعاهدهم بل وجميع شؤون حضارتهم فخمة خالدة وكانت مصانعنا ومعاهدنا وسائر اعمالنا مختلة معتلة لا تدوم الا بدوام من عمل لها اول مرة فاذا ماذهب تذهب بذهابه

الغربي استفاد ويستفيد بتجارب غيره لان من عادته ان يحسن الانتفاع بكل شيء ونحن من عادتنا ان نهزأ في الاكثر بكل شيء

الغربي يدخل الاصلاح الى داره وبيته وامته بالتدريج بحسب سنة النشوء في عالم الكون والفساد ونحن نحب ان نطفر طفرة في اصلاحنا والطفرة محال لان سنن الفطرة لا تغالب ولا تعاند . الغربي يحب النظام حتى صار ذلك طبيعة ثانية له ونحن لا يهمنا النظام ولا التنظيم . الغربي معتدل على الاكثر في عامة احواله ونحن اميل الى الافراط او التفريط . الغربي عبد الواجب ونحن قلما نقوم بفرض او واجب فالغربي كما احسن تقسيم الاعمال والاخصاء فيها احسن استخدام الوقت احسانه لاستخدام عناصر الطبيعة فجده جد ولكن في اوقات الجد وهزله هزل ولكن في اوقات الهزل ونزهته نزهة ولكن في اوقات النزهة وعمله عمل محض ولكن في زمن العمل والشرقي ويا للاسف ليس كذلك .

احسن الطبائع في الغربي خلق الاعتماد على النفس وانكار النفس فهو يعتمد على كفاءته اولاً ثم على محيطه وامته وقد يهتم في الاكثر بمصلحة امته اهتمامه او اعظم بمصلحة نفسه ولذلك جاء كل غربي راق امةً برأسه وامة تتألف من افراد هذا حال سوادهم الاعظم ينبسط ظل عمرانها ويمتد على الارض سلطانها . فالله اسأل ان يهب هذا الشرق المحبوب نفثة من تلك الروح

كانت حالة سويسرا والمانيا والولايات المتحدة قبل الوحدة السويسرية والالمانية والاميركية يدرك سر الاجتماع والتعاضد ويعرف ان المركب الكبير يستحيل ان تأتي عليه الانواء بقدر ماتضر بالصغير فقد يغرق هذا او يستغرق في غيره ولا من يسمع به

تعلمنا اوربا واميركا كل يوم معنى من معاني الوطنية والجامعات الجنسية فان كان بعض الاجتماعيين يدعون اليوم الى انشاء جامعة اوربية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة اميركية واحدة و بعضهم الى انشاء جامعة صفراء من اليابان والصين واحدة افلسنا نحن ياابناء العثمانية احرياء بان نزيد في تكاتفنا و تكافلنا ونرفع من بيننا سوء التفاهم بسعي العقلاء منا

طال المقال وبت اخشى عليكم الملال فهل تأذنون بان اختمه بجملة واحدة للمقارنة بين اخلاقنا واخلاق الغربيين وهي الاخلاق التي كانت من اعظم الوسائط في ارتقائهم كما كان نقيضها واسطة في انحطاطنا وذلك انني تبينت بالاختبار ان الافرنج اكثر تفكراً منا في مصادر الاحوال ومواردها فهم لايقدمون مثلنا على امر قبل ان يوقنوا من انفسهم الغناء فيه فالصانع في الغالب لايتطال الى ان يكون سياسياً والمحامي لايعمل في الزراعة وهكذا اختص اهل كل طبقة بطبقتهم وتفرد كل عالم بما يعلم ولم يتعده فالاختصاص او الاخصاء هو الذي كان واسطة نجاح الغرب ودعوى معرفة كل شيء هي التي كانت واسطة انحطاط الشرق

الغربي يفتخر بانه لايعرف غير ماتعلمه في مدرسته وحصله من حرفته ولكنه تعلمه فبرز فيه واحاط باطرافه وصبر حتى نضج فتناول ثماره جنية . اما نحن فنسارع في الهبوب كما نسارع الى الرقود فنهب دفعة واحدة كما نخمد كذلك

اللغات الاجنبية حتى ان الواحدة منهن لتكلمك فلا تحسبها الا فرنسوية لكثرة اتقانها للغة الفرنسوية واجادتها النطق بها مما لا يكاد يتيسر مثله لغريبة ولا لغريب عن اللغة وهن مع هذا اكثر النساء الاوربيات تفانياً في احكام ملكة لغتهن وحرصاً على آدابها وتلقينها

ولقد كانت المرأة البولونية تعلم اولادها لغتهم في الغابات والحقول عندما كانت الحكومة الروسية تحظر عليهم الى قبل بضع سنين تعلم لغتهم لتجعلهم روساً مع الزمن فلما دالت دولة الجهل ونال البولونيون كسائر العناصر السلافية بعض حريتهم عقيب انشاء الدوما الادبي كان من البولونيين ان فتحوا في شهر واحد في البلاد التي وقعت منذ قرن ونصف تحت سلطة الروس زهاء اربعة آلاف مدرسة يعلمون فيها العلوم العالية والدروس المنوعة بلغتهم ولم ينقصهم اساتذة ولا اعوزهم بالطبع التلامذة

فالمرأة البولونية وان عنيت بتعليم اللغات الاجنبية عنها تحتفظ بلغتها ووطنيتها احتفاظا اسأل الله ان يرزقنا نحن بعضه حتى انها اذا تزوجت من اجنبي لا تلبث ان تصبغ اولادها بصبغتها بحيث اضطر بسمرك ان يسن في عهده قانوناً يحظر فيه على الضباط الالمان ان يتزوجوا من البولونيات اذ ثبت له ان الوطنية الالمانية كادت تضعف ويعروها الانحلال في القسم الذي اصاب مملكة بروسيا من ارث صاحب بولونيا

فياليت شعري متى يكون نساؤنا بل رجالنا في هذه المنزلة من صحة الوطنية مع الحرص على الجامعة العثمانية التي هي عدتنا في شدتنا وبدون هذه الجامعة السياسية لا يرجى لنا بقاء بعد الذي رأيناه من تكالب الغرب على الشرق فنحن ان انصفنا لا ننزع يدنا من الجماعة لان يد الله مع الجماعة ومن رأى كيف

والمحيط والتقاليد دخل كبير في اوضاع الامة على ان هذه النفحة قد افادت فرنسا وغيرها بلا شك واطلعت الشرق على ان التربية الفرنسوية مع ما هي عليه من الحسن هي في رقيها دون التربية الانكليزية السكسونية من وجوه وان كانت هذه دونها من وجوه ولعل بلادنا تستفيد من كل ذلك عبرة

تقدم ان تلامذة مدرسة ليانكور هم من الفرنسيس وخليط من البرتقانيين والاميركان والانكليز والمصريين وهكذا شأن معظم المدارس في فرنسا ولا سيما كلياتها الجامعة فلا يتعلم فيها الطلبة من الذكور فقط بل يتعلم فيها الطالبات من الاناث واني لا اذكر انني حضرت خطبة اودرساً او مجلساً علمياً ولا زرت متحفاً ولا مطبعة ولا ادارة جريدة الاورأيت الفتيات سبقنني الى تلك الامكنة ومعظمهن روسيات وانكليزيات والمانيات وبلقانيات و بولونيات · والبولونيات [1] اكثر الفتيات الاجنبيات في فرنسا واكثرهن عناية بتعلم

(١) شارك النساء الرجال في اوربا في كل عمل من اعمال الحياة وفي فرنسا شاركن الرجال في الامور الذهنية ايضاً وثلث ما ينشر في فرنسا من الكتب هو من اقلام الكاتبات والشاعرات وكثيرات منهن يكتبن ويجدن كالرجال مثل مارسل تينابر مؤلفة كتاب دار الخطيئة والكونتس دي نوايل والعقيلة دي رنيه امرأة الشاعر المشهور وهي شاعرة مثله ومريم هاري صاحبة كتاب فتح البيت المقدس وعشرات امثالهن من المشهورات· والمنافسة الادبية بين الجنسين النشيط واللطيف على اتمها في فرنسا حتى قال لي احد كتابهم انه سيجيء يوم على فرنسا لا يبقى لكتابها وجه للمعاش الا ان يطيروا في مناطيد الهواء فقط وما عدا ذلك فالنساء يتولينه بدلنا · ولعل من يسيح في اوربا بعد عشرين سنة يشاهد مالم نشهده الآن من الارتقاء المادي والادبي فقد ساح رفاعة الطهطاوي في منتصف القرن الماضي ولم يكن من مرسيليا الى باريز سكة حديدية بل كانت فيها حافلة بالدواب فاغتبط بما رأى وساح احمد زكي بك في اوائل هذا القرن فركب القطارات في اوربا جمعاء وسحنا نحن اليوم فرأينا مالم يكن يعهد من السيارات الارضية والطيارات الهوائية والمؤلفات في العلوم والصناعات الادبية فماذا يشهد اولادنا واحفادنا بعدنا يا ترى ؟

وتمتاز هذه المدرسة بان يرحل تلامذتها بمراقبة اساتذتهم او بعضهم الى البلاد المجاورة كالبجيك وهولاندة او غيرهما من مقاطعات فرنسا البعيدة ليعتادوا الاستغناء عن الرفاهية ويحسنوا التخلص عند الحاجة من مشاكل الاحوال التي كثيراً ماتصادف الانسان في حياته وذلك ايضاً ليحتملوا بصبر وحسن خلق معاكسات الوقت ونكد الايام وتتوثق عرى المحبة بينهم ففي عيد الفصح تنقسم المدرسة الى ثلاث فرق بحسب سن التلامذة المؤلفة منهم فتذهب كل واحدة في وجهة خمسة ايام وكل من حسنت اخلاقه ودروسه يرحل به ايضاً كل ثلاثة اشهر مرة او مرتين يوماً او بعض يوم الى مكان بعيد وللمدرسة في الصيف شهران ايضاً عطلة فتكون عطلتها السنوية من حيث المجموع ثمانين يوماً وتستوفي المدرسة اجرة من كل طالب الى سن الحادية عشرة ٢٥٠٠ فرنك فاذا تجاوز هذه السن تأخذ منه ثلاثة آلاف يدخل في ذلك اكثر حاجاته ماعدا بعض الدروس كالرقص والموسيقى والرسم فانه يدفع اجرتها على حدة · وهو مبلغ كثير بالنسبة لاهل بلادنا ولكنه لايستكثر في مدرسة مثل هذه تنفق النفقات الطائلة على الاساتذة والعيشة والرحلات ويطبق فيها العلم على العمل وتربى الحواس بالعمل اكثر من تربية الذاكرة

حدثني احد اساتذة المدرسة قال كان فكر مؤسسها ديمولانس ان تكون على الطريقة الانكليزية المحضة ولكن لم تمض مدة حتى انقلبت اوضاع الدروس والرياضات الى مايشبه الاوضاع الفرنسوية لان ماتوهمه ديمولانس من انه يمكن تطبيقه في بلاده قد غالى فيه كثيراً ولو كان حياً -- مات منذ نحو سنتين — لرجع عن كثير مما نعاه على قومه وعد عدمه نقصاً في تربيتها وسبباً في ضعفها · وهو قول حق سديد لان مايوافق امة لايطبق بالحرف على اخرى وللعادة

الاولاد هذه الطريقة خصوصاً واكثر من فيها من ابناء الاغنياء والامراء اعتادوا ان يخلقوا وحواليهم الخدم والحشم يتولون من امورهم مايتقاعسون هم عن عمله ويصعرون خدودهم كبراً من القيام به

ويقسم التلامذة بعد الصفوف والفرق الى بيوت مختلفة وكل بيت يديره استاذ ويعهد الى النساء بالادارة البيتية والعناية بالمرضى وتعليم الموسيقى وتعليم الاحداث من الطلبة وهن يعشن في المدرسة نفسها وعلى الطلبة ان يحضروا ثلاث جلسات في الاسبوع لتعلم لعب الكوكي والكريكة بنظارة اساتذة في هذه الالعاب . وفي المدرسة دار للتمثيل كما فيها ميدان للعب السيف ومحل لتعلم الرقص والموسيقى ومحال دروسهم اشبه بمكتب رجل منه بقمطر تلميذ لكل واحد منضدة عليها دواة وورق نشاف يتصرف فيها كما يشاء ويرى فيها الدروس التي يدرسها بطريقة عملية اكثر منها نظارية

فيتعلم مع العلم صناعة من الصناعات التي هي احب الى قلبه كالزراعة والنجارة والحدادة والتصوير والتجليد وصنع المقوى والفخار والجلد وغيرها وذلك بنظارة اساتذة هذا الشأن يدلونه على الطرق التي يسلكها ولا يعملون معه بل يدلونه على عيوب عمله ويده وعينه هما اللتان تعملان ليعتمد بذلك على نفسه فاذا عاد الى اهله يستطيع ان يصنع بذاته عملاً من مثل ذلك فلا يكون فرق بين ما عمله في المدرسة وبعمله بعد الخروج منها ويتولى اكثر شؤونه كما قلنا بنفسه حتى يسهل عليه كل جهاد في حياته فان الرياضات التي يقومون بها في البستان والحقول والرحلات في الخلاء سواء كانوا مشاة ام ركباناً على الدراجات تزيد في قواهم وقابليتهم للرياضات البدنية ولا يقل النوم عندهم عن عشر ساعات للصغار الى تسع للكبار ليستريحوا من اتعاب النهار

يومي الخميس والاحد وان لا يعبث بما حوت حديقة المدرسة ومكتبتها وان لا يتكلم بعد ان يطفأ النور في غرف النوم مساء ولا قبل ان يستيقظ رفاقه صباحاً وماعدا ذلك فهو حر ان يلعب اللعب الذي يختاره في الاوقات التي خصصت لذلك منذ الظهر الى حوالى الساعة الرابعة بعده ·

وكل هذه القيود لا تكبر على التلميذ لانه يعرف انه لا بد منها لكل عائلة كبرى وما هذه المدرسة الا كذلك · والمدرسة تقسم الى ثمانية صفوف أسسها الاستاذان الانكليزيان هو كذمن وسكوت ومديرها اليوم المسيو لبلا وهو فرنسوي لان قانون فرنسا يحظر على الاجانب انشاء مدارس باسمائهم في البلاد · وفي المدرسة نحو عشرين معلماً ومعلمة وناظرة · ورئيسة المدرسة الآنسة باري من اقرباء اديمون ديمولانس صاحب الدعوة الى الاخذ بطريقة الانكليزالسكسونيين في التربية ومن اولئك المعلمين معلمان انكليزيان واثنان المانيان

ويقسم تلامذتها بحسب اسنانهم واستعدادهم ولا يختلط الكبار بالصغار الا في بعض اوقات ساعات النهار وهذه المدرسة تمد التلامذة لنيل شهادة البكلوريا او العالمية ولكن على غير الطريقة التي يحشى بها رأس التلميذ بالمواد النظرية وهو عن العلم العملي بمعزل · فالمدرسة تربي الارادة والعين والذوق واليد والجسم اكثر مما تربي الذهن والذاكرة

واسماء الصفوف كصفوف سائر المدارس ويشترك جميع المعلمين في التعليم ويلاحظون الدروس ايضاً ولا يراجعون التلامذة في ما تعلموه خارج الصفوف النظامية لان النهار يكفي لذلك ويتولى الاولاد بانفسهم امور لعبهم وحفظ النظام العام وسائر شؤون الحياة وربما لا تروق اكثر

ليانكور قرية سكانها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة وهي على نحو ساعة من باريز الى الشمال في مقاطعة الوازوفيها مافي سائر بلاد فرنسا من انواع المرافق والرفاهية والمعامل الكبرى الصناعية والزراعة الراقية الغنية بل فيها من دور التمثيل فقط ثلاث دور وفي قصر الدوك دي لاروشفوكولد الواعظ المشهور صاحب الكلمات المأثورة الذي أسس بنك التوفير في فرنسا في اواسط القرن التاسع عشر قامت هذه المدرسة العملية · وقصره هذا في ارض مساحتها مائتا هكتار اي نحو ثلثمائة فدان لم يبق منها الا دائرة حشمه اما دائرة قصره فقد اتى عليها رجال الثورة الاخيرة فدكوها وجعلوا عاليها سافلها وقد جعلت المدرسة في تلك الدائرة فوسعت كل صفوفها ومرافقها ومعاملها ·

في هذه البقعة الجميلة الواسعة بل الابعدية الكبيرة والحانوت الفخم التي حوت الغابات والمروج والحدائق والغدران والآكام والسهول يتربى رجال المستقبل على الطريقة الانكليزية وفيهم الفرنسويون واكثرهم من ابناء الباريزيين وعدد قليل من الاميركان والانكليز والبرتغاليين والاميركيين والمصريين · يعيشون في هذا البيت كأنهم في أسرة لا في مدرسة وقد رفعت عنهم أكثر القيود التي تقيد طلبة المدارس الداخلية واختصر منها على مايحفظ به انتظام والآداب من مثل الحظر على احدهم ان يركض ويرفع صوته في المدرسة او في حجر الدروس وان يلعب في الاماكن التي هي ممر لاخوانه وان لايخرج من المدرسة ولا يركب في قارب في الغدير بدون رخصة اولاً وان لايبتاع اي شيء كان من المدينة بدون استئذان وان لايدخل جرائد ولا كتباً الا اذا وقع عليها المدير ولا يدخن وان يلبس ثياب اللعب عند ما يخرج من غرفة المائدة وقت الظهر ولا يركب دراجته الا

فيها لتخصب بهم تربتنا بعد اجدابها وتملأ جيوبنا بعد فراغها والمال مبدأ كل عمل وفاتحة كل ارتقاء مادي وادبي ·

نحن لانرقى الرقي المطلوب الا اذا تعلمنا العلم العملي وزهدنا قليلاً في شقشقة الألسن والنظريات المجردة · ومن جملة المدارس التي زرتها في فرنسا وتأثرت ايضاً بنظامها مدرسة جزيرة فرنسا في مقاطعة الواز · زرتها بدعوة من صديقي مرسي افندي محمود احد كتاب مصر فكانت زيارتها وزيارة مدرسة كرنيون من اسعد الايام التي قضيتها في ارض الفرنسيس واني احب ان اقص عليكم قصة هذه المدرسة لتعرفوا الغرض منها فاقول : قام منذ عشر سنين في فرنسا رجل من رجال الصحافة اسمه اديمون ديمولانس ودرس طرق الحضارة والتعليم والتربية عند الالمان والانكليز والاميركان وقابل بين طرائقهم واخلاقهم وعاداتهم وبين ماعند الفرنسيس منها ووضع لذلك الكتب وكتب المقالات وانشأ مجلة العلم الاجتماعي التي تدور على هذا الغرض ومن جملة كتبه سر تقدم الانكليز السكسونيين الذي نقل الى العربية فعمت فائدته العرب كما عمت الافرنج

وقد وفق ديمولانس صاحب تلك الدعوة بان التف حوله اناس من ارباب الغيرة عَلَى ارتقاء بلادهم والاهتمام بمستقبلها فكانوا يعطونه بالمئات لقيام الغرض الذي حاول بلوغه وتربية ابناء الفرنسيس عَلَى الطريقة الانكلوسكسونية العملية فأسست لذلك ثلاث مدارس كبرى عقيب دعوته الاولى مدرسة بروش أُسست سنة ١٨٩٩ باسم جماعة من المساهمين وأخرى في اقليم نورمانديا لجماعة من كبار الصناع منها وأُخرى في ليانكور أسست سنة ١٩٠١ وهي التي اريد ان احدثكم عنها

مكتوباً بقلم غليظ في مكتبتها بما معناه : « الارض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه » ولكن قومي غفر الله لي ولهم يحتقرون هذا الفن فيما ارى . فان كنا نختلف في البديهيات فمتى نتفق في غيرها ؟

زرت كرنيون ورأيت بها ان عبد القادر الكيلاني يلبس مشالح الزراع ويدرس كما يدرس ابناء الاعيان في فرنسا ويجاريهم في ذكائه واطلعني على ما في مدرسته من متاحف ومعارض واصطبلات وحظائر لتربية الماشية وحدائق لغرس النبات والبقول وغابات للنزهة والانتفاع وادوات للعمل وحرث الارض وكرثها

رأيت كل هذا واكبرته وقلت في نفسي لو حذا السوريون في الزراعة وتربية الماشية حذو الفرنسيس فيها وتربتهم تلائم تربتنا واقاليمهم اشبه باقاليمنا لاغتنينا غنىً يغنينا عن الهجرة وتطلب الوظائف الاتكالية فقد ذكروا لي ان خروفاً علفته ادارة المدرسة سنتين علَى الطريقة العلمية فبيع في احد المعارض بسبعين ليرة . فاين خرفاننا التي يباع الواحد منها بسبع ليرات مهما علفناها بجهلنا وبساطتنا واطعمناها السمسم المقشر او الشيح والقيصوم والعرار والعرعر

ولكن الآمال معقودة بان نعلف خرفاننا علَى طريقتهم وتستثمر تربتنا علَى اصولهم ونربي عقولنا علَى مناحيهم ونطبع دوابنا وماشيتنا بحسب سنتهم فيكون اذ ذاك ابناء عبد القادر في التوفر علَى زكاء التربة في نفعهم لهذه الامة علَى مستوى جدهم الذي زكى النفوس في عصره . وتزكية التربة لا تقل عن تزكية التربية والمآل واحد .

مدرسة كرنيون الزراعية هي التي اوصي ابناء الاعيان وغيرهم الى التخرج

ليرى بعينه ويحكم بنفسه على قصورنا عن الغربيين وفقرنا وغناهم وشقائنا وسعادتهم ليعلم انني لا اغالي فيما اوردته لكم بل انني عاجز عن الوصف والتعريف· ولا يقعن في اذهانكم ان الذهاب الى اوربا بعيد المنال وانه لا يتيسر الا للكبار الاغنياء. فالعيش في معظم البلاد الاوربية ارخص من الاستانة ومصر ودمشق وبيروت والمدارس رخيصة اجورها او لا يكاد يكون لها اجور ومنها ما اجرة الطالب فيه مع الأكل والنوم والدرس ستون فرنكاً في الشهر ومثل هذا القدر من المال لا يصعب عَلى احد فيما احسب ان يعده او يستلفه عَلى المستقبل مهما بلغ من ضيق ذات يده

يا ابناء قومي و يا زهرات أمتي ! أليس من العار ان تكون بلادنا التي لا تعيش الا بالزراعة ولا تحيا الا بالزراعة خالية من عارفين بها عَلى الاصول الحديثة فلا يكون الذين يتعلمون منا هذا الفن في اوربا سوى طالبين اثنين احدهما في المدرسة الزراعية في لوفان من اعمال البلجيك وهو رفيق بك بيضون من بيروت والآخر في كرنيون من اعمال باريز في مدرسة كرنيون الزراعية واسمه مصطفى افندي الكيلاني من حماة · كلاهما من ابناء الاعيان ولهما اراض ومزارع فنعما عملا بالاختصاص بهذا الفن الشريف المفيد ولكن أليس في ابناء سورية بل البلاد العربية احد من ابناء الاعيان يملك اراضي وقرى غير هذين الشابين ؟ بلى ان المالكين كثار ولكن محبي الدرس قلائل ! هذا في فن الزراعة فمتى يقوم منا اناس لتعلم الكهربائية ومد الخطوط الحديدية والهندسة العملية والصناعات الحديدية واليدوية والتجارة وغير ذلك مما نحن فيه عيال عَلى الاوربيين

زرت مدرسة كرنيون الزراعية وهي عَلى مسافة ساعة من باريز فرأيت شعارها

لويز فيليب ملك فرنسا وقد كان هو موظفاً في السفارات وآخر وظيفة له رئاسة تراجمة سفارة فرنسا في مدريد ثم استقال وهو يسكن في الصيف في قصر له في لوزان في سويسرا وفي الشتاء في باريز وقد قام في ذهنه منذ اشهر ان يدرس اللغة العربية للاطلاع على حضارة العرب ومدنيتهم الباهرة فاتخذ له استاذاً صديقنا ووطنينا ميشل افندي بيطار وانشأ يتخرج به فقطع شوطاً في التعلم واذ كانت الدواعي تضطره الى المقام في قصره في سويسرا اكثر من باريز وكان استاذه لايستطيع ان يلحق به الى سويسرا كتب اليه يلتمس منه التماس التلميذ من استاذه ان يبعث اليه بدروس عشرين يوماً حتى لايضيع وقته مدة مقامه في سويسرا ويحرم من الاستفادة والتحصيل فاذا آب الى العاصمة يعاود مابدأ به ٠

هذا الرجل على ابواب الشيخوخة وهو في هذه السن يحاول ان يتعلم لغة شرقية لاعهد له بمعرفتها ٠ او ان يتعلم لغة القرآن ليدرس بها مدنية اهله وشبان العرب انفسهم يترفعون عن ان يقضوا ولو بعض اوقات فراغهم في إحكام لغتهم ٠ هذا هو مثال صغير من امثلة الهمم في الشرق وامثلتها في الغرب فهل فيكم ياشباب المستقبل وقرة عيون العثمانية العربية من يمشي على اقدام هذا الشيخ الفرنسوي، حتى لايجيء علينا وقت نضطر فيه ان نأخذ لغتنا بل ديننا عن اوربا ونكون تحت وصايتها حتى في امسّ الامور بنا واعلقها بقلوبنا ؟

كل مانراه من همم الغربيين ومتانتهم هو محصول الكتاب والمدرسة فانتم وامثالكم شباب هذه الامة في ايدي اقتداركم ان تجددوا لها شبابها اذا وضع كل منكم نصب عينه الذهاب الى الغرب وقضاء سنين في الدرس والبحث

مليوناً من العرب العثمانيين يصيب كل مليون نسمة طالبان وما اعظم ذلك من قصور وتقصير

نعم هو قصور ليس وراءه وراء وخمود همم كاد يصدق به علينا حكم الغريب · واني لارجو ان لا تكون اقوالنا اكثر من افعالنا فان الكلام لا اثر له بقدر الفعل · نريد معاشر العرب ان نجاري الامم الراقية بل سائر العناصر من اخواننا العثمانيين ولا نجاريهم عَلَى الاقل في مضمار التعلم ؟ ·

نتناغى بالوطنية ونندب حظ اللغة العربية ونحن ابناؤها الذين نعقها ولا نتعلمها · اليس مما يزعج ان يخاطب العربي اباه وامه واخاه وصديقه بغير لغته الاصلية ؟ يعمل ذلك لا ليتمرن على تلقف غيرلغته بل لانه لا يعرف ان يتكلم ويكتب بلسان ابيه وامه وقد يكون في الاكثر ممن يفرض عليهم فرض عين تعلمها ليفهم بها كتابه وشريعته

انا ان كنت عربياً واحب العرب واريد نهوضهم ايتيسر لي كل ما اريد اذا لم اخاطبهم واخطبهم واكتب لهم بلغتهم التي يفهمونها · انا ان كنت اريد الاطلاع عَلَى مجد آبائي واجدادي أ أتمكن من ذلك بدون دراسة ماخلفوه من آثارهم وهل يتيسر لي هذا الا باللغة التي كتبوا بها ؟ اقول هذا وانا آسف كل الاسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصوراً لا اِبالي اذا قلت ان فيه العار والشنار ·

ايزهد سلالة العرب الاكارم في لغتهم ويتعلمها المستشرقون اكثر من علماء العرب انفسهم ؟ ايزهد العربي ابن العشرين في العربية ويتعلمها رجل اعجمي في الستين من عمره · واعني به الكنت دي سارديج الفرنسوي · هذا الرجل من اهل الطبقة العالية في غناه كان والده سفيراً في طهران عن الملك

من يريدون قتالنا بالسيف الذي يقاتلوننا به · واعني به سيف العلم · نحن يقضي علينا ان نأخذ من تلك المدنية الغربية التي تدهشنا كل ماينفعنا لقيام مجتمعنا نأخذ عن رجال العلم منهم ونحتك بهم زمناً لنستفيد ونعرف الطرق التي يجب علينا سلوكها

رأيت الدولة بعد انقلابنا الاخير بعثت بزمرة من الطلبة العثمانيين ليدرسوا في مدارس اوربا ولا سيما في مدارس باريز فقدرت عددهم قليلاً جداً بالنسبة لمجموع هذه الامة · واني لا اخجل ان اقول لكم ان عدد الطلبة البلغاريين في روسيا والمانيا والنمسا وفرنسا والبلجيك وانكلترا اكثر من عدد الطلبة العثمانيين واياكم ان تظنوا ان جميع طلبة الاجانب تبعث بهم حكوماتهم ليدرسوا على نفقتها بل ان لهمم الافراد شأناً عظيماً في هذا الباب وكثيراً ما ينفق الطالب من مال ابيه عن سعة حتى لا يتم دروسه الا وقد اتى على آخر فلس مما عنده وهو مغتبط بما صنع لانه احرز رأس مال كبير لا يقدر بالملايين والكرات وعاد وهو يعرف كيف يخدم امته وبلاده

نحن مقصرون كل القصور في ارسال ابنائنا الى ديار الغرب يلتقطون درر العلوم من بحار كلياتها ومدارسها والعرب في هذا المعنى اكثر العثمانيين قصوراً · ولقد احصيت جميع من يدرسون من ابناء سورية في اوربا على نفقة الحكومة او على نفقاتهم فلم اقدر ان اوصلهم الى ثلاثين طالباً اكثرهم يدرسون على نفقتهم فليت شعري أليس هذا العدد بقليل على قطر يناهز سكانه الثلاثة ملايين · هذا من سورية ارقى البلاد العربية وما اظن احداً من ابناء العراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس وبرقة وغيرها من الاقاليم العربية يدرس في مدارس اوربا فيكون هؤلاء الثلاثون طالباً لخمسة عشر

حكومته . حضرت خطبة له في مدرسة اللغات الشرقية الحية القاها على طلبة تلك المدرسة العالية ممن يتخرجون الآن ليذهبوا الى الشرق فيما بعد لخدمة حكومتهم ويكون منهم التراجمة والقناصل والسفراء ببيان لم اسمع من العرب ولا من العجم ابلغ منه لم يتمتم ولم يعطس ولم يكرر وقلما رأيت انساناً درس موضوعه واعد له المواد التاريخية والمستندات اكثر من ذلك ولكن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال كلام الخطيب فكان عجبي بتحامله عَلَى هذه الدولة اكثر من عجبي بذلاقة لسانه فقد تكلم على علاقة فرنسا بالشرق ولا سيما بالدولة العلية منذ القديم فقال ان فرنسا صاحبة الفكر الاول في الحروب الصليبية قد اتى عليها زمن حالفت فيه الدولة العلية ايام قوتها لتستخدمها لاغراضها وقد جنى الفرنسيس ثمار هذا الوفاق ثم لما مضت سنون والدولة لم تر خيراً لها من تلك المحالفة نزعت يدها من يد حليفتها ثم عادت فرنسا فبعثت بابنائها الى القريم ليحاربوا مع الانكليز والعثمانيين جيوش الروس لان مصلحتها اقتضت ذلك اذ ذاك وافاض في نشأة الامتيازات الاجنبية في البلاد المصرية والعثمانية وقال ان فرنسا في كل دور من ادوارها استخدمت الدولة العلية لمقاصدها وان لها اليد الطولى في المسألة الشرقية اي استقلال بلاد البلقان واليونان وانها لا تقصر كل حين في بتر عضو من اعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفنى

فيا اخواني ويا سادتي ايسمع عثماني هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تذوب كمداً وحسرة وتسود الدنيا في عينيه ؟

هذا بعض ما يعده الغرب للشرق فما ذا يعد الشرق للغرب ؟

نحن يا قوم لا نحفظ كياننا ولا نحتفظ بلغتنا ودِيننا وآدابنا الا اذا قاتلنا

واذ كان دينهم يحرم التماثيل والصور لم يظفر بكثير منها في الاماكن المطروقة اذ كانت تعبث بها ايدي المتعصبين منهم

وقال انه رأى لسوء الحظ ان قد سبقه الى ارتياد تلك الاصقاع اناس من الالمان والانكليز واليابان والروس للغاية نفسها ولكنه وفق الى ان اكتشف بين قاشار وكوتشار في نصف الطريق في طومشونك تمثالاً بوذياً صغيراً بين الصناعة اليونانية والبوذية حريٌّ بان يكون صلة بين الصناعة الشرقية القديمة والغربية وظفر في قاشار تحت انقاض احد المعابد في طبقة كثيفة بمخطوطات هندية فاحرز ثلثها بواسطة راهب انقطع في تلك المغاور ووصف تلك البقاع بانه لا شجر فيها ولا عشب مع انك تمشي فيها الوفاً من الكيلومترات اللهم الا في بعض الواحات · واكثر تلك الاصقاع جبال شامخة ومنحدرات كثيرة ورمال محرقة فكانت الحرارة في الصيف تصل الى الاربعين درجة وفي الشتاء الى الخمس والثلاثين تحت الصفر حتى كان الحبر يجمد في ايدي اعضاء البعثة متى ارادوا ان يقيدوا آثار بعثتهم وقد اخذ احد اعضاء البعثة صورة طوبوغرافية من خط هذه الرحلة وفوائد فلكية في عدة نقاط وآب بمجموعة من الحشرات والحيوانات تغني المتحف الطبيعي وبصور كثيرة عرضت بالفانوس السحري على الحضور تلك الليلة حتى لكأنهم ذهبوا بانفسهم الى تلك الاصقاع النائية ·

هذه المحاضرة الاولى التي تكهرب بها جسمي وتأثرت عواطفي وسمعت بها مهانة أمتي بأُذني · والمحاضرة الثانية القاها المسيو تارديو من كبار السياسيين الفرنسويين وصاحب المقالات الافتتاحية في جريدة الطان في الدولة العثمانية فهو اول اخصائي في سياسة الشرق ولا سيما دولتنا يقلب القلم بين اصبعه كما تشاء

بليو هو في الثامنة والعشرين من عمره طلق اللسان آية في البيان وهو استاذ اللغة الصينية في المدرسة الفرنسوية في الشرق الاقصى · شرح في محاضرته مالاقاه في رحلته التي بدأت في ١٥ حزيران سنة ١٩٠٦ وانتهت في الصيف الماضي واتى عَلَى ما وفق اليه من الاكتشافات الاثرية والكتابية وغيرها في آسيا الوسطى مما حفظ لفرنسا شهرتها القديمة في البحث عن الآثار وقال ان التعصب انتشر هناك بانتشار الاسلام في القرن الحادي عشر للمسيح فكان من ذلك التعصب ان اتى عَلَى الآثار بجملتها · وقد قرّع الشرقيين عامة والمسلمين منهم خاصة انواع التقريع · اما رحلته فهي كسائر الرحلات العلمية التي يرحلها الغربيون الى آسيا وافريقية فيكونون مقدمة للفتح والاستعمار وقديماً كان الشاعر يقول « السيف اصدق انباءً من الكتب » فاذا ارادت امة ان تفتح بلداً اخرى ترسل اليها السيوف والبنادق ثم تمهد البلاد بالمعارف اما اليوم فيرسل الغرب رجال العلم يرتادون البلاد اولاً ثم يرسلون مدافعهم وبنادقهم وآلات تدميرهم والامثلة عَلَى ذلك كثيرة

وقد ادعى بليو صاحب البعثة والغالب انه على حق فيما ادعاه ان ماوفق الى جلبه من الآثار قد اغنى مكتبة الامة في باريز بالوف من المخطوطات الصينية ومنها شيء في تاريخ الصين كما اغنى متحف اللوفر الشهير بتماثيل ورسوم ونقوش فاصبحت باريز بذلك عاصمة الدروس الصينية في اوربا ويحق لها ان تفاخر بان مجموعة ماعندها الآن من الآثار الصينية ليس لها مثيل في الغرب حتى ولا في الصين نفسها قال وغاية البعثة في التركستان الصينية ولا سيما في مقاطعات قاشار واورومشي البحث عن بقايا التمدن البوذي الذي سبق التمدن الاسلامي الى هناك وانه رأى جميع اهل التركستان من اهل الاسلام

نعم ان اليأس يجب ان لا يتطرق الينا وان كنا و ياللاسف تحت وصاية الغرب اليوم في كل شأن من شؤون حياتنا السياسية والاجتماعية والعلمية والتجارية يصرفون علينا كل ما يريدون من ضروب المعارف ويربحون بعقولهم منا انواع الارباح والمكاسب و يستثمرون شرقنا بكل ما لديهم من ذرائع العلوم والفنون ونحن منهم باهتون شاخصون شأن عبد مع سيده او جاهل مع عالم

حضرت دروساً كثيرة في الكوليج دي فرانس وهي المدرسة العظمى التي تضم في صدرها زهاء اربعين عالماً من كبار علماء فرنسا يقرأ كل واحد منهم درسين اثنين في كل اسبوع في العلم الذي اخصى فيه وتفرد به طول عمره وتكون دروسهم عامة يحضرها كل من اراد فتدل على كرم الفرنسويين في العلم

وحضرت دروساً في مدارس أخرى ووفقت الى سماع خطب ومحاضرات كثيرة فلم ار في اكثرها الا تعصباً على الشرق وغمطاً لحقوقه

اذكر لكم على سبيل المثال محاضرتين دعيت اليهما لتعلموا منهما مقدار ما يعده الغرب للشرق ومبلغ حكم ابنائه علينا ولكم بعدها ان تقيسوا حاضرهم بحاضرنا وغابرهم بغابرنا وتضحكون بعدها او تبكون ٠

فالمحاضرة الاولى كانت في قاعة السوربون الكبرى اي كلية باريز وهي المكان الذي جرت العادة ان يكون معهد العاملين للعلم من الفرنسويين فاقامت جمعية آسيا الفرنسوية والجمعية الجغرافية حفلة للاحتفاء باعضاء بعثة بليو الى التركستان الصينية و كنشو بحضور جماعة من اعضاء المجمع الفرنسوي ولم يكن الحضور اقل من الف وخمسمائة مستمع ومستمعة والمسيو

والمكاتب والمجالس والمصارف ودور التمثيل ومحال الطرب والانس ؟

كل هذه المشاهد كنت اختلف اليها في اوقاتها واجتمع برجال العلم والادب والسياسة منذ الصباح الى مابعد منتصف الليل ونفسي تتأثر بتغير المشاهد بحيث تملك عليّ مشاعري فلا استطيع التفريق في الحسنات كأنني ابتليت بداء الاستحسان لاتقع عيني على شيء ولا تسمع اذني بشيء ولا يتصور ذهني اقل شيء الاواخذ به جملة وتغرق النفس في استحسانه وتحار في وصفه

ولقد كنت عزمت ان أدون في مفكرتي مايعرض لي من المظاهر والمناظر ويتردد في صدري من الافكار والخواطر واحضره من المحاضرات والخطب والدروس النوادر ولما كثرت عليّ الموضوعات كلّ القلم من التقييد وقلت انك ياهذا تكتفي متى عدت لتحدث قومك بما رأيته من تسجيل مايعلق في ذهنك وبعضه مما فيه الغناء والكفاية ·

نعم تركت التقييد على خلاف عادتي فصدق فيَّ قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش　　　فما يدري خراش مايصيد

لولا ان اليأس من اعظم الامراض في الافراد والجماعات لطاوعت النفس وقنطت من نهضة هذا الشرق لمجاراة الغرب ولولا انني اعتقد بان النجاح مقدور لكل مخلوق يعمل وان الأجسام تتكون من الذرات وان من الجزئيات تنشأ الكليات لسجلت بان قيام الشرق العثماني وهو على نهضته المتثاقلة البطيئة التي نشهدها امر متعذر الا بعد قرون ان كتبت له الحياة·
ولكن امامي مثال الدولة اليابانية مملكة الشمس المشرقة رأيتها جارت اكبر الدول الاوربية في ثلاثين سنة وفاقت من كانت تعمل منذ ثلثمائة سنة من الدول الغربية فبلغت درجة عالية من الحضارة

باطرافه كله ولا اوقات الحضور الكرام الى وعيه وسماعه ولذلك اقتصر منه في هذه الليلة على الاشارة الى طرف مما تأثرت به نفسي في درس معالم الحضارة الاوربية في اماكنها واستطلاع طلعها بالعمل بعد الاشتغال بدراستها بالنظر مدة · ولذا استميح عفوكم اذا لحظتم في اقوالي شيئاً مما لم يعتد بعضكم سماعه فانا أقص عليكم شعوري ولا حرج على الشاعرين كما لاحرج على الشعراء ·

اول مايقع عليه نظر الداخل الى ارض اوربية ذاك الانتظام الغريب في مرافق الحياة ومظاهر القوة فيسقط لاول وهلة على نموذج صالح من استبحار العمران هناك بل يتجسم في عينه وذهنه ماسمعت اليه ولا تزال تسعى تلك الامم الراقية من الاخذ بأسباب الراحة والبسطة من طريق التكمل العلمي والنشوء الاجتماعي والعملي ·

ولا يزال هذا النموذج من العمران يعظم في نظر السائح كلما طاف المعاهد وزار المشاهد وجال في القرى والدساكر والحواضر والقواعد · وكل فرع من فروع هذا الارتقاء العجيب يحتاج الناظر في وصفه الى مجلد برأسه حتى يتجلى للسامع بعض التجلي وما راءٍ كمن سمعا ·

ماذا اذكر لكم ايها الاخوان من حال اوربا ومدنية الغرب الراقية التي بلغها بقوة العقل وتطبيق العلم على العمل ؟ أأحدثكم بصناعاتها التي تبهر النفس ؟ او باتساع متاجرها التي لايحصيها العد ؟ او بارتقاء زراعتها التي تنادي بلسان حالها ومقالها بانه لم يبق بعد مابلغته غاية ؟ ام اذكر لكم حال المجامع العلمية والسياسية والجمعيات الاجتماعية والنقابات التجارية والصناعية ام المدارس الجامعة والكلية والثانوية والابتدائية ام المتاحف والمعارض

كتب من صنع مهرة المجلدين من العرب والفرس والترك واصونة وخزائن وبعض آثار حجرية يقال انها أموية عثر عليها في القدس وبعض نقوش حيوانات رسمت على الزجاج من الادوار التركمانية والارتقية وملوك بني آرتق من مماليك ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي حكموا جهات ماردين وديار بكر وحلب الى سنة ٨١١ هـ وانقرضت دولتهم بعد حكم ٣٣٤ سنة الى غير ذلك من العاديات والآثار ومما عرضوه عود طرب او طنبورة وهي من صنع عصور الظالمة ايضاً

وبالجملة فان العاديات القديمة التي جعلت في البناء الجديد كلها حسنة ومفيدة لو لم يكن الكسر والتحطيم يغلب عليها لما قاسته من اهاويل الدهور اما العاديات التركية والعربية الاخيرة فتافهة على الاكثر . وفي الاستانة محل قرب جامع السلطان احمد عرضوا فيه صور الانكشارية مجسمة من الجبس من صنع النمسا وهم يلبسون البستهم المعروفة وجالسون على مراتبهم وعاداتهم لابأس بزيارتها لما فيها من الفائدة التاريخية

خطابنا [1] في التربية الاوربية

٣٥

سادتي الاخوان الاعزة :

اوعز الي اعضاء هذا المنتدى الكريم ان احدثكم بما رأيت في رحلتي الاخيرة الى اوربا فلم تسعني مخالفتهم لان الطلاب اعزة وتبادل الافكار معهم من اشرف المطالب ولكن الموضوع كبير لايتسع وقتي الآن للاحاطة

(١) القيناه في المنتدى الادبي في الاستانة وهو مجمع الناشئة العربية من طلاب المدارس العالية

اليمانية انما نشأت بعد هلاك مدينة سبإٍ ومعين واستدلوا من ذلك على ان الخط الحميري يشبه الفينيقي ولكن دخله قلب وابدال كثير

ومن العاديات آثار قبرص منها تمثالان للمعبودين هركول وآفروديت واوان خزفية ونذور · ومنها حلي اشورية وفينيقية وحلي وجواهر واقراط واساور وقلائد وجدت في مدينة ترواده اي في محل اسمه الآن حصارلق من اعمال لواء بيغا شمالي جون ادرميد وكان اسمه في القديم ايدا وهو بين جبل قار وهللسبون اي بين جناق قلعة وبحر الارخبيل وكانت هذه عاصمة قديمة مشهورة · ومنها ماوجدوه في ترال من ازمير وليبة من طرابلس الغرب وبرقة وغيرها في طرسوس وآخر في برغمة وفي نابلس

هذه جملة اشرنا بها الى ماحواه المتحف وله قسم آخر اسلامي جملوه في قصر الصيني امام البناء الجديد كما قسمت مصر عادياتها الى متحفين متحف الآثار المصرية واليونانية القديمة والمتحف العربي · وقصر الصيني هذا مما أمر بانشائه السلطان محمد الفاتح ولكن لم يبق عليه من آثار ايامه الا اثر ضئيل جداً مثل الآثار التي يحويها وبعض عاديات واكثرها من قرون الانحطاط اي القرون الخمسة الاخيرة ومنها بعض الصيني الذي كان يعمل في دمشق ورودس وازنيق وكوتاهية وبعض الكاشاني المكتب بالكوفي ومنها ماعثر عليه في مصر وقونية ودمشق وبورصة وكان يعمل فيها كما تعمل الطنافس البديعة في معامل دمشق وتوقاد واصفهان وغيرها

ومن عاديات قصر الصيني درفتان من صنع قرءمان وقونية ومنها رحالي وقماقم وطنافس ومصابيح وخطوط صدرت عن بعض الملوك العثمانيين ومنبر من صنع الرها (اورفة) واوان خزفية وجدت في الرقة من اعمال حلب وجلود

ان يتخطوا معبد سليمان والا فيعاقبون بالموت · وهناك حجر كلسي عثروا عليه في القدس مكتوب عليه كتابة فينيقية وفيه ذكر جر الماء تحت الارض في قناة حفرت في الصخور من نبع جيحون الى سور القدس حتى تصل الى نبع عين سلوان وينسبونه الى الملك حزقيا احد من ورد ذكرهم في سفر الملوك من التوراة

وليست العاديات المصرية كثيرة في المتحف ومنها صور ابي الهول وفي ثلاث قاعات الآثار الكلدانية والبابلية والاشورية واكثرها الواح واوان واكواب وعظام كتبت بالخط المسماري

ومنها ناووس من الخزف يرد الى عهد بابل اي الى نحو ٦٠٠ سنة ق·م ومنها مسلة من الحجر من مخلفات نابونيد ملك بابل كسرها سنخريب في وقائعه مع السيتيين · ومن العاديات ماوقع في خرابة نيفر في الشمال الشرقي من الديوانية من اعمال بغداد ومنها ماوجد في تللو من اعمال البصرة ومنها ماعثروا عليه في سيدارا او ابي الحبة من اعمال الجزيرة

وقد خصصوا القاعة السابعة عشرة بالآثار التدمرية والحميرية ومن الآثار التدمرية ما يستدل منه على ان صنعها من بدائع صناعهم وان كانت تشبه الصناعات اليونانية لان مملكة تدمر وان كانت يهودية لم يبق فيها اثر لهم لان الاشوريين قرضوا عمرانها ثم ارتقت على عهد اورليانوس اوائل ظهور النصرانية ودخلت في حوزة المملكة اليونانية على عهد الاسكندر واستعملت اللغة الرومية ولا سيما في الرسميات وان كانت لغتها الآرامية او السريانية · اما الآثار الحميرية فهي آثار اهل سبإٍ ومعين في الجوف وعاصمة سبإٍ مأرب واهل معين كانوا نازلين في قصبة العلى في جوار مدائن صالح ومملكة حمير

بين القرن العاشر والثامن ق · م وقد استولى على هذه القلعة صاراغون ملك اشور سنة ٧١٢ وباستيلائه عليها محي اسم الهيتيين من عالم الوجود · على ان تاريخ هذه الامة مع مابلغت من الحضارة بين الامم القديمة لم يؤثر عنها بالذات شيء يدل على عظمتها لان خطها لم ينحل حتى الآن ويرجى ان يكتشف كما اكتشف الخط المصري القديم بواسطة حجر وجد في رشيد كتب بالخط المصري مترجماً الى اليونانية

ومن العاديات المهمة في المتحف الاواني الزجاجية والخزفية واحسن الزجاج ماجاء من سورية وقد كتب على كل قطعة منها اسم البلد الذي عثر فيه عليها · ومعلوم ان تاريخ وجود الزجاج قديم يتعذر معرفته وهناك قطع من الفسيفساء عثروا عليها في استانكوي او جزيرة كوس من جزائر البحر الرومي ويرد تاريخها الى الدور اليوناني وآثار معبد اشمرن في صيداء من آثار الفينيقيين الخزفية وآثار سوكة وآياثلوغ ونامورد من اعمال ازمير وغيرها من بلاد الاناضول واكثرها يوناني · وفي قاعة أخرى اوان وجدت بالقرب من صور ووبج في ولاية مناستر في بعض المدافن واوان في ليندوس (رودس) وغيرها يرد تاريخها الى ادوار مختلفة يونانية ورومانية ومنها ماعثر عليه في لابسكي من اعمال كليبولي

ومن الآثار المهمة في القاعة الحادية عشرة عاديات ارض فلسطين ومنها ماعثروا عليه في جوار القدس ويرجع تاريخه الى القرن الثامن ق · م وما عثر عليه في بحيرة حمص في الجزيرة التي حفر فيها من القدور والاسرجة وقد اعتبروا القسم الاعظم منها من عهد الزمن النحاسي · وفيه قطعتان من المرمر وجدتا بالقرب من المسجد الاقصى وعليهما كتابات بالرومية تحظر على الغرباء

مقربة منه تمثالان من الخزف المنقوش لابي الهول عثر عليهما في مدينة اورله او ميناء قلازومن من ازمير

قلنا ان الناووس المعروف بناووس الاسكندر هو من ابدع ماصنعت الايدي ولذلك زاره الوف من علماء اوربا واميركا يعجبون بصنعه وفيه كثير من الرسوم والخطوط النفيسة الملونة ومن الصور المزبورة عليها وقائع الاسكندر المشهورة . ومن كتاباته ما كتب بالخط الهيروغليفي المصري ومنها بالخط الفينيقي

ومن الرسوم الموجودة في ناحية قريبة مايرجح انه رسم الحرب التي نشبت بين الاسكندر في ايسوس او اربيل وبين دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق . م

ومما يقع نظرك عليه في القاعة الرابعة بعض عاديات هيتية مثل اسود وجدت في زنجيرلي وقصورها وتمثال يمثل احد ملوك الهيتيين وقاعدة تمثالين لابي الهول وتمثال من الحجر الاسود اسمه «اسد مرعش» كتبت عليه كتابات هيتية وهو اشهر اثر عثر عليه من آثار هذه الامة حتى الآن .

والهيتيون امم مختلفة كانت في القرن الخامس عشر قبل المسيح تنزل في جبال الاكراد في سورية وقبادوكيا وقسم عظيم من بلاد الاناضول حتى مجرى نهري الاحمر (قيزل ايرمق) وكديز واصولهم كثيرة متباينة بل ان البلاد التي كانوا مستولين عليها هي كما يقول المحققون في شمالي سورية اي في المنطقة الممتدة من فرع الفرات الاكبر الى جبال طوروس . وقد انشأوا علَى الفرات قلعة قارغاميش المعروفة الآن بجرابلس واخذوا يهددون مدينة نينوى القديمة (الموصل) الى اواخر القرن الثامن ق . م وبلغوا منتهى مجدهم

السلطنة العثمانية أبد الله اركانها

ومن اجمل مايشاهد فيه مسلتان عثروا على الاولى في صامسون والاخرى في ازنيق واسد وجد في هاليكارناس (قصبة بودروم) و يرد تاريخه الى اربعة قرون ق · م وبجانبه ناووس روماني استخرج من دراج في ولاية اشقودرة ومن الطف عاديات هذه الدار النواويس التي عثر عليها في صيداء وهي عبارة عن ستة وعشرين ناووساً ادعى بعضهم ان احدها هو ناووس اسكندر المقدوني لان الاسكندر توفي في العراق وجيء به الى سورية على ان روايات المؤرخين مختلفة في مدفنه · ومن النواويس ناووس دفن فيه تابنيت ابن اشمونازار ملك صيداء وعليه كتابة بالخط الفينيقي · وناووس الاسكندر من اغرب مانقش النقاشون تحسدنا عليه وعلى كثير من الآثار الموضوعة في قاعات متحفنا اهل العاديات والآثار و يبذلون لنا لو اردنا في الحصول عليها مئات الالوف من النضار ونواويس المتحف البريطاني واللوفر ليست باعظم منها

ومن عاديات المتحف ناووس معروف باسم « صدراب » احد ولاة فارس فيه رسوم الصيد والقنص والحرب واللعب والسباق ووضيمة جنازة ومنه يستدل على ماوصلت اليه هذه الصناعة من تلوين الرخام في ايونيا في الساحل الغربي من بلاد الاناضول من الارتقاء في القرن الخامس ق · م وهناك تمثال ثماني عشرة امرأة من اعجب مانقش النقاشون جعلن على اشكال منوعة بعضهن قائمات و بعضهن قاعدات وهن يذرفن دموع الحزن واللهفة و بالقرب منهن ١٩ قطعة من نواويس رومانية عثر عليها في جبل لبنان وحمص و بيروت

ومن النواويس البديعة ناووس اسمه ناووس ليكيا اي البلاد المعروفة اليوم بسواحل اضالية من اعمال قونية وهو رومي الصنعة محلي الاسلوب · وعلى

آل عثمان وسلطانهم ويرى الفاتح يسوق اسطوله على اليابسة باعجوبة لم يسبق لها نظير ويفتح القسطنطينية ويملك قصر القياصرة وخزائنهم كما افتتح اجداده بلاد الاكاسرة وقوضوا عروشهم ويكون نعم الامير الذي امتدحه الرسول وجيشه نعم الجيش ·

وفي الحقيقة ان هذا البناء اللطيف من اجمل ما يتصوره الفكر والطف ماتشعر به النفوس فهو يحتاج الى قريحة شاعر مطبوع او قلم كاتب مجيد يصف ماتشعر به النفس من المعاني الشعرية في جانب هذه المناظر البهيجة والآثار التاريخية · هذا ولا يسعني هنا الا ان اثني الثناء الطيب على ناظر المتحف حافظ محمد رفيق بك لما ابداه من المجاملة والملاطفة في زيارتنا هذه كما اني اشكر للاستاذ الزهراوي وعبد العزيز افندي قوبجه لي عنايتهما في هذه الزيارة التي هي من اثمن الزيارات التاريخية ·

المتحف العثماني (1)

٣٦

ليس بين معاهد الاستانة وقصورها معهد توفرت فيه شروط التجديد ودخلته الروح الغربية مثل المتحف العثماني فهو المعهد الوحيد الذي قلدنا فيه الاوربيين وأحسنا التقليد يستفيد به زائره تاريخ الصناعة ولا غرو فقد ضم عاديات الامم القديمة كالرومانيين واليونانيين والفينيقيين والاشوريين والبابليين والمصريين والهيتيين والبيزنطيين المتأخرين من نواويس وتماثيل واواني وآثار حجرية وخزفية وبلورية وكلها شاهدة على الدهر بما كانت عليه حضارات الشعوب التي انقرضت فاصبحت بلادها من جملة ولايات هذه

(١) كتاب « موزهٔ همايون عثماني يه مخصوص رهنما اثر وحيد »

اليه بثلاث درجات صغيرة وخزانة من الكهرباء الملون المعرق اهدتها فيكتوريا ملكة الانكليز للسلطان عبد العزيز ومكتب (قنصل) كبير مرصع بالماس والياقوت وسائر الاحجار الكريمة اهدتها كاترينة قيصرة الروس للوزير الاعظم محمد باشا البلطهجي يوم وقعة (بيروت) الشهيرة وهذا المكتب من اثمن ماشاهدناه في هذه الخزينة لما فيه من الاحجار الكريمة وحلل ملوك بني عثمان وعمائمهم موضوعة كلها على قوالب مخصوصة على شكل انسان بالهيئة التي كانت عليها ومكتوب على كل منها اسم صاحبها وسيف السلطان الغوري عزيز مصر وخاتم السلطان عبد العزيز الذي نزع من اصبعه يوم استشهاده ووسامات مختلفة اهداها ملوك اوربا للسلاطين العثمانيين وغير ذلك من الآثار البديعة التاريخية

وفي الجملة فان هذه الخزينة هي اعظم خزينة على وجه الارض لانها جمعت بين خزائن الاكاسرة وخزائن القياصرة وملوك الاسلام وكانت في الدور القديم تجمع فيها الاموال الزائدة عن نفقات الدولة وتدخر لاوقات الحروب وتسمى (ايج خزينة) اي الخزينة الداخلية · يروى ان السلطان مصطفى الثالث كان جمع فيها مبالغ طائلة صرفها كلها في الحرب الروسية ويقدر ماصرفه في ذلك الوقت باثني عشر مليون ليرة على حساب هذا الزمان

اما بناء الدائرة فليس من الابنية الفخمة المزينة بل هو بسيط جداً على طرز التكايا وليس فيه مايستحق الذكر سوى ماذكرناه آنفاً من القصور الحديثة التي بناها ملوك بني عثمان بعد الفتح وانما هي تمتاز بجمال موقعها وحسن مناظرها ومكانتها التاريخية فالواقف في فنائها او في احد قصورها يمتع طرفه بتلك المناظر البهيجة ويسرح فكره في غابرها وحاضرها ويهتز طرباً وتتجلى له عظمة

هذه الحجرة هي رابع حجرة في الدنيا من حيث الحجم والوزن وقد امتعنا الطرف برسم السلطان عبد العزيز مجسماً معمولاً من النحاس الاصفر ممتطياً جواده بقطعة كبيرة طبيعية وآخرين صغيرين ورأينا رسم اسكندر الثاني قيصر الروس ورسم غليوم الاول عاهل الالمان

ومما رأيناه ثلاث آلات للمنظومة الشمسية مصنوعة من النحاس الاصفر تدور فيها الارض والسيارات حول الشمس بحركة دولاب يدار باليد كل ذلك بل اكثره موضوع في خزائن من البلور لاتمسه الايدي رأينا مسميات لانعرف اسماءها مما يحار لها العقل و يدهش لها الفكر وانى لنا بابن المعتز يقف في هذه الخزينة و يصف مافيها من الحلي والحلل والجواهر الثمينة والمصنوعات الفاخرة النادرة بمنظومات تحكي ترصيع الجواهر المكنوزة في هذا الكنز الكبير

ليس شيء اصعب على الكاتب من ان يرى اشياء لم يألف مشاهدتها ولا يعرف لها اسماً فهو اذا اراد وصفها عصته الالفاظ وضاقت به التعابير رأينا في هذا المتحف شيئاً كثيراً كله من النادر الغريب الذي لا يوجد الا في خزائن الملوك ولو اردنا ان نصف كل مارأيناه لطال بنا البحث واحتجنا الى سفر كبير ولكن نكتفي بذكر الآثار التاريخية الثمينة بالنظر لما لها من المكانة العلمية والقيمة الادبية

فمن ذلك درع مرصعة بالماس والياقوت مع سيف مرصع ايضاً مكتوب عليهما هذه العبارة « هذه الدرع غنمها السلطان مراد الرابع لما فتح بغداد في اليوم الثامن عشر لسنة الف وثماني واربعين هجرية » وتخت معمول من الباغا مرصع بالفيروز والزمرد وهو تخت السلطان احمد الثالث كان يجلس عليه يوم عرفة وفي وسطه فراش من الاطلس مرصع باللآلي بنقوش لطيفة يصعد

الاكاسرة ويشتبك مع صاحب العجم في حرب عوان فيهزم جيشه ويستولي عَلَى عرشه وخزائنه ·

هذا التخت عَلَى هيئة مستديرة قائم على اربعة اعمدة يصعد اليه بدرجة واحدة وكله مرصع بالياقوت والزمرد مما يبهر الناظر · شاهدنا في هذا المتحف سيف قسطنطين باليوغوس آخر قياصرة الروم وهو سيف مرصع بالماس اخذ من جملة غنائم يوم فتح القسطنطينية · شاهدنا مهد السلطان محمود الثاني وهو عَلَى شكل السرر التي تصنع في دمشق من الخشب مرصعة بالصدف وهذا مرصع بالاحجار الكريمة · وفي المتحف ثلاث قطع من الزمرد الاولى بقدر جوزة الهند ووزنها ثمانمائة درهم والثانية عَلَى شكل مستطيل وزنها ستمائة درهم والثالثة بينهما في القطع والوزن وهناك اوانٍ من النجف بعضها مرصع وبعضها بدون ترصيع وساعات واوانٍ من العاج وبواطي من الصيني ودروع وطبرات ومغافر وبنادق قديمة مرصعة مما لا يكاد يحصى وخواتم من الماس بعضها فصة بقدر الجوزة · والى جانبها دوي قديمة ذهبية وقماقم ومحاريب وسبحات ومراوح مرصعة وفي جملة هذه المراوح ثلاث تعد من نوادر المصنوعات الواحدة قبضتها مرصعة بالماس والاخرى مرصعة بالياقوت والماس في وسطها ياقوتة بقدر الجوزة والثالثة مرصعة بالاحجار الكريمة وعليها رسم الكرة الارضية

ومما امتعنا به النظر صورة شخص طوله عشرة سانتيمرات صدره وبطنه لؤلؤة واحدة ورجلاه فيروزتان وبالقرب منه صندوق وعليه فيل من الذهب مرصع بالاحجار الثمينة · رأينا اغطية مناضد من الاطلس والديباج بعضها مرصع باللؤلوء فقط والبعض الآخر مرصع باللؤلوء والزمرد والياقوت بنقش بديع يأخذ بالمعقول وهناك قلب من الماس حجرته الوسطى بقدر البيضة ويقال ان

عَلى طرز قصر هرون الرشيد وسماه (قصر بغداد) وهو قصر مبني عَلى الطرز الشرقي بشكل مثمن منتظم تحيط به من الخارج ردهة ضيقة ذات منافذ تطل عَلى الخمائل والبحيرات وتشرف عَلى بحر مرمرة وقسم من البوسفور واحياء القسطنطينية وضواحيها وبجانب هذا القصر دائرة (الخرقة الشريفة) وفيها الرداء النبوي وبقية المخلفات والآثار النبوية

وخرجنا بعدئذ من هذا القصر ودخلنا قصراً آخر فيه غرفة كبيرة طولها نحو عشرين ذراعاً وعرضها نحو ثلاثة عشر ذراعاً يقال انها من بناء السلطان مصطفى الرابع وفي الجهة القبلية من هذا القصر قصر آخر بناه السلطان عبد المجيد ويسمونه (سلطان مجيد كوشكي) مبني على الطرز الايطالي وهذا القصر اجمل قصر رأيناه هناك ومما يجدر بالذكر في هذا القصر صفاء بلور النوافذ حتى لتظن ان النافذة مفتوحة لابلور فيها لشدة صفائه وعَلى جانب هذا القصر حجرة صغيرة بناها السلطان عبد المجيد لتبديل لباسه قبل دخوله دائرة الخرقة الشريفة

ثم انتهينا الى دائرة المتحف السلطاني وهي بيت القصيد في هذه الزيارة وهنا لايتمالك الانسان من الدهشة عند مايشاهد تلك الآثار النفيسة والمصنوعات الثمينة النادرة التي لاتقدر لها قيمة لقيمتها التاريخية · دخلنا هذه الدائرة وهي موألفة من ثلاث غرف تحتانية وثلاث أخرى فوقانية واول شيء وقع نظرنا عليه تخت كسرى الذي غنمه السلطان سليم الاول من الشاه اسماعيل الصفوي في حرب (جالديران) الشهيرة وقد نصب في وسط المتحف يوحي الى الرائي بعظمة الدولة العثمانية ومجدها السالف ويصور للناظر السلطان سليم الاول ممتطياً جواده سالاً سيفه يقود جيشه الباسل الى بلاد

واشكالا · فهم فلاسفة قول لاعملة عمل وجربذتهم في اساليب لهم يتقنونها لا في ظلامة يرفعونها وولاية يرقونها واصلاح يدخلونه ·

ولا اغالي اذا قلت ان عمال الاستانة الآن صورة من صور العهد الحميدي الا انهم يدعون الحرية وهم مضطرون الى الاسراع بمصالح العباد باقل مراوغة ومطاولة مما كانوا عليه في العهد الماضي اما الاصلاح الحقيقي فاظن من سيقومون به لهذه البلاد العزيزة لم يخلقوا بعد ونحن نكتفي من الحاليين ان يحتفظوا فقط بالحالة الحاضرة ريثما يتخرج جيل جديد يربى على ادب النفس وادب الدرس وينشأ بعيداً عن اخلاق الحكومة الاستبدادية المطلقة التي غرست مبادئها الساقطة في القلب واللحم والدم والعظم

المتحف السلطاني [1]

٣٣

دخلنا هذه الدائرة الفخمة من بابها الغربي الكائن بجوار نظارة العدلية ومررنا امام دار الضرب العامرة وبعدها دخلنا من باب آخر ينتهي الى ساحة كبيرة بني على اطرافها رواق ذو قباب اشبه ببنيان التكايا ثم دخلنا من باب ثالث فاستقبلنا بهو كبير يسمونه غرفة العرض كان يجلس فيه الوزراء والامراء للمذاكرة والمشاورة وفي صدره مصطبة كبيرة يصعد اليها من درجة واحدة كان يجلس فيها السلطان متوارياً عن الاعين

ثم خرجنا من هذه الغرفة وصعدنا الى قصر شامخ يصعد اليه بسلم من رخام جدرانه مزينة بالقيشاني بناه السلطان مراد الرابع بعد رجوعه من بغداد

(١) لم تتيسر لنا زيارة هذا المتحف فعهدنا الى صديقنا شاكر افندي الحنبلي ان يزوره عنا ويكتب لنا مقالة في وصفه ففعل وانا اشكره لفضله وعنايته ·

لا ارى الانحطاط بعد الرقي ولا الظلام بعد النور ·

ومن جملة المعاهد التي هي جملة مقصدي وغاية مناي من زيارة الاستانة مجلسنا النيابي زرته خمس مرات واعضاؤه نحو مائتين وخمسين نائباً من جميع عناصر الدولة واصقاعها تجد فيهم ذا العمامة البيضاء او الخضراء كما تشهد فيهم لابس الكوفية والعقال وثلاثة ارباعهم من لابسي الطرابيش ولقد سمعت من ارباب العمائم مناقشات راقية لم اكد اسمعها الا من النواب الذين صرفوا شطراً من اعمارهم في اوربا يتعلمون ويتمرنون ويدير حركة المجلس من النواب اليوم نحو عشر اعضائه شأن مجالس العالم كلها فان ارباب العقول الراقية والمضاء الكبير قلائل في كل طائفة · خصوصاً ومجلسنا ما برح طفلاً ويرجى ان يكون في الانتخابات المقبلة ارقى مما هو الآن

رأيت النظام قليلاً في المجلس يبدأ قبل الظهر بالنظر في قانون كذا وبعد الظهر يتناقش في غيره قبل ان يكمله ومن الغد يتناقش في مسألة أخرى وينسى القانون او اللائحة الاولى وذلك لانهم وسدوا رئاسته لرئيس اشتهر بخدمته الحرية والشهرة قد تكذب · وكم وسدوا النظارات في هذا العهد الدستوري الجديد الى اناس اشتهروا بعلمهم وعقلهم في الدور السالف حتى اذا جاء الآن دور العمل ابانوا عن ضعف في المدارك وخور في العزائم وبضاعة مزجاة من العلم والعمل ونفس شريرة تعد قتل عنصر من العناصر قتلاً معنوياً لغاية بعيدة الحصول اسهل من تناول الكاس او السلام على الناس

وكل اولياء الامر اذا حدثتهم في نقصنا والسعي لاصلاحنا شاركوك في حديثك وربما تظاهروا باكثر من غيرتك وحملوا اشد من حماتك فاذا اتت نوبتهم ليعملوا تراهم يقرون القديم على قدمه ان لم نقل يزيدون الحال اعضالاً

والاستانة من حيث قوتها المادية ضعيفة ضئيلة نصف اهلها اتراك يبلغون نحو ستمائة الف والنصف الآخر اروام وارمن واكراد وارناؤد وعرب وغيرهم من العناصر العثمانية · ويغلب على الاتراك الاتكال لانهم مازالوا حتى بعد الحرية يعتقدون من انفسهم الغناء والسؤدد اكثر من بقية العناصر ويتوهمون انهم العنصر الحاكم ولذلك قلما ترى بينهم تاجراً معتبراً او زارعاً كبيراً او مالياً دراكة يعيشون كلهم الا المرتزقة والباعة عالة على الامة لا يعرفون غير تقلد الوظائف الادارية والعلمية والقلمية والعسكرية ·

فالاستانة من هذه الوجهة مدينة الاتكال المجسم يعيش اهلها كالحلمة الطفيلية عَلَى عنق الولايات ولكم خربت ولاية او لواء او قضاء ليعمر بها احدهم مصيفاً له على ضفاف الخليج او في جزيرة الامراء ويقتني من الجواري والسراري والعبيد بقدر ماتطيب له نفسه ·

ولاهل الاستانة فضل ادب ولين جانب عرفوا به منذ القديم فترى الواحد منهم يعاملك باقصى اللطف والظرف حتى يرضيك وفي باطنه عَلَى الاغلب يسر لك غير ذلك وهذا الخلق عام في عمال النظارات والادارات الكبرى ولولا ذلك ماانصرفت وجوه ارباب الاشغال من سكان الولايات الى الاستانة يقصدونها لكشف ظلامة ونيل رتبة ومرتبة وراتب ·

صرفت في هذه العاصمة عشرين يوماً قابلت في خلالها كثيراً من اهل العلم والسياسة وكنت اتكاره في الاختلاف الى المعاهد والناس اذ سئمت نفسي كل ذلك بعد باريز التي رأيت فيها من كل شيء احسنه ومن العالم ارقاهم ولطالما اسودت عاصمة بلادي في عيني ووددت على الاقل لو كتب لي ان ازورها قبل الرحيل الى الغرب وامتاع النظر والحواس بحضارته البهجة حتى

عضواً اثرياً يذكرهم بايام حكم الاتراك عليهم ·

وعند الظهر سار بنا القطار يقطع بلاد البلغار ووصلنا الى جسر مصطفى باشا في ولاية ادرنه اول التخوم العثمانية عند العشاء وهناك جاءنا رجال شرطتنا يدمدمون و يبرقون و يرعدون يحكمون على هذا بالجزاء النقدي و يعفون عن ذاك و يطلبون من هذا جوازاً ومن الثاني ان ينبشوا صوانه وهميانه ومن الثالث ان يفتشوا صندوقه و يراقبوا كتبه والخلاصة تغيرت معنا الحال من الاعلى الى الادنى حتى بلغنا بلادنا فرأينا الانحطاط باديًا عليها في كل شيء وادارتها هي تلك الادارة الاستبدادية بعينها لم يعدل الدستور من شدتها ومازلنا على ذلك حتى بلغنا صباح الغد الاستانة عاصمة سلطنتنا العثمانية ·

عاصمة السلطنة العثمانية

٣٢

صقع جميل وسواحل بديعة ومناظر رائقة وسماء صافية ورفاهية مفرطة وأنس دائم فمن المضيق الى الخليج الى جزر البحر الى متنزهات منقطعة القرين الى غابات ملتفة وجبال مكسوة وعيون خرارة وكل ذلك بهجة النفس والخاطر وهذه هي الاستانة واحياؤها وضاحيتها ·

اما عمرانها فصورة مكبرة من عمران الولايات لا نظام ولا شوارع منظمة ولا طرق معبَّدة ولا راحة للراكب والسائر ولا للمقيم والنازل وغاية مافيها من مصانع وآثار قصور السلاطين والجوامع الكبيرة الزاهية التي انشأوها منذ عهد محمد الفاتح الى يومنا هذا و بعض ثكن ومدارس عالية حديثة لا شأن لها من حيث فن البناء

كنت اذكر وقائع العثمانيين في سلستريا والبروج المعروفة ببرج العرب واذكر تلك الدماء العزيزة التي اهرقت علَى ضفاف الطونة لفتح هذه البلاد ركبت معنا من اول محطة في بلاد الصرب فتاتان صربيتان في الخامسة عشرة من عمرهما عليهما سيماء الحشمة والادب فسألت الرفيقة رفيقتها ان تغني شيئاً فالتفتت الينا وكان معنا رفيق بلغاري يعرف التركية فاستأذن في ذلك فقلت له لا بأس فاندفعت الفتاة تغني بنغمة علَى ايقاع غريب فاضت له نفسي بالدموع خصوصاً وقد جاءها الغناء وهي تفكر فيما اصابنا في هذه الديار من الشقاء . فعجب رفيقي البلغاري وقال لعلك فهمت هذا النشيد الوطني الصربي قلت لم افهم وانما تأثرت من النغمة ومن امور أُخرى فسألني ماهي فلم يسعني الا ان بحت له بذات نفسي ولما ذكرت له كيف تقدموا هم وتأخرنا من بلاد هواؤها عثماني وسماؤها عثماني واكثر عاداتها عثمانية عذرني علَى شعوري بما فيه من فضل ادب .

ووقف القطار ساعتين في بلغراد عاصمة الصرب فاغتنمت الوقت لزيارتها وهي نظيفة لطيفة صغيرة حرية بان تكون قاعدة لتلك المملكة التي يقطعها القطار طولاً باقل من عشر ساعات وزرت من الغد صوفيا عاصمة بلغاريا وهي اجمل واضخم منظمة علَى مثال المدن الاوربية ويغلب الادب اهلها وكثير منهم يعرفون التركية وقد وقفنا عليها نحو ست ساعات تمكنت اثناءها من درس معالمها وحدائقها ومتنزهاتها وبعض قصورها وهي اقرب الى ان تكون مدينة شرقية منها الى ان تكون مدينة غربية ويقال انها ترتقي سنة عن سنة ارتقاء يحسدها عليه حتى الاوربيون الراقون وعجبت لما سمعت بعض الالفاظ التركية يستعملونها مع اللغة البلغارية حتى الآن كأَنهم تركوها

ساعتين فرأيت ان لا اضيع الفرصة فاخذت اطوف المدينة ولكن كانت الثلوج غمرتها فلم ار منها الا واجهات الابنية ورؤوسها وهنا تمثل لي النقص واحسست بالعجز وشعرت بالغربة وانا التفت عن يميني وشمالي فلا اسمع الا الالمانية التي لا اعرف منها اكثر مما اعرف من الكردية وقد تركت بعض رفاق لي في القطار ومنهم بولونيون يتكلمون بالافرنسية تطيب نفسي بمحادثتهم ومفاكهتهم حتى اذا عدت آخذ مكاني من القطار اجتاز بنا بعد قليل في ارض النمسا وهكذا حتى وصلنا مساء اليوم الثاني الى فينا عاصمة النمسا ·

وعلى ذكر اللغة لابأس بان اقول انني يوم دخلت فرنسا لم اشهد وحشة ولم اشعر بغربة لمعرفتي بلسان اهلها واطلاعي على تاريخهم وعاداتهم فكنت كأنني داخل ولاية من الولايات العثمانية التركية او قطراً من الاقطار العربية في غربي آسيا او شمالي افريقية ولما انتقلت من ستراسبورغ شعرت بتغير العادات واللهجات وايقنت بان الغريب الذي يزور بلداً لايعرف لغة اهله كالاصم والاعمى وهذا ماعاقني في الاكثر عن زيارة انكلترا والمانيا خلال هذه الرحلة مع شغفي بحضارة هاتين الامتين لانني استصعب ان ارى غيري بعيون غير عيني وآذان غير اذني"

قضيت في فينا يومين استرحت فيهما من وعثاء السفر واطلعت على بعض معاهدها الا ان الثلوج التي بلغت نحو ذراع عاقتني عن اتمام الزيارة فركبت ثالث يوم بعد الظهر القطار قاصداً بلاد المجر فاجتزنا عاصمتها بودابست في الليل ووقف القطار فيها ساعة لم اتمكن في خلالها حتى ولا من رؤية المحطة وعدنا الى قطارنا حتى تخطينا من الغد ارض الامبراطورية الى ارض البلقان ولم يكد القطار يجتاز نهر الطونة حتى تمثل امام خيالي تاريخ هذه البلاد وبينا

٣١

قضيت شهرين اثنين في هذه العاصمة طفت المعاهد ورأيت المشاهد وعرفت العامل الجاهد وتبينت العالم المجاهد وطعمت الجشب والشهي من الطعام ووصلت السير بالسرى وعمل الليل بعمل النهار ورأيت العملة في حاناتهم ومطاعمهم وواكلت الاغنياء في مقاصفهم وشاركتهم في نعيمهم واختلطت بطبقاتهم اسمع عباراتهم ولم استنكف من غشيان كل مكان ارجع منه بفائدة مستطلعاً طالع خلق جارياً من الاختبار فيه على عرق فكانت عيني تملّ النظر واُذني تسأم السماع وذهني يتأفف من التفكر وقلبي يتخوف كثرة الوعي . ومع ما صرفته من الوقت والقوة خرجت من هذه المدينة وفي النفس منها اشياء لم اتمكن من درس معالمها ومجاهلها ولا سيما اماكن الرياضات البدنية واللعب على اختلاف ضروبه وزيارة مجاري العاصمة تحت الارض وسراديبها والاعتبار بقبورها ومدافنها وهي مزينة كقصور الاحياء ومقطعة الى طرق ومناطق

وفي يوم بدأ نهر السين بفيضانه المشؤم الذي طغى على السدود والسكور فدكها وبثقها واودى بالاموال الجسيمة من ناطق وصامت ركبت القطار وقت الظهر الى الحدود الالمانية فكان نهرا الموز والمارن هائجين حتى طغت مياههما على السهول والاودية ولم يصل القطار الى نانسي على الحدود ويبلغ ستراسبورغ في ارض الالمان وقاعدة الالزاس الا وقد انقلبت تلك الامطار ثلوجاً وذاك الهدير سكوناً ولون تلك المياه الكدرة بلون الثلج الابيض الناصع وبلغنا مونيخ عاصمة مملكة بافيرا الالمانية صباح الغد فوقف القطار زهاء

ان يعيب شيئاً مما يشهد · واي عين لا تقع على ساره برنارد اشهر ممثلة فرنسوية وهي في الخامسة والستين من عمرها تمثل دور جان دارك وهي في التاسعة عشرة فتظهر كأنها هي بصوتها وحركتها ونضرة وجهها ولا ترتاح وتعجب واي اذن تسمع الحكمة فى رواية الباريكاد يقولها احد الممثلين بصوت رخيم «ان الطبقات الاجتماعية كالامم يضيع حقها في حفظ مالم تقو على الدفاع عنه ·» ولا يفكر طويلاً

ولقد رأيت في دور التمثيل حتي مايوصم منها بان فيه شيئاً من الخلاعة مثل «مولان روج» ان الادب يغلب على السامعين والناظرين · وان قاعات الاستراحة بين الفصول ليسير فيها الخرد العين كاسيات عاريات معطرات متبرجات ولا ترى الا من يغض الطرف حياءً وادباً · والغالب ان النساء يلبسن لليالي التمثيل اجمل ثيابهن وازيائهن كأنهن في بيوتهن وبين صويحباتهن واصحابهن وقلما تراهن في الشوارع الا مكتسيات من اللباس بما خف محمله وقل ثمنه

اما سائر اماكن الطرب كمحال السماع والموسيقى والمراقص العامة فكثيرة جداً في باريز واحسنها ماكان على جوانب الجواد العظمى او بالقرب منها ويكون فيها المرء بحسب مبلغه من التهذيب · وموسيقى الافرنج وعزفهم وزفنهم يستحسنها الشرقي مع طول الألفة لها والأنسة بها ومن لم يعرف عندهم ولو احد هذه الأنواع الثلاثة استغربوا أمره وعدوه محروماً من لذائذ الدنيا ساقطاً من رسوم الهيئة الاجتماعية · ولكل قوم عاداته واخلاقه يحرص عليها كثيراً ولا يرى فيها حرجاً ولا نكيرا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً

الالوف وبعضها مئات الالوف من الليرات وان ممايبهج جوق الموسيقى في الاوبرا وقد حزرته بمائتي شخص وجوق الممثلات والراقصات والممثلين على المسرح وما اظن جمهرته تقل عن خمسمائة ٠

واذا عرفت ان الاوبرا تدفع لاحد ممثليها ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة اي ١٢٨ الفاً عن ٦٤ ليلة في السنة وتدفع لغيره من الممثلين رواتب تختلف بين ٨٥ الفاً الى ٣٠ الفاً ٠ وعن كل ليلة يغني فيها كاروزو عشرة آلاف فرنك وتتناول بعض الممثلات اربعة آلاف فرنك في الشهر جاز لنا ان نستقل اعانة الحكومة للاوبرا ونحكم على كثرة دخلها وخرجها

ولقد كنت اتمثل نفسي في حضرة اعظم فصحاء الارض وعلماء الاجتماع والنفس ساعة تنتهي الى مسمعي اصوات الممثلين والممثلات وتنفتق السنتهم بكلمات الحكمة والادب ويشخصون الفضيلة في ابهى مظاهرها كأنك تراها فلا اتمالك من توقير الممثلين والممثلات واكبار فائدة التمثيل ٠ المدارس لتنشئة الصغار في وقت معين من السن ودور التمثيل مدارس دائمة للصغار والكبار تلقنهم من ايسر السبل حكمة وآداباً وتلقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة

حضرت رواية « مثل الاوراق » في الاوديون ورواية « الباريكاد » لبول بورجه في الفودفيل ورواية « جان دارك » في تياترو ساره برنارد ورواية الجندي الصغير في الشاتليه فكان يخيل لي وانا اسمع وارى ان الامر واقعي وان هذه المشاهد حدثت الآن وقد اجتمع جمال الصوت الى جمال الوجوه الى جمال الكلام الى جمال الهندام الى جمال المكان الى جمال النظار واقل هذا مما يستهوي النفس فلا تدري اي شي ترى ولا اي فائدة تعي

وما اظن اكبر متنطع لوحضر التمثيل في مثل هذه الدور العظمى يستطيع

ولما حللت باريز كان من اوائل المسائل التي توخيت دراستها حالة التمثيل في الغرب والسر في توفر اهله عليه وخدمتهم له كما يخدم الشعر والموسيقى والخطابة بل جعلوا هذه الفنون خادمة للتمثيل واصبح عندهم من ضروريات الحياة كالطعام والشراب لاحياة بدونهما وكذلك التمثيل لاحياة روحية بدون الاختلاف الى دوره ولو مرة في الشهر ان لم يكن مرة او مرتين في الاسبوع ٠

والتمثيل في باريز من اعظم ملاهيها وقل ان تجتمع لعاصمة ما اجتمع لها من ضروبه واشدة عناية الحكومة به تنفل من مالها كل سنة اربعة دور تمثيل مبلغاً تستعين به على تحسين حالها فتمنح الاوبرا ثمانمائة الف فرنك والتياترو الفرنسوية ٢٤٠ الف فرنك مع الدار وتعطي الاوبرا كوميك ٣٠٠ الف وتعطي الاودبون ١٠٠ الف فرنك وفي باريز ٥٣ دار تمثيل كبرى ذهبت الى اشهرها مثل الاوبرا والتياترو الفرنسوية والاوديون والشاتليه وساره برنارد والفودفيل وغيرها

وكنت كلما ألفت اصطلاحاتهم في احاديثهم وحركاتهم وسكناتهم ومظاهرهم ورقصهم وغناهم يتبين لي سر تغالي الغربيين بالتمثيل وانه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عملية ودار سلوى وارتياح ارواح فلا عجب اذا عدوه من اكبر العوامل في نهوضهم وتثقيف مجتمعاتهم وشغفوا بفصوله ولا شغف الشرقي بفضوله وحرص الفرد منهم على ساعاته حرصه على عزيز اوقاته

اما دور التمثيل فهي قصور فخمة هندسوها على ضخامتها بحيث لايحرم الحضور على اختلاف درجاتهم من سماع مايقال على مسارحها ورؤية مايعرض فيها من المشاهد والمناظر ٠ وكفى بان دار الاوبرا كلف بناؤها ثلاثين مليون فرنك وذرعها احد عشر الف متر ٠ واقل دار تمثيل تساوي عشرات

مثل مدينة دالاس في ولاية التكساس في الولايات المتحدة فان اهلها كانوا سنة ١٨٨٠ عشرة آلاف نسمة فازمع بعضهم ان يؤسسوا نادياً سموه نادي المئة والخمسين الفاً اي ان مدينتهم ستكون سنة ١٩١٠ مئة وخمسين الف نسمة وما برحوا يتذرعون الى ذلك بكل حيلة حتى بلغ عددهم سنة ١٩٠٤ ٨٣ الفاً وتوصلوا الى ان قال الرئيس روزفلت في خطاب له ان شمالي التكساس هو حديقة الرب ومدينة دالاس تطالب ويحق لها ذلك ان تكون نقطة دائرة هذه الحديقة

ثم ان الاعلان اساس من أُسس الثروة اليوم بل هو سبب من الاسباب المعقولة المشروعة واثره في الاعلان عن الاشخاص ظاهر وكم من نابه اشتهر بتحدث الناس في أمره ومن آخر خمل ذكره لانه لم يعرف كيف يتوصل الى الشهرة فعاش ومات ولم يدر به احد فاللهم اجعل الشرقيين من النابهين بحق لا الخاملين المجهولين

دور التمثيل والانس والاجتماع في باريز

٣٠

ان ماشهدته من التمثيل العربي المنحط جداً في الديار المصرية والشامية زهدني في التمثيل على انواعه فصرت لا اختلف الى دار تمثيل الا متكارهاً وذلك في المدة الطويلة لقلة غنائه وانقطاع الرغبة فيه واعلل ذلك بان التمثيل لم يعهده العرب ايام حضارتهم بل لم يكن لهم مايشبهه في قرطبة ولا في بغداد ولا في دمشق ولا في القاهرة ايام عزتها ولذلك قلما مال ابناء العرب اليه ميل الغربيين له وقدروا مزاياه حق قدرها ·

حسبوا ان عشرة ملايين اي ثمن اهالي الولايات المتحدة يبتاعون حاجياتهم عَلَى هذه الكيفية ٠

وان لاحد هذه المحال التجارية في شيكاغو زبناً يبلغون مليوني نسمة يتناول منهم في السنة اربعة ملايين رسالة وهذه الرسائل لاتفتح واحدة واحدة بل تجعل كل ستين منها في آلة تفتح كلها بلحظة ثم ترسل الى مئات من البنات تجعل كل قسم مع قسمه وكل طلب مع مايضارعه وتجعل في لوالب كهربائية لاتقل عن خمسة عشر الف لولب وترسل في اسرع مايمكن الى البيوت التي تقدم للمحل طلباته وهي لاتقل عن ٧٧ الف نوع فتأتي كلها عَلَى جناح البرق بحيث يكون العمل ماامكن مستغنياً عن الايدي الكثيرة عَلَى ان محلاً واحداً من هذه المحال التجارية التي تبيع بالمراسلة عنده من المستخدمين ٦٢٠٠ مستخدم ولم يكن صاحبه قبل ربع قرن يملك ليرة واحدة وثروته تعد اليوم بملايين الليرات والناس يطلبون الى محله والى غيره من المحال التي عَلَى شاكلته كل مايخطر ببالهم ومنهم من يطلبون او يطلبن الزواج بواسطته ٠

وعلى الجملة فانك لاترى في ديار الغرب محلاً تجارياً او معملاً او مشتغلاً بالفنون الجميلة بل ولا عالماً ولا كاتباً ولا صانعاً الا وينفق جزءاً من ماله عَلَى الاعلانات ليربح المئة مئات وللاعلان يد طولى في عامة الاعمال الصناعية والزراعية والعلمية ولولاه ماراًينا المخازن الكبرى والمعامل الكبرى والجرائد الكبرى فعسى ان يقتدي الشرق باخيه الغرب في هذا السبيل فيعلن خصوصاً عن اصقاعه الجميلة ليجذب السياح اليها ويربح منهم مئات الالوف من الليرات كما فعلت سويسرا واغتنت بعد فقرها بكثرة تشويق العالم الى زيارة ربوعها وكما فعلت فرنسا وايطاليا والمانيا وغيرها من اصقاع اوربا واميركا

١٨٢٢٦ جريدة ومجلة بلغ مجموع مايطبع من اعدادها من كل نسخة ١٤،٢٩٩،٣٣٤ ا ومجموع ماتطبعه في السنة ٨،١٦٨،١٤٨،٧٤٩ وبلغ مجموع ايرادها تلك السنة ٨٧٨،٩٤٨،٢٥٠ فرنكاً منها ٤٧٩،٣٠٥،٦٣٥ فرنكاً من اجور الاعلانات اي ٥٤،٥ في المئة من مجموع دخلها وتطبع بعض الجرائد نسخاً خاصة بنشر الاعلانات فقط وتوزعها على مشتركيها ومن الجرائد ما لا يطبع غير الاعلانات وتوزع مجاناً · ويصرف احد بيوت الثياب في فيلادلفيا نصف مليون فرنك في السنة اجرة صفحة واحدة من احدى الجرائد الكبرى في تلك المدينة اسمها لركورد ويصرف مخزن آخر يريد منافسته مليون فرنك على اربع جرائد · ومن كتاب الاعلانات من يرزق الف ليرة في السنة

ومن الاعلان الغريب ان بعض التجار ليس لهم بيوت ولا مخازن بل هم يطبعون اعلانات وينشرونها في قوائم خاصة وعلى صفحات الصحف والكتب والرسائل فيرسل الطالبون بالبريد يطلبون منهم مايشاؤن من بضائع ومأكولات وهم يرسلونها اليهم بالبريد ايضاً وهذه الطريقة اخترعت في الولايات المتحدة لان ثلاثة ارباع سكانها يعيشون في القرى والمزارع بعيدين عن مراكز التجارة واشغالهم لاتسمح لهم بالاختلاف الى المدن لابتياع مايشاؤن وبهذه الواسطة يوفرون عليهم عناء التعب والمساومة ويصلهم مايشتهون وهم في اعمالهم وناهيك بما في هذه الطريقة من تبادل الثقة بين التاجر والشاري وفي شيكاغو وحدها تبيع مثل هذه المحال التجارية في السنة بما قيمته ملياران وخمسمائة مليون فرنك وان ثلاثة محال منها لتأخذ وحدها كل يوم خمسة وعشرين الف رسالة في طلب مايلزم اصحابها · وقد

بلا ثمن ولكن النصح يفعل في اكثرهم · واخترع احد الابدالين من بائعي المأكولات المحضرة في لندرا طريقة للاعلان عن محله بان اغتنم فرصة حضور جوق تمثيل فابتاع مئات من الكراسي لمستخدمي محله ادخلهم على نفقته فتحدث القوم بذلك وذكرته الجرائد فحصل المقصود للمحل بالاعلان عن نفسه · ومن غريب تفننهم ان احد مخازن القبعات في بلتيمور في اميركا اعلن في الجرائد انه يريد ان يعرف احد النساء المحكوم عليهن بالقتل فاهتدى اليها واعطاها مئة ريال على ان تقول قبل ضرب عنقها هذه الجملة : « كل ما استطيع ان اقوله الآن هو ان محل المستر بلانك يعمل احسن القبعات بريالين » ثم قطع عنقها واغتنى صاحب المعمل ·

والامثلة على ذلك كثيرة ويكفي القاء النظر على اي حائط او مجلة او جريدة لتعرف مبلغ تفنن الغربيين في الاعلان والاساليب في الكتابة التي يختارونها والصور المنوعة ومنها المضحك وغيرها الجدي وبعضها لطيف وآخر بشع ومنها السياسي والادبي والعلمي وقد جعل الانكليز السكسونيون للاعلانات قواعد حتى صارت علماً من العلوم لايبرز فيه الا من حسن ذوقه وعرف النقش والرسم والتصوير والطباعة وكان ملماً بالاقتصاد السياسي وعلم النفس ومحيطاً بعالم المالية والصناعة والتجارة والجرائد والمجلات وكان ذا هبة بالتفنن والادب والخطابة حاسباً كاتباً مقنعاً يعرف التفنن في المسائل الحاضرة او يحسن علم الحال

ولا تعيش معظم الجرائد والمجلات الكبرى الا باجور اعلاناتها حتى ان اجرة صفحة واحدة مرة واحدة في جريدة « لادي هوم جورنال » بلغت الف جنيه · ويؤخذ من احصاء صدر سنة ١٩٠٠ ان في الولايات المتحدة

من ثمانية اجزاء من عمل الصوف ذكروا انها توصلت بفضل التفنن في الاعلان عن نفسها الى ان كادت تلتهم جزءاً عظيماً آخر من ارباح الشركات الاخرى ان لم تكن التهمتها حتى الآن

والطرق الى ذلك مختلفة فمن ضروب الاعلانات الاعلان في الجرائد والمجلات على اختلاف انواعها ووضع صفائح مخصصة في الصفحة السابعة او الثامنة اي الاخيرة واعلانات في شبك ودس الاعلانات في اخبار الجرائد وبين اخبار الرياضات والسباق ودور التمثيل والازياء وادماجها في المقالات وتعليقها على حيطان الدور وفي شوارع المدن والقرى وعلى طول السكك الحديدية وفي اماكن النزهة والمناظر التي يسرح فيها النظر وفي عجلات الحوافل والترامواي والسكك الحديدية تحت الارض وفوق الارض وستور دور التمثيل والقصور وجميع الاماكن العمومية حتى المراحيض وترسم الاعلانات على القرطاس الذي يضعه الكاتب تحت يده وعلى المقطع والسكاكين وعلبة عيدان الكبريت والدواة والبارموتر وكتب التقاويم وورق النشاف وبطاقات البريد وتجعل من الورق الملون والمقوى والزجاج والخزف والخشب والمعدن وغيرها · وتبدو في المساء بالوان مختلفة مقطعة بادية بالكهرباء وغيرها مما يطول ذكره

ومن غريب تفننهم في الاعلانات ان مخزن ادوات نحاسية وحديدية في ليفربول اخذ يعلن في جرائدها بانه يقدم مفتاحاً بلا ثمن لكل من يضيع مفتاح بابه او خزانته فبهذه الواسطة كان يأتيه المضيع فينصح له المحل بان يبتاع قفلاً كاملاً ويغير القفل القديم حتى لا يقع المفتاح في يد لص وربما هانت عليه السرقة فبعض الناس يبتاعون وبعضهم يكتفون بأخذ مفتاح

ينفق علَى الاعلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك مسانهة اخذ اليوم ينفق نحو ثلاثة ملايين ونصف فرنك وقد كان خصص احد معامل الصابون ثلاثين الف ريال للاعلان عن مصنوعاته وهو اليوم يصرف الف ريال في اليوم وتخصص المعامل الكبرى التي تبيع بالمفرق في مدينة نيويورك وحدها زهاء اربعة ملايين ريال في السنة لنشر اعلاناتها في الصحف وفي مدينة شيكاغو يستخدمون البريد لنقل قوائم باعلاناتهم وقد انفق احد اصحاب المخازن لارسال طبعة واحدة من الاعلانات بطريق البريد ٦٤٠ الف ريال وليس من محل في اميركا الا ويصرف خمسة في المئة من ارباحه علَى الاعلانات وقد انفق احدهم ٧٥٠ الف ريال للاعلان عن موسى له فباع ستة ملايين موسى وكذلك فعل توما بيشام بحبوبه فصرف للاعلان عنها مليوني جنيه

فاشتهار اسم المعمل او صاحبه من القطب الشمالي الى القطب الجنوبي وترداده في افواه ارقى الامم واوحشها موقوف علَى كثرة التفنن في الاعلان عنه والبذل في هذا السبيل عن سعة حتى قال كارنجي اعظم اغنياء الاميركان: اذا اردت ان تبيع قبعة بريال فانك تستطيع ان تبيعها بريالين اذا وضعت اسمك عليها وذلك لانك تفهم الناس بان لاسمك بعض القيمة .

وذكروا (١) ان شركة ولن سي الاميركية وهي شركة معامل اصواف مؤلفة من ٢٧ معملاً رأس مالها ٦٩٠ مليون ريال وكانت مجموع ارباحها سنة ١٩٠٢ ١٨٧،٥٠٠،٠٠٠ علَى حين بلغ مجموع المنسوجات الصوفية المصنوعة في الولايات المتحدة كلها ملياراً و ٤٨٥ مليون ريال فبيدها جزء

(١) كتاب الاعلان الرابح المعقول لارين

La publicité lucartive et raisonnée, par J. Arren.

نعرف او بعضنا لغة امة كبرى تريد ان تحارب العالم حرباً اقتصادية حتى لايكون مثلنا مثل الفرنسيس مع جيرانهم الالمان قبل حرب السبعين جهلوا ماعندهم فخسروا في مادياتهم ومعنوياتهم .

نعم نتوفر على الاخذ من اوربا كل ماتمتاز به مملكة من ممالكها فنحول وجهتنا بعد الآن الى جرمانيا لنتعلم علومها واقتصادها ومتاجرها وبريتها ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق وعن انكلترا السياسة والعلوم والبحرية وعن ايطاليا الصنائع النفيسة ونجعل للغة الالمانية والايطالية حظاً من عنايتنا حتى لانكون حكرة مضرة لحكومة خاصة من حكومات الغرب فنحن كما نريد في السياسة ان نعامل الدول كلهن بوئام يجب ان نأخذ عن كل دولة راقية احسن ماعندها حتى لانكون من الجامدين على امة بعينها والجامدون في مسائل الدين كالجامدين في مسائل الدنيا لايخلو حالهم من ضرر على المجتمع .

الاعلان اساس التجارة

٣٩

تقدم في الفصل السالف ان البيوت التجارية في باريز تبيع ماتبيع ببركة الاعلان عن نفسها وهنا مجال لان افصل ذاك الكلام المجمل فاقول : كل من زار مدينة اوربية اواميركية من ابناء هذا الشرق الاقرب يأخذه العجب من وفرة الاعلانات وتفننهم في نشرها والفرنسيس في الاعلانات مقلدون لامجتهدون قلدوا الاميركان والانكليز وهؤلاء ينفقون عليها نفقات لاتكاد تصدق فقد ذكروا ان معمل الموازين (١) فيربانك وشركاؤه الذي كان

(١) المقتبس م ٢ ص ٢١٦

ومما هو حري بالنظر في المسائل الاقتصادية ان اهل باريز على شدة كرههم الالمان يبتاعون في بلدهم البضائع الالمانية لرخص اسعارها والتفنن في ابداعها حتى كادت بضائع الالمان تأتي على بضائع فرنسا مع جودة هذه ومتانتها واصبحت بذلك معظم البيوت التجارية لاناس او لشركات من الالمان وغيرهم ومثل ذلك قل على ماقرأته في احدى المجلات عن تجارة لندرا او تجارة نيويورك فان القسم المهم منها بيد الالمان يصرفون على الانكليز والاميركان سلعهم وحكومة انكلترا واميركا مع شدة حرصهما على مصلحة قومهما التجارية لم تستطيعا بالتعاريف الجمركية ولا بغيرها ان تقيماسداً منيعاً دون تسرب البضائع الالمانية اليهم · ولكن المانيا او العنصر الجرماني ومن لف لفه تحارب هذه الحرب التجارية بسيف العلم والمعارف وسدود الدول لاتقوى على صد هجماتها المعقولة

ذكر الاحصائيون ان مدارس المانيا تخرج كل سنة اربعين الف طالب وبيدهم الشهادات التجارية فاين يذهب هؤلاء الرجال بعد ؟ وهل لهم الا ان يصرفوا متاجرهم في مشرق الشمس ومطلعها بالطرق الاقتصادية المدهشة · فكم رجل تخرج من البلاد المصرية العثمانية ياترى حتى الآن في المعارف التجارية وكم طالب اتقن اللغة الالمانية منا حتى اصبح يكتب فيها ويترجم منها واليها كما يكتب الفرنسوية او الانكليزية ويترجم بها ومنها ؟

قال لي احد علماء الالمان اتدري باي شيء غلبنا الفرنسيس في حرب السبعين قلت لا اعلم قال غلبناهم لاننا كنا عارفين بما عندهم اما هم فلم يكونوا يعرفون ماعندنا وانا اقول ان اقتصارنا معاشر العثمانيين والمصريين والسوريين خاصة على تعلم اللغة الفرنسوية في الاكثر هو من الاحتكار الضار فيجب ان

وما يلزم لها من الاثاث والخرثي والرياش والاواني والسرر والصناديق والمقاعد والمتكآت والكراسي وادوات الطبخ وكل مايتصرف تحت انواع الزينة والتبرج والبذخ والرفاهية ماياخذ بمجامع القلب ويعد من اغرب غرائب الغرب . ولا يقدر المرء ان يطوف هذا المخزن في اقل من ثلاث ساعات اذا احب ان يلقي نظرة واحدة على مافيه من التحف والامتعة الثمينة وهو قصر فخيم جداً لم ار اجمل من نقوشه البديعة وبنائه العظيم سوى متحف اللوفر ومتحف فرسال ودار المجلس البلدي الباريزي . وفي مخزن دوفايل محل للتمثيل ومحل للموسيقى ومحل لالعاب السيماتوغراف يختلف اليها الزائرون باجور معتدلة جداً والغرض منها ان يمروا ببعض مخازن ذاك المحل الكبير فيكون مرورهم بها والقاء انظارهم عليها بمثابة اعلان عما فيها من الاعلاق النفيسة وببركة الاعلان يشتري من لم يكن تحدثه نفسه بالشراء .

ومن الغريب ان هذا المكان الذي لايشبهه في الفخامة الا ارقى قصور الملوك والامم كما قلنا آخذ الآن في توسعة مخازنه لانها ضاقت به على سعتها وما ادري ماهو رأس ماله ولا مقدار ارباحه وعدد مستخدميه وغاية مارأيت ان مصرفه اشبه بمصرف كبير بل هو في سعته وكثرة مستخدميه اشبه بمصرف الكريدي ليونيه في القاهرة لا في باريز فانه هناك العجب العجاب بعينه .

وقرأت في احصاء اخير ان مخزن لافاييت احب ان يزيد رأس ماله فقرر مساهموه ان يزيدوه اثنين وعشرين مليوناً ونصف مليون من الفرنكات فاذا كان مخزن واحد زاد رأس ماله في جلسة نحو مليون ليرة عثمانية فكم يكون اصل رأس المال .

نفسه فانشأ من كانوا الى الانفراد في متاجرهم ينضمون بعضهم الى بعض ومن عاشوا بالوحدة يربحون ويخسرون فلا يدري بهم احد عدلوا عن سالف طريقتهم واقتدى المتأخر بالمتقدم او العناصر اللاتينية والسلافية بالعناصر الانكليزية السكسونية

مثال ذلك مدينة باريز مهد الحضارة اللاتينية فانك تجد معظم مشاريعها ومتاجرها ومصانعها لشركات ومشاريع الافراد ومتاجرهم ضعيفة ضئيلة لا تكاد تحيا حتى تموت وكلها آيلة طوعاً او كرهاً الى الاندماج في سلك الاشتراك مع الجماعة . دخلت كثيراً من مخازن باريز فكنت اشهد على قلة المامي بفن التجارة روح الجماعة مرفرفة عليها وتمدد القوى زائدة في نمائها وحسن الذوق وسلامة الابداع تتخلل ارجاءها وتزيد بهاءها .

باريز اعظم بلد تصرف فيه السوق المالية والتجارية والصناعية من فرنسا ورؤوس اموالها مقدمة جميع متاجرها ولا تفوقها في ذلك الا لندرا . وقد بلغ عدد ما في باريز من البيوت المالية والمصارف وشركات الضمان فقط زهاء الفي محل توشك ان تكون كلها لشركات واعظم متاجر باريز بل فرنسا تجارة الاطعمة المحضرة والامتعة والثياب والازياء وكلها مهمة جداً لا بكثرة عددها بل بمكانتها وفخامتها وانتظام اعمالها .

زرت بعض هذه المخازن من مثل لابل جاردنيير والبرنتان والبون مارشه واللوفر ولافاييت ودوفايل وكل واحد منها يبتاع بما حوى قطراً واسعاً من اقطار الشرق ويحتاج وصفه الى الكلام ساعات على شرط ان يكون المتكلم عارفاً بالتجارة وما يتصرف او يتوقف عليها وتتوقف عليه وكل مخزن يعد مستخدموه وموظفوه بالمئات ففي مخزن دوفايل وهو لفرش الدور والقصور

فكأن اهل هذه العاصمة زهدن في حضور هذه الدروس المجانية وازهد الناس في الرجل اهله وجيرانه · وان دروساً يعد من جملة اساتذتها لفاسور وبول لوروا بوليو الاقتصاديين وماسبرو وغانو الاثريين وجونيان ومونو المؤرخين وبرجسون وريبو الفيلسوفين وغيرهم من الائمة الاعلام لحرية بان يستفيد منها كل طالب ويغترف من درر بحورها عاشق العلم

وان هذا المعهد ليولي فرنسا شرفاً ليس وراءه غاية ويدل على تفانيها في نشر المعارف والاخذ بايدي القائمين عليها وينادي بلسان الحال والمقال على توالي العصور والاجيال ان فرنسا اذا هرمت في سياستها واخلاقها فهي على الدهر فتية في جمال علمها وجدة حكمتها

التجارة الباريزية

٣٨

لم يكتف الفرنسويون بل الغربيون بما بلغوه من اسباب الراحة والرفاهية بل تراهم يعملون ليلهم ونهارهم لئلا يسبق بلد بلداً آخر او مملكة مملكة أُخرى كأن المنافسة التي هي من اعظم عوامل الارتقاء قد تجسمت في صدر الكبير والصغير من الافرنج فكان من آثارها مايبهرنا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة

رأيت روح الاجتماع مستحكمة في اعمال الاوربيين فلا يكاد يأتي زمن قليل حتى تصبح جميع مشاريعهم واعمالهم شركات وجمعيات ليخفى عمل الفرد ويظهر عمل الجماعة ويتراجع ضعف الواحد امام قوة المجموع فقد ظهرت لتلك الامم نتائج الاشتراك جماعة ظهوراً لاينكره الا من يكابر حسه ويغش

والتاريخ والاحصاء الاقتصادي (١٧) تاريخ العمل (١٨) جغرافية فرنسا التاريخية (١٩) تاريخ الاديان (٢٠) الفلسفة الاجتماعية (٢١) علم الاجتماع الاسلامي (٢٢) علم الجمال وتاريخ الفنون (٢٣) علم الكتابات والعاديات الرومانية (٢٤) الكتابات والعاديات اليونانية (٢٥) الكتابات والعاديات السامية (٢٦) الآثار المصرية واصول لغاتها (٢٧) الآثار الاشورية واصول لغاتها (٢٨) الآداب العبرانية والكلدانية والسريانية واصول لغاتها (٢٩) الآداب العربية واللغة العربية (٣) النقود القديمة ونقود القرون الوسطى (٣١) آداب اللغات الصينية والتترية والمنشوية ولغاتها (٣٢) آداب اللغة السنسكريتية (٣٣) آداب اللغة اليونانية (٣٤) فقه اللغة اليونانية (٣٥) تاريخ آداب اللاتينية (٣٦) التاريخ الوطني والعاديات الوطنية (٣٧) الفلسفة الحديثة (٣٨) اللغة الفرنسوية وآدابها في القرون الوسطى (٣٩) اللغة الفرنسوية الحديثة وآدابها (٤٠) اصول اللغات الجرمانية وآدابها (٤١) لغات اوربا الجنوبية وآدابها (٤٢) اللغات والآداب السلتية (٤٣) اللغة السلافية وآدابها (٤٤) علم النحو المقابل (٤٥) العاديات الاميركية (٤٦) الرياضيات (٤٧) تاريخ فن الموسيقى (٤٨) التاريخ العام والطريقة التاريخية (٤٩) اصول اللغات الهندية والصينية وتاريخها

هذه العلوم التي تدرس في مدرسة فرنسا ولا يستغرق الدرس منها ساعة يتلو في خلالها الاستاذ زبدة علمه وبحثه ولا يكثر المستمعون الا في بعض الدروس التي رزق اساتذها فضل بيان وطلاقة لسان واكثر الحضور غرباء اي غير فرنسويين وفيهم كثير من الفتيات طالبات العلم ممن قصدن فرنسا من المانيا وانكلترا وروسيا والنمسا وايطاليا وبلغاريا ورومانيا والصرب والسويد واسبانيا واميركا ليغترفن من مدارس باريز ويحكمن لغتها الجميلة ·

فرنسيس الاول ملك فرنسا حوالى سنة ١٥٣٠ وجعل فيه درسين الاول لتعلم اللغة الرمية والثاني للعبرانية وسمى المدرسة مدرسة الملك ورأت الكلية اذذاك ان قد استهين بها فاوعزت الى مدرسة اللاهوت أن تتهم مدرسي مدرسة الملك بانهما يدعوان الى الزندقة فحال الملك دون صدور الحكم عليهما واضاف الى المدرسة درساً في الفصاحة اللاتينية ليخلص وجماعته من تهمة الالحاد ومازال عدد الدروس يزيد عَلَى عهد كل الملوك حتى اضاف اليها هنري الثالث درس العربية ونابوليون الاول درس التركية ولم يبرح بناؤها ودروسها عرضة للقلب والابدال حتى عَلَى عهد الجمهورية الثالثة

ولقد اصبحت هذه السنة الدروس التي تلقى عَلَى الناس مجاناً ٤٩ درساً يصح ان يقال انها مجموع علوم البشر يتولى تدريسها اعاظم اساتذة هذه البلاد وعلمائها ممن اشتهروا بفن او علم اولغة وصرفوا في البحث فيه شطراً مهماً من حياتهم ولم ار في هذه المدرسة استاذاً تقل سنه عن ستين الا بعض المعاونين ممن يتجاوزون الاربعين وينتخبهم المجمع العلمي او المجامع العلمية الخمسة واساتذة المدرسة ويقبض الاستاذ عشرة آلاف فرنك في السنة ولا تتجاوز مدة الدروس ستة اشهر يتلو في خلالها درسين في كل اسبوع فقط

اما العلوم التي تلقى عَلَى جمهور المستمعين فهي (١) علم الاثقال التحليلي والسماوي (٢) العلوم الرياضية (٣) علم الطبيعة والرياضة (٤) الطبيعة العامة والتجربية (٥) الكيمياء المعدنية (٦) الكيمياء العضوية (٧) الطب (٨) علم الحياة العامة (٩) تاريخ الاجسام الغير العضوية الطبيعي (١٠) علم تكوين الجنين (١١) التشريح العام (١٢) علم النفس التجربي (١٣) تاريخ العلوم العام (١٤) تاريخ التشريع المقابل (١٥) الاقتصاد السياسي (١٦) الجغرافيا

متقنة جداً .

ولهذه المطبعة معامل للتصوير الشمسي وطبع الصور والطبع المحفور المجوف والحفر على الخشب والحفر على النقش والحفر الناتيء على النحاس والزنك والطبع الملوّن وطبع الحجر والتصفيح والطبع المنحس وغير ذلك من التفنن في الطباعة وتسمح المطبعة باعارة الطابعين بعض الحروف الغريبة من اللغات الأجنبية ولا تطبع من الكتب الا ما كان بلغة غريبة لا يوجد من حروفها في كل مطبعة وذلك لمحض خدمة المعارف والفنون .

هذه جملة مايقال في مطبعة الامة ولو جمعت مطابع مصر كلها مادانتها بالمكانة وكذلك لو جمعت مطابع الاستانة واضفت اليها مطابع الولايات العثمانية برمتها والمطبعة التي تنفق عليها الحكومة نحو اربعمائة وخمسين الف ليرة في السنة يستحيل على حكومة كالحكومة العثمانية والمصرية ان تقوم بمثلها وهي لاتنفق على المعارف كلها نحو هذا القدر من المال او اكثر منه بقليل فتأمل

مدرسة فرنسا

٣٧

من المشاهد التي استغرقت شطراً كبيراً من وقتي في باريز دروس مدرسة فرنسا (كوليج دي فرانس) لسهولة التلقي فيها في كل علم يخطر في البال ولأن هذه المدرسة ذكرتني بمدارس الاسلام ايام حضارتنا وقد جعلوا العلم مباحا لكل طالب يلقنونه اياه بلا عوض .

في شارع المدارس بالقرب من كلية السوربون قام بناء عظيم اسسه

أنشئت لها بناية هائلة في شارع الكفاسيون لضيق هذا المكان على سعته البالغ سطحها عشرة آلاف متر مربع

تدخل من الباب فترى في فناء الدار تمثال غوتنبرغ مخترع الطباعة والمتفضل على الانسانية معمولاً من البرونز فلا تتمالك من الدعاء له وذكر بيض اياديه على العالم ثم يأخذك الدليل في الوقت الذي تعينه لك من قبل ادارة المطبعة و يطوف بك قاعات مسابك الحروف وفيها حروف في ثمانين لغة واللغة العربية في مقدمة لغات الشرق رأيناهم في بعض الغرف كتبوا بيتاً من الشعر العربي ليمرن الاستاذ العملة على تعلم هذه اللغة فيحسنوا تنضيد حروفها بفهم

ثم طاف بنا الدليل قاعات التنضيد والتجليد والطبع والطي فرأينا كل شيء قد جعل في مكانه اللائق به والعملة والعاملات يعملون في مكان واحد كتفاً الى كتف وقد يتولى الاعمال الشاقة الرجال من دون النساء · وعدد العاملين والعاملات في المطبعة يناهز الالف والخمسمائة وفيها ما يربو على ستين آلة طابعة على آخر طرز منها خمس آلات من المعروف بالروتاتيف وهي مثل ما تطبع جميع الجرائد الكبرى في الغرب اليوم · وتنفق الحكومة على هذه المطبعة نحو تسعة ملايين فرنك سنوية وفيها تطبع الجريدة الرسمية ومطبوعات الحكومة والنظارات ومناشيرها وفهارسها واوامرها فالاستعداد فيها تام لكل ما تطلب الحكومة طبعه وليس في وقتها متسع لطبع مطبوعات الافراد وناهيك بمطبعة حوت من الادوات ما يلزمها من سبك الحروف حتى التجليد وناهيك بكثرة اشغال حكومة الجمهورية التي تقع ميزانيتها وحدها في ثلاثة آلاف صفحة كبيرة يطلب طبعها في وقت قصير وهذا لا يتيسر الا بمطبعة

اما تنظيم ادارات الجرائد الكبرى فهو الغاية ولا سيما الامهات منها مثل «الماتين» وهي في اعظم جادة و بنايتها اجمل بناية وآلاتها الطابعة احسن الآلات فيها اثنتا عشرة واحدة تطبع الواحدة مئة الف نسخة في الساعة زرتها مع زهاء سبعين رجلاً وامرأة رأيتهم سبقوني الى زيارتها فما رأيت نظاماً اتم ولا استعداداً استوفى من الكمال اوفى القسم ومن احسن ماقرأته مما كتب فوق غرف المحررين «خلق المحرر ليكتب فلا تشغله فيما لا يعنيه» وزرت ايضاً ادارة البتي باريزين وهي دونها في الاستعداد وان لم تكن دونها في الانتشار والنفاد

الطباعة الباريزية

٣٦

المعنا مرات في الفصول السالفة الى تفنن الباريزيين في الامور الذوقية والطباعة من جملة فنون الذوق وان كانت تتوقف عَلَى علم وفضل وتجربة · واجور الطبع هنا غالية لغلاء الاسعار واجور الدور والمنازل فالعامل الجيد لا يرزق اقل من نصف ليرة واقل عامل لا يرزق اقل من اربعة فرنكات في يومه · ولذلك ترى بعض ارباب المجلات وغيرهم من المؤلفين والطابعين يطبعون مجلاتهم وكتبهم في مطابع الولايات لرخص اجورها وجودة طبعها الذي لا يختلف عن المطابع الباريزية في شيء

ومن جملة المطابع العظمى التي زرتها مطبعة الامة اي مطبعة الحكومة التي أَسسها لويز الثالث عشر سنة ١٦٤٠ ثم نقلت الى قصر الكردينال روهان من اجمل القصور الباريزية القديمة المعروف ببيت اساقفة ستراسبورغ · وقد

المقالات السياسية والاخبارية باسماء كتابها على عادة معظم الجرائد السياسية وبذلك قد يقع لها ان تؤيد اليوم في مقالتها الاولى فكراً مخصوصاً ثم يجيء كاتب آخر من الغد في نفس ذاك المكان من الجريدة فيضعف ذاك الرأي بعينه وينتقده · واعرف الجرائد بالشرق عَلَى التحقيق هي هذه وربما كانت جريدة الايكو دي باري من جرائد الصباح اكثر منها مادة برقية اخبارية عنه بدون تعليق على الحوادث · ومقالات الطان عن السياسة الشرقية تتناقل لانها اقرب الى الثقة والتعقل من غيرها ومع هذا تؤخذ بكل حذر شأننا مع عامة الصحف الافرنجية التي تقول الحق ولكن اذا صادف هوىً لها وهيهات ان تقوله بدون عوض · ولقد كنت اظن جريدة الديبا وحدها ترتشي من السلطان عبد الحميد المخلوع ولكن علمت هنا ان الطان ايضاً عَلَى مافيها من الغمز واللمز بالدولة كانت لا تستنكف من قبض الخمسة آلاف ليرة من اعوان ذاك السلطان لتكتب على هواه يوماً لعلم المخلوع بمكانة اقوالها في الاندية السياسية

وانواع الجرائد هنا كثيرة ومنها اليومي الذي لايكتب الا في موضوع واحد مثل جريدة « كوميديا » وهى تبحث في دور التمثيل والقصص التمثيلية والفاجعات وغيرها ومنها جرائد للسباق مثل جريدة « الاوتو » وهي لنشر اخبار سباق الحوافل « الاتوموبيل » وغيرها من انواع السباق ومن جرائدهم ماهو خاص بتأجير الاملاك والعقارات ومنها الخاص بطلاب الزواج وطالباته ومنها للازياء واخرى للعطور والطيوب ومنها للاخبار الخلاعية ولكنها مقصورة على طبقة خاصة تطبع سراً وتوزع كذلك واذا رآها الشرطة صادروها وانزلوا العقوبة الشديدة بكاتبها وبائعها ومشتريها

وغيرهم على ان الصحافة الفرنسوية كلها ترتشي وتلفق في احاديثها وتكذب في رواياتها ما عدا جريدة « الاومانيته » اي الانسانية وهي لجوريس احد زعماء الاشتراكيين تعيش من واردتها الشرعية ولا تسف لتناول رشوة من احد وان الصحافة الانكليزية اشرف غاية وانبل قصداً واكثر مادة واوسع مصادر اما انا فعلت هذا التصريح من اصدقائي الفرنسويين بان انكلترا هي ارقى الامم باخلاقها والاخلاق هي معيار الامم والجرائد مرآتها

ومن الصحف الباريزية ما يصدر مساء واكثرها جرائد لا تهتم بالمسائل السياسية بل بالامور المالية والحركة الادبية كدور التمثيل والخطاب وغيرها اما جرائد المساء فاكثرها يهتم بالسياسة فالطان والديبا من الجرائد المسائية والجورنال والماتين والبتي باريزين والبتي جورنال من الجرائد الصباحية والجرائد طبقتان قسم لعامة القراء وهي التي ينادي عليها المنادون في الشوارع باعلى اصواتهم وتباع في كل مكان فيقرأها البواب والحوذي والماسح والكساح وسائق الاتوموبيل والشرطي والمرتزق وبعض التجار وذلك كاكثر الجرائد الصباحية وقسم للطبقة العالية وابحاثها لهم بالطبع مثل الطان والديبا والغولوا والفيغارو وهذه لا ينادي عليها وتباع بثمن اغلى فالطان يباع عددها بثلاثة فلوس او خمسة عشر سانتيماً في حين تباع تلك الجرائد العامية بفلس واحد وهي اكبر حجماً واوسع مادة من هذه ولكن شتان بين مادة ومادة وحجم وحجم .

وجريدة الطان هي الجريدة الوحيدة التي تعنى كثيراً باخبار هذا الشرق الادنى خاصة والسياسة الشرقية عامة وهي جريدة وزارية تتدس كل وزارة تأتي وهذه بالطبع تعطيها اخباراً وربما امدتها بمعونة مالية وهي لا تذيل

الانسان ان يقرأ سطراً في شأن مالي في جرائدهم الا ويشك فيه ٠

وهكذا اصبحت الصحافة الباريزية مقيدة في صورة حرة مطلقة ففي وسعها ان تضرب في كل ماتريد وتنزع كل أساس وتهاجم كل موضوع وتغتاب كل امريء وتنم عن كل عمل وتفتات على كل فرد ولا يحظر عليها الا شيء واحد وهو ان تكشف الغطاء عن الاسرار المالية فاذا فعلت يحكم على الكاتب والناشر والجريدة باشد عقوبات الغرامة والضرر وكذلك اذا دلت على الطرق الاحتيالية التي يعيش بها رجل الفلاني منذ سنين

وعلى ذلك فالجرائد هنا يجب ان لا تقرأ الا بحذر شديد حتى مقالات الكيميـاء او التاريخ فانها لاتنشرها الا ولها منها مآرب تظهر بعد العمدة من نفس العدد او في عدد تال ٠ ويختلف كل الخلاف من الصحف التي تخدم الاحزاب جهاراً فان هذه تقلب الحقائق الناصعة وتجسم الحوادث او تضعفها بحسب هواها وتستعمل من السفسطة مايضحك ويبكي

فكأن الصحافة الباريزية جعلت لقلب الحقائق لاتقدر ان تسقط فيها على حقيقة خالصة من الشوائب فهي تزيد الى ضعف البشر الطبيعي وغلطهم وخطأهم اموراً تأتيها بذاتها بقصد تحريف الحق وتشويهه فمنها مايخضع للحكومة في كل مايكتب ومنها مايخضع للاحزاب وكلهم خاضعون لربهم وكثير منهم يقولون كل مايريدون على شرط ان يحسن المرء دفع المطلوب منه ٠ فقد قيل ان الرياء تكريم الرذيلة للفضيلة والصحف الفرنسوية تكرم الحقيقة من هذا النوع اي نها هي الرذيلة ٠

هذا ماقيل به من فكر الكاتب الفرنسي في هذا الباب وصاحب الدار ادرى بالذي فيه وقد اجمع العقلاء الذين لقيتهم من اهل العلم والمطبوعات

ذلك يتناولون من المصورين (١) والموسيقيين والممثلين والراقصات والعقيلات والآنسات والاعاظم والاصاغر لاتدون اسماؤهم بالطبع قبل ان يرشوا ادارة الجريدة بمال ترتضيه وكل ماتراه من اخبار الدعوات والرياضات والمآدب ووصف الازياء مع بائعات الزهور والجوهريين والخياطات والخياطين يدفعه ارباب المأدبة وتجار هذه الاصناف بل ان اخبار الاعراس والافراح واخبار المناعي والاموات لاتكتب الا لمن تؤخذ منه اجرتها والاعمال الادبية مهما بلغ من مكانتها لاتذكر بكلمة قبل ان يدفع صاحبها جعالة لقاء ذكر اسمه

وهناك الماليون وارباب التجارة يريدون ان يعبثوا بحوالة الاسواق ويعرفون ان السياسة تؤثر كثيراً في اعمالهم فيعمدون الى ابتياع الجرائد لتكتب في السياسة عَلَى هواهم فيرفعون الاسعار يوم يريدون الرفع ويخفضونها كذلك بما لهم بواسطة هذه الجريدة من التأثير في الافكار العامة ومنهم من يبتاع من الجرائد كلامها كما يبتاع منها سكوتها فدار اللعب في امارة مونا كو تدفع مشاهرات الى جميع الصحف الكبرى لتسكت عما يحدث فيها من ضروب الانتحار والخراب والفجائع التي تنشأ من المقامرة كما تدفع مبالغ جسيمة ايضاً في اوقات معينة لتأخذ الصحف في حمد مرافق مونتكارلو ونزلها ودور تمثيلها وسواحلها وصفاء العيش فيها ٠

وان اعظم علماء الاقتصاد لاتنشر له مقالة في موضوع مالي قبل ان يوافق عليها المصرف الذي ابتاع من تلك الجريدة روحها المالية ليصرفها كما يشاء وبعد حادثة بناما التي ظهرت فيها رشاوي الصحف الافرنسية لم يعد يقدر

(١) اعتمدنا في معظم هذه المقالة عَلَى ماجاء في كتاب «كيف تقرأ الجرائد» الذي صدر حديثاً في باريز لمؤلفه جورج فونسكريف

والبرقيات واخذت التجارة ترقى دخلت الصحافة في طور جديد فبعد ان كانت هي خادمة للتجارة اصبحت هي بنفسها تجارة لا يقصد منها الا الربح واول من انزل اجور اشتراكاتها اميل جيراردين مؤسس جريدة لابريس سنة ١٨٣٦ من ٨٠ او ٦٦ فرنكاً قيمة الاشتراك بالجرائد الكبرى الى ٤٠ فرنكاً وهي قيمة زهيدة لاتعادل النفقات انزلها ليكثر قراؤها واذا كثر قراء جريدة اقبل الناس عليها باعلاناتهم ومنشوراتهم فاستطاعت بعض الصحف ان تعيش مستقلة عن معونة الافراد والحكومة والاحزاب

ولكن هذا الاستقلال وان لم يكتب لها كلها الا ان سعيها وراء الاعلانات وخدمة الشركات والبيوت المالية قيدها اكثر من قبل بل اخرجها عن المقصد منها حتي صارت العشرون الجريدة الكبرى البارزية اليوم عبارة عن سمسار لايهمه الا ان يقبض العمالة من البائع والشاري وغدت الجريدة من مقالتها الافتتاحية الى انبائها البرقية فرفرف قصصها وتقاريظ الكتب والحوادث الداخلية والخارجية والانباء المنوعة والمقالات الادبية والاقتصادية والسياسية والاعلانات والمنشورات وغير ذلك مما تخوض الصحف عبابه مثل اخبار دور التمثيل والرياضات البدنية والسباق لاينشر منها اسم ولا سطر الا قبل ان يذهب صاحبه الذي يهمه وينقد امين صندوق الجريدة مبلغاً معلوماً عنه وعند ذلك ينشر له من الافكار والمحامد مايشاء وتشاء الاهواء

فان كتبياً او طابعاً لايقدر ان ينشر كتاباً طبعه الا اذا انتقده كاتب او عالم كبير وهذا اذا فرض انه رضي بان يخدمه بالمجان يسأله مدير الجريدة عن ربح الادارة من ذلك . فمقالة في تقريظ كتاب قد تكلف الطابع الفي فرنك يأخذ نصفها كاتبها الموقعة باسمه والنصف الآخر مدير الجريدة ومثل

الاسكندرية وكان بيتياس احد ابنائها الذي ولد نحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح لايقل عن اعاظم الفلكيين في القديم وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الروماني في البلاد المهمة والتعليم فيها عبارة عن مبادئ عملية من الحساب والمساحة والبناء ثم جاء دور الانحطاط التام فأصيب الغرب بغارات البربر ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية الا بعد ثمانية قرون بفضل العرب وبينا كان التمدن الاسلامي بالغاً اوجه كانت العلوم منحطة كل الانحطاط في ارض فرنسا · ولم ينتشر الطب والصيدلة في فرنسا الا بمساعي اطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر فاعتصموا باسبانيا اولاً ثم باقليم لانكدوك حيث أسسوا عدة مدارس ومن جملتها مدرسة مونبليه · وهذا كان مبدأ انتشار العلم في هذه الارض · فمن العرب اخذ الفرنسيس فيما مضى حضارتهم ونحن العرب اليوم نأخذ عنهم وندهش بحضارتهم فسبحان المعز المذل القابض الباسط

الصحافة الباريزية

٣٥

نشأت الصحافة هنا في مبدإ امرها بنشر اخبار الملوك والوزارت والموظفين والحروب والدول ثم ارتقت بارتقاء المدارك الى ان صارت تلم بمعظم الموضوعات التي تهم القراء وتعلمهم وعلى عهد الثورة اشتد ولوع الناس بالاطلاع على الحديث والآراء السياسية والى هذا العهد ظل الصحافي وراء منضدته يكتب ليفيد مثل الاستاذ على منبره والواعظ في معبده لايقصد الا تثقيف عقل وتربية نفس

ولما تكالبت النفوس على المال واتسع للصحافة المجال بكثرة المواصلات

لويز الرابع عشر ان الامة كلها للملك ولكن جاء في قانون حقوق الانسان والوطني ان مبدأ كل سلطة ينبعث من الامة بجوهره فما من جماعة ولا من شخص يستطيع ان يحكم حكماً لا يكون صادراً عنها بالفعل وهكذا مات حق الملوك الالهي المزعوم واتت الثورة على اعشار رجال الدين والاقطاعات والسخرات والاحكام التي يحكمها ارباب الاقطاع وساوت بين الناس في الواجبات والضرائب وقضت على قليل الكفاءة من ارباب الغنى ان توسد اليه الوظائف الكنائسية والحربية بدون استحقاق وحمت الحرية الشخصية وحرية الضمير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن وتساوى كل وطني من اكبر كبير الى اصغر صغير في الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كل بحسب طاقته وثروته

هذا موجز الاساس الذي قام عليه بناء النظام الجمهوري ثم عراه قليل من التعديل بتقلب انواع الحكومات وقيام بعض الادعياء بالملك الى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع المانيا وعندها استقرت الحال على ماتراها الى اليوم

اما نشأة الآداب والعلوم فلكل منها تاريخ ويقال على الجملة ان اللغة الفرنسوية هي بنت اللغة اللاتينية تكوّنت على صورة غريبة الى ان وصلت في عشرين قرناً الى حالتها الحاضرة وكانت ادبياتهم دينية لاول امرها وبعضها شعري ونثري واكثرها خرافي ولم تخلص اللغة من القيود العائقة الا في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر · وتاريخ العلم ونشوءه فيها طويل كتاريخ الادب ويقال على الجملة فيه ان مرسيليا كانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد في بلاد غاليا واشتهرت مدرستها كما اشتهرت كليات آثينا وكلية

طريقة منظمة في الجباية كما ان اللغات في البلاد تعددت وكلها لهجات من اصل روماني تمازجها لهجات بربرية وعادت سلطة الاشراف وسلطة رجال الدين تقوى حتى لم يعد يعترف السواد الاعظم من الناس بالزعامة عليه الا لهم ومنهم يطلبون الانصاف ولهم يدفعون الجزية والخراج وخربت المدن وهاجر رؤساء الجيش والاديار الى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الامن في البلاد وكاد الفلاح يكون عبداً لسيده كما في سابق الاعصار وفي اليمين الذي أقسم سنة ٨٤٢ في ستراسبورغ ظهرت لاول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين ومنها نشأت اللغة الافرنسية وفي معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعترف بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريز

ومازالت الملوك تتوالى عليها وتختلف في المباديء والاطوار حتى قبيل نهاية القرن الثامن وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسوي وزاد عدد المالكين من ابناء القرى زيادة مهمة وارتقت الصناعة والتجارة على ما كان يقف في سبيلها من القيود الكثيرة والانظمة المنوعة وارتقت الادبيات وتحررت من قيودها القديمة واخذت الفلسفة تبحث في التسامح الديني والحرية السياسية واصلاح القوانين الجنائية وتمايز الطبقات الاجتماعية وعارض مونتسكيو نظرية ان الملك ملهم من الله وحقه الهي على سكان الارض بنظرية الحكم الملكي النيابي ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعي

نبهت البارلمانات في مكافحتها سلطة الملوك (سنة ١٧٨٨) افكار وكلاء الشعب فبدأت الامة ترفع صوتها وكان الملوك يخفتونه ولا يرون لها حقاً في مطالبتها بحق واتفق ان وقعت البلاد في عسر مالي فاجتمع وكلاء الامة ينظرون في حل ما اصابهم فنشأت بعد حين الثورة الاولى (١٧٨٩) واعلن

المطاقة متصرفاً بالقوة الحربية والمدنية والدينية ونعني به الامبراطور وهو زعيم الحرب والمشرع المطلق والقانون الحي والرئيس الروحي والرب ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة الرومانية بما اتاها من جيوش الرومان وتحرفت لغة الفاتحين فاصبحت اللغة اللاتينية الحقلية وغدت كل امة غالية مقاطعة برأسها يرأسها زعيم واخذت التجارة والصناعة ترتقي ولولا انه كان من حق المالك ان يبيع الارض بفلاحيها وهو الحاكم المتحكم في حياتهم ومماتهم لركن الفلاحون الى الفرار

ولما اخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعداها الى الارياف الا بعد زمن وكان من فوائد انتشارها انها اعلنت بان الاحرار والعبيد سواء امام الله هذه هي الفائدة الاخلاقية اما الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين بنظامهم الذي اخذوه عن نظام الحكومة ولم يمض الا زمن قليل حتى اصبحت الكنيسة حكومة وسط حكومة تجبي اموالاً من الناس ويغدق المؤمنون واحياناً الامبراطرة عليها من المال ماتكوّنت منه ثروة طائلة وتعفى املاكهم من الخراج كما يعفى خدمتها من المحاكمة مع الشعب بل كثيراً مايحاكم الشعب نفسه في الكنيسة ولطالما كان الاسقف في ابرشيته خصماً للحاكم السياسي ورقيباً عتيداً عليه ٠

ولما سقطت المملكة الرومانية تجزأت غاليا الى عدة ممالك بربرية كالفرنك والبورغوند والفيزغوت وعادت كلمة البلاد الى الانتشار بعد الاجتماع ولم يكن ملوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كسائر الملوك البرابرة ولا يقيمون للحكومة وزناً ولئن كانوا يلبسون الثياب الارجوانية ويضعون التيجان على رؤوسهم كامبراطور الرومان الا انهم لم يكن لهم جيش دائم وليست لهم

وكلها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد

ومن نظر الى تاريخ فرنسا السياسي والاجتماعي يتجلى له انها هي بلاد غاليا المستقلة وهي عبارة عن ولاية رومانية عَلَى عهد مملكة الرومان افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة عَلَى شواطيء البحر المتوسط ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨ — ٥١ ق . م ولم تكن اذ ذاك الا خليطاً من العناصر والقبائل لا وحدة بينها ولا جامعة تجمعها ففي الشمال قبائل جرمانية وفي الوسط سلتية وفي الجنوب الغربي ايبرية وفي الجنوب الشرقي ليكورية وفي الولايات الرومانية مدن يونانية ومستعمرات ايطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة ولم تكن لهم وحدة سياسية ولا رئيس اعلى بل كانوا عبارة عن نحو مئة من الشعوب لهم اوضاع مختلفة ويحكم عَلَى معظمهم مجلس شيوخ ومن هذه الشعوب من يعيش عَلَى حال انفراد ومنها متحدة بينها عَلَى التساوي ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه احق بها

وكانت المدن قليلة جداً في بلاد غاليا وغاية ما كان فيها ملاجيء لاوقات الغارات وهي مراكز الاسواق والزيارات فبلاد غاليا كانت بلاداً زراعية وسكانها ثلاث طبقات الاشراف والمحاربون ومنهم ينتخب اعضاء مجلس الشيوخ والملوك والفرسان وعامة الشعب كانوا فدادين تقرب حالهم من العبودية ولم يكن يملك الاراضي احد ثم اصبحت ملكاً للاسرات الشريفة اما الحراثون فهم من توابع الارض ويجيء بعدهم العبيد ويعدل من حال الاشراف طبقة الدرويد وهم الكهنة والاطباء والمنجمون والقضاة ولاسيما في اواسط البلاد

ولما استقام امير الرومانيين اقاموا زعيماً عاماً عَلَى البلاد ممتعاً بالسلطة

تربية المواشي والحيوانات يد طولى وتجد المعامل الكبرى قائمة في الضواحى الغنية بالفحم الحجري والحديد والمحاصيل الزراعية القابلة لتحول وقد امتاز كل اقليم بصناعة وباريز هي ملكة المدن الصناعية في فرنسا لانها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة الفحم الحجري وكثرة السكان وفيها صناعات اشتهرت شهرة الشمس والقمر كما امتاز اقليم الآردن بالجوخ واعمال الحديد والالواح الحجرية وامتاز اقاليم شامبانيا ونورمانديا بالجوخ واعمال الحياكة والنسيج واقاليم فرانش كونتيه بعمل الساعات وليون وسانت اتين بالمنسوجات الحريرية وامتازت المقاطعات المجاورة لها بتربية الحرير والغزل وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصيني والكاشاني وفي ضواحي انكولم علَى الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق ولمرسيليا الميزة بصابونها ولاقليم البروفانس بزهوره العطرة التي تستعمل في الطيب وعلَى الجملة فان صناعَات فرنسا من انفس ماتصنع صنع الايدي في العالم ولا سيما في منسوجاتها الحريرية وصناعة الجوهرية والبلور والاواني الصينية الدقيقة وكلها مما جعل فرنسا في مقدمة ممالك اوربا .

تقسم فرنسا من حيث امورها الادارية الى ٨٧ ايالة وهذه تقسم الى ٣٦٢ ولاية و ٢٨٩٩ كورة و ٣٦١٧٠ مديرية ولها مجلس نواب ومجلس شيوخ ينتخب اعضاء الاول كل اربع سنين واعضاء الثاني كل تسع وهذان المجلسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين والقوة الاجرائية بيد الوزارة وهي المسؤلة امام القوة التشريعية وتقسم هذه البلاد من حيث المعارف والاديان والبحرية والبرية الى مناطق كثيرة تخالف ترتيب الايالات

٣٦

بسطنا القول في الفصول السالفة في كل مايهم عن معرفة باريز وهانحن اولاء نتوخى في هذا الفصل ان نلم بطرف من عمران فرنسا بأسرها واثرها في الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد وما هذه النبذة الا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسوي بتصرف كثير وزيادات

فرنسا مملكة عظمى في اوربا الغربية يحدها المحيط الاطلانطيقي وبحر الشمال او المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق جبال الالب والجورا والفوسج ويفصل بينها وبين البلجيك والمانيا خط اتفق عليه من الشمال الشرقي والشمال ومجموع مساحتها ٥٣٦،٤٠٨ كيلومترات مربعة وسكانها نحوار بعين مليونًا اي نحو اربعة اضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية ١١٥،٠٠٠ كيلومترمربع والفرنسيس كجميع سكان اوربا اخلاط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذي قوة عقلية حقيقية واختلفت صفاتهم وميولهم لمذاهب المعاش . وان فرنسا لغنية بزراعتها اكثر من غناها بمناجمها ومع هذا فهي تعد من اغنى البلاد وزراعتها ارقى زراعة في الارض ويندر في ارضها الذهب والفضة والزئبق والنحاس والزنك والرصاص والقصدير والزرنيخ والنيكل والانتيمون والكبريت ولكن عندها مايلزمها من الحديد والفحم الحجري .

وانك لتدهش اذا عرفت ان جزئين من ثلاثة عشر جزءاً من ارضها تزرع وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعوسج ولها في

وهناك رمز بديع يشير الى ان التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تحرر الافكار من قيودها وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان نائمان وهما يمثلان الادب

وفي سقف ردهة الفنون صور كثيرة منها ما يمثل تغلب الفنون وخيال الكمال والحقيقة والرقص والفنون والنقش والموسيقي والهندسة والرسم وغير ذلك من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتماثيل التي تشير كل واحدة منها الى معنى من المعاني وفائدة من الفوائد وكلها من حفر او رسم او نقش اعظم رجال هذا الشأن في العالم ولاسيما من اهل فرنسا جعلت هناك نموذجاً مما خصوا به من المزايا وسعة العلم وبعد النظر وحسن الذوق

وعلى الجملة فان الشرقي الذي يزور قصر المجلس البلدي في باريز تصغر بلاده في عينه ويكاد ييأس من ارتقائها ونهضة ابنائها

اما اعمال هذا المجلس الذي تبلغ ميزانيته مئات الملايين فلا اقول فيها الا انها عظيمة جداً ويكفي ان المجلس طلب من الحكومة هذه الايام ان تسمح له بعقد قرض قدره تسعمائة مليون فرنك ليطهر بعض احياء باريز فاذنت لانه ثبت ان بعض الامراض تكثر في حي دون آخر فالواجب العناية بها حتى لاتسطو يد الفناء عليها اما انا فلم ار على كثرة تجوالي راكباً وماشياً في شوارع باريز واحيائها موضعاً تحدثك النفس انه محتاج للاصلاح بعد لكثرة ماترى كل شيء في مكانه وان مدينة باريز تنفق على اضواء الكهرباء والغاز الذي تنير به شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة مايبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول السنة فتأمل

من ملوك الارض وامرائها ومنها ما يمثل افراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم وغيرها يريك الطبيعة الملهمة المربية فالرياضات الطبيعية فالرياضات العقلية وآخر يمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم وفيها ما يمثل المساء في باريز والخيال والولادة فيها والجهاد والنهضة والشعر والفلسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة وذكرى عيد وطني وعيد الخلاء في ضاحية باريز . وبعضها يمثل ابولون وعرائس الشعر والتصوير والادب والموسيقى والنقش والهندسة ومنها رمز القصائد الغنائية والانغام والكدر والتأمل ومن التماثيل ما يرسم التمثيل بالايماء والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والالعاب ومنها ما يصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيد وتعاطي الشراب . ومنها الموسيقي على اختلاف العصور والطيوب والعطور ومدينة باريز تدعو العالم الى افراحها والزهور والرقص في كل عصر من اعصار التاريخ وصور تمثل اهم اقاليم فرنسا مثل الفلاندر وبيكارديا والجزائر وليون ولانكدوك وغاسكونيا والبروفانس وكوسين وبرى وشامبانيا وبرتانيا وبورغونيا واوفرن واللورين ونورمانديا وكونتية نيس . ومن صورها ما يمثل الصيف ومنها الشتاء ومنها ما يمثل آسيا واوربا واميركا وافريقية ومنها ما يصور تأليه العلوم وهو رمز لعلم الاحداث الجوية والكهربائية وتعليم العلم وتمجيد العلم واربع أيقونات تمثل علم الطبيعة والنبات في شخص اراغو وامبر وكوفيه ولافوازيه . ومنها رمز الى ساعات الليل والنهار ومشاهد الأفراح والاعياد

وفي ردهة الآداب صور ترسم لك عرائس الشعر والالهام والتفكر وتاريخ الكتابة واعظم الاعمال الادبية واربع ايقونات لاربعة ادباء وهم موليير وديكارت وفيكتور هوغو وميشله ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ

تغلب عليهم همة الشباب وعدد الاعيان ثلثمائة تقرأ في وجوههم المغضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة

وما انس لا انس يوم كانت المناقشة في مجلس النواب في وضع ضريبة على العملة وقد تدفقت اقوال بلابل المجلس عَلَى المنبر وما فيهم الا الاجتماعي والاقتصادي والاخلاقي والسياسي والاداري

وان ماتلي في تلك الجلسة فقط من الخطب وجرى الحوار فيه بين الاعضاء لو جمع في كتاب برأسه لجاء منه احسن كتاب اجتماعي اقتصادي عن فرنسا ومن اراد ان يعرف ماهو البيان الحقيقي والعلم الذي تشربته اجزاء النفس فليزر مجلس النواب الفرنسوي في فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سر الشورى ·

اما المجلس البلدي فهو معيار العمران و بيده اسعاد باريز واشقاؤها · يزار كما تزار اكثر المعاهد الكبرى في باريز بطلب من الزائر يقدمه الى امين سر المعهد فيرسل هذا اليه ورقة يعين له فيها الميعاد الذي يأتي فيه ·

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسم في نظره الذوق الفرنسوي وعظمة هذه الامة لكثرة مايقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف وكلها مزدانة بنقوش وصور ورسوم من اجمل ماخطته انامل النقاشين والمصورين وتدل كلها على الذوق والمعاني اللطيفة والاشارات الحسنة·

فمن رسم يمثل الغناء والعشرة وآخر يمثل الزهور والثمار وغيره يصور اغاني شواطيء السين وآخر يمثل التجارة والصناعة فالاشهر الجمهورية ومناظر كثيرة لاجمل قصور باريز ومعاهدها واصقاعها وهناك صور رسمت عَلَى الحيطان والسقوف في القاعات التي تستقبل بها مدينة باريز في العادة من يزورها

والمدارس والكليات ودور البائسين والحقول الانموذجية والمتاحف وحير الوحوش والمكاتب ودور التمثيل · فهل يأتي على البشر عصر ياترى يكون فيه ماينم عن مدنيتهم غير ماذكرنا قديماً في الدين واليوم في الدنيا ويخف تكالبهم على مظاهر هذا العالم وينسون بتاتاً تعظيم ماخلفته عصور التدين من المصانع والعبادات التي انتقلت الى اكثرهم بالعادة او يمزجون القديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن في تصور ماضيهم وحاضرهم · هذه اسئلة ليس غير الزمان كفيلاً بالاجابة عنها والله اعلم بمصير عباده ·

قصور باريز وسراياتها

٢٣

من القصور العامة واملاك الحكومة في هذه الحاضرة : مصرف فرنسا وقصر الايزه حيث يقيم رئيس الجمهورية وقصر الانفاليد والتويليري وقصر العدلية وقصر ساحة المريخ وقصر التروكاديرو والقصر الملكي وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانتيون مدفن العظماء وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البلدي ·

ونتكلم هنا على القصور الثلاثة الاخيرة فقد كتبت لي زيارة مجلس نواب الامة الفرنسوية ومجلس اعيانها خلال انعقاد المجلسين فلم أسر بمشهد اجمل ولا افخم وقلما تمثل لي معنى النيابة عن الامة الا ذاك اليوم · ومجلسا النواب والاعيان هما مفخر من مفاخر هذه الامة ونموذج تقدمها ودليل اخلاقها السياسية ففي مجلس الامة الحركة والمضاء وفي مجلس الشيوخ التؤدة والروية فالاول يقيم في قصر البوربون والثاني في قصر اللوكسمبورغ وكلا القصرين من اجمل قصور الحكومة في هذه العاصمة العظيمة وعدد النواب خمسمائة

كنائس باريز كنيسة نوتردام والمادلين وعدد الكنائس البار يزية سبعون كنيسة اسقفية للكاثوليك ماعدا بيع الروم والبرتستانت ومعابد اليهود الاربعة وماعدا المصليات والبيع الصغرى ونوتردام هي من اعظم الكنائس وهي اجمل انموذجات البنايات القديمة تجيء بمكانتها بعد كنيسة مدن شارتر وريمس وامين وبورج وتفوقها بآثارها التاريخية وكفى بانها أُنشئت في اوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر ولم تزل تتعاورها الايدي بالنقش والتزيين والترخيم والتعريق حتى يوم الناس هذا وفيها من بدائع ماصنعت الايدي وتفننت فيه العقول مايدهش ويبهر

زرتها قبيل صلاة المساء مع صديقي عثمان غالب بك ووقفنا نستمع لوعظ الواعظ على جمهور المصلين واكثرهم من النساء · يعظهن واصفاً لهن غرور الحياة الدنيا بالقياس مع الآخرة ومنهن من تغرورق عيناها بالدموع اوتجهش بالبكاء خصوصاً عندمايذم بلسان بليغ غرور اهل باريز · فهو داخل الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو الناس الى الزهادة ويحبب اليهم العبادة ووراء سور الكنيسة تجري كل ساعة شؤون واعمال دنيوية هائلة كلها ماكانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواعظ وآثروا الباقية على الفانية

ان مارأيته من انتظام البيع البأريزية وتفنن البانين في ابداعها وتفانيهم في توفير قسطها من الجمال دلني بلسان حاله على ان مدنية القرون الوسطى قامت باسم الدين ولذلك جاءت المعابد اجمل مصانع تلك القرون وكان اكثرها الى الزوال لولم تتدارك في القرون الحديثة بلسم من انارة العقول بالفلسفة والعلم المادي اما مدنية هذا العصر فلا ادل عليها الا بما ينفع الناس في دنياهم كالسكك الحديدية والبوارج والبواخر والمرافيء والمعامل والثكن والمستشفيات

جمهوراً عظيماً لم يبرح متشبثاً بدينه متشبعاً بصحة يقينه ولاسيما في القرى والبلدان الصغرى فاغلب الخاصة والطبقة العليا عندهم نزعوا كل نحلة حتى لم يعودوا يعرفون غير المادة ديناً واغلب الطبقة الوسطى يغلب عليها التدين اما العامة في المدن فكالسائمة لاتعرف غير الأكل والشرب واللهو واللذائذ واكثر اهل طبقتهم في القرى متعصبون لدينهم والسوادالاعظم من النساء متدينات . وتساوى متدينهم والمنحل من كل دين منهم او الخاصة والعامة بالتظاهر في مراعاة الشعائر الدينية ولا تختل هذه القاعدةقليلاً الا في المدن والحواضرولااثر للتعليم الديني في المدارس الاميرية وهوعلى اشده في مدارس الرهبنات وغيرها من المدارس الخاصة على ان نزعة التعصب التي عرفت بها فرنسا منذ صبأت عن الوثنية لتنتحل النصرانية في القرن الثالث للمسيح مابرحت لها في نفوس ابنائها حتى في هذا القرن العشرين آثار راسخة وان عبثت حكومتهم بقانون الحرية الشخصية غير مامرة ودمرت بيوت الرهبان والنسك وجردت الكنائس والبيع والمدارس الاكليركية من كل ما يدخل في حوزتها .

يحتفل الفرنسيس يوم ١٤ تموز بعيد الجمهورية احتفالاً يقدسونه ويمجدونه وفي ذاك اليوم تشهد في كل ارض فيها بضعة منهم او رفع لهم فيها علم نموذجاً من وطنيتهم وكيف يرى جمهورهم بالجمهورية حياته ولكن احتفال هذه الامة باعيادها الدينية لايقل عن احتفالها ذاك اليوم . واعيادها كثيرة هي صورة من صورتها في القرون الوسطى بل في القرون الحديثة قبل ان تنادي فرنسا بتأليه العقل وتعلن الحكومة علناً نزعها ربقة الدين .

ثم ان زائر كنائس باريز تتجلى له فلسفة القوم النفسية . ومما زرته من

ثم قرأ المسيو دي نوفيل امين سر المجمع الجديد ترجمة حياة صديقه وسلفه في هذه الوظيفة جورج بيكو فاثر في السامعين وابكاهم وتفنن ماشاء وشاء البيان في وصف حسنات المتوفى واقتداره · وكانت الخطب يتلوها اولئك الشيوخ في الورق بنغمة تأخذ بمجامع القلوب ويطرب لها العالمون العاملون طربهم بنغمات الاوتار وتغريد الاطيار في الاسحار

وهكذا انصرف القوم ونصفهم من النساء يرددون محامد اعضاء المجمع اما انا فتمثلت لي ارواح اولئك العلماء العاملين الذين سنوا لمعاصرينا اخلافهم سنن الارتقاء وخدمة العلم والحق والفضيلة والآداب والفنون وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية وقلت هل يكتب لها في المستقبل تأليف مثل هذه المجامع فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين او نظل كما نحن لانعمل فرادى ولا مجتمعين ونكتفي بالتفاخر باجدادنا نجعله عدتنا في شدتنا ومثالنا في نهضتنا ونحن عن اقتصاص آثارهم غافلون

كنائس باريز ومعابدها

٢٢

من المعاهد التي يقضى على من يزور باريز ان يختلف اليها ولو مرة بيعها وكنائسها فانها من الاماكن التي يقرأ فيها انموذجاً من انموذجات البناء في القرون الوسطى ويطلع فيها على فلسفة الفرنسيس الروحية خصوصاً والمأثور عنهم في الشرق انهم امة لاتقيم لغير العقل وزناً تجردت من العواطف الدينية حتى لم يبق فيها سوى العجائز من النساء يختلفن الى المعابد للانابة الى الله وتقديس يسوع وامه عليهما السلام ·

بيد ان من تعمق في البحث عن حال الفرنسويين الروحية يتجلى له ان

في اليوم الرابع من كانون الاول سنة ١٩٠٩ عقد هذا المجمع جلسته السنوية تحت قبة المجمع وهي القبة التي تجتمع فيها المجامع الخمسة المعددة فيما تقدم اجتماعها السنوي وقدر الجمع باربعمائة نسمة رجال ونساء · جلسوا على مقاعد من المخمل على ترتيب بديع بحيث يسمع كل واحد منهم و يرى وكان أكثر اعضاء هذا المجمع بلباسهم الرسمي فجلس عَلَى كرسي الرئاسة المسيو رني ستورم وتلا كما هي عادة هذا المجمع منذ القديم او منذ انشائه قائمة باعمال المجمع منذ اثني عشر شهراً وصفق الحضور لمن نالوا جوائز على كتب ألفوها واعمال قاموا بها لخدمة الانسانية وتعليم البائسات واطعام الجائعات واليتامى والعمي وبين من نالوا الجوائز اربع عقائل عدا من اثنى الرئيس على اياديهن البيضاء كالأم ارنستين التي انشأَت معملاً وملجأً في مدينة روان والعقيلة بيكوين التي انشأت في باريز ملجأً سمته معمل الجهاز والآنسة دي رشمون التي انشأَت في مدينة كرنيل منذ اربع وعشرين سنة ملجأً للبنات تأوي اليه اربعمائة ابنة من بنات العملة وانفقت عليه ثروتها · ومن المعاهد التي اخذ هذا المجمع النظر فيه معهد كارنو وهو الذي منحته العقيلة كارنو امرأَة احد رؤساء الجمهورية رأس مال يأتي بثمانية عشر الف فرنك دخلاً سنوياً وقضت بان تقسم الى ٩٠ اعانة كل واحدة بمائتي فرنك توزع كل سنة يوم ٢٤ حزيران وهو يوم مقتل كارنو على تسعين امرأَة من نساء العملة ممن لهن اولاد · ومن جملة الجوائز التي منحها المجمع للمؤلفين جائزة الاجادة لمن ألف كتاب « افريقية للاوربيين » و كتاب « اوربا والمملكة العثمانية » ·

موري الناقد الادبي في المجلة الزرقاء واحد كتاب هذه العاصمة المجيدين الذي تفضل واضاع من وقته كثيراً ليقدمني الى معارفه ومعارف المسيو لشاتليه المشار اليه

وهذا القصر هو الذي نقل اليه مجمع فرنسا العلمي سنة ١٨٠٦ ذاك المجمع الذي أسس سنة ١٧٩٥ فكان مفخراً من مفاخر الفرنسيس وحق لهم ان يفاخروا به · وهو مجلس او ديوان مؤلف من خمسة مجامع فالاول المجمع العلمي الفرنسوي المعروف بالاكاديمي أسسه ريشليو سنة ١٦٣٥ وهو يشتغل خاصة بتأليف معجم اللغة الفرنسوية وادخال المفردات الجديدة ونبذ القديمة او اصلاحها واعضاؤه اربعون رجلاً ويقال لهم المخلدون عَلَى سبيل الدعابة لانهم اذا خلا موضع واحد بالموت ينتخب سائر الاعضاء في الحال من يخلفه والمجمع الثاني مجمع الصناعات النفيسة أسسه مازارين سنة ١٦٤٨ باسم مجمع التصوير والنقش والمجمع الثالث مجمع الخطوط والآداب انشأه الوزير كولبر سنة ١٦٦٤ ومجمع العلوم أسسه كولبر ايضاً سنة ١٦٦٦ ومجمع العلوم الاخلاقية والسياسية أنشيء سنة ١٨٣٢ وجميع هذه المجامع ينتخب اعضاؤها بعضهم بعضاً مدى العمر وينظرون في العلوم الآنف بيانها ويعطون جوائز للمحسنين من المؤلفين والعاملين وبعضها لا يستهان به · وفي باريز مجامع علمية كثيرة غير هذه منها مجمع باستور العلمي مكتشف الميكروب والمجمع الكيماوي ومجمع فتيان العميان ومجمع الزراعة ومجمع البحار ومجمع العيون ومجمع الصم البكم ولكل منها انظمة وقوانين واعمال يطول شرحها واكتفي فقط بوصف جلسة عامة حضرتها (١) من جلسات مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية

(١) هنا ارى من الواجب عليَّ ان اشكر لصديقي العالم المسيو الفرد لشاتليه استاذ علم الاجتماع الاسلامي في كوليج دي فرانس ومدير مجلة العالم الاسلامي ومجلة السجلات المراكشية ومجلة الافكار الحديثة لتفضله بتعريفي الى كثير من اصدقائه من رجال العلم والادب والسياسة في باريز وبهم تيسر لي ان اطلع من مدنية هذه الامة في شهرين ما يتعذر عَلَى غيري ان يراه الا في شهور واشكر خاصة امين سره الكاتب المسيو لوسين

زرت في جملة الكتبية الذين زرتهم او ابتعت منهم بعض الكتب مكتبة هاشيت المشهورة في جادة سان جرمان وهي ثلاثة طوابق وفيها نحو الف وخمسمائة موظف ومستخدم وتطبع فيها بضع جرائد ومجلات كما تطبع الكتب المدرسية والادبية والتقاويم السنوية المشهورة في العالم وهي مؤسسة منذ نحو ثلاثة ارباع قرن ويعد هاشيت من اعظم كتبية العالم ان لم يكن اعظمهم ومع هذا يقول العارفون ان مكتبته علَى حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الالمان او الاميركان لادهشوا العالم بنظامهم وارباحهم . فكأن دم الفرنسيس الذي غلى زمناً قد برد اليوم واصبح الدم الجديد غيره الآن يغلي فيدهش بحرارته . ومن مكتبات باريز المشهورة مكتبة فلاماريون ولمكتبته فروع كثيرة في مدينة باريز و بلاد فرنسا وهذه المكتبة فيما رأيت اقرب الى التجديد منها الى الجمود على القديم

مجامع باريز العلمية

٢١

علَى الشاطيء الايسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخيم قام قصر عظيم عمر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بمال اوصى به السياسي مازارين الذي جمع بطمعه وجشعه ثروة لا تقل عن خمسين مليون فرنك علَى عادة عظماء القرون الوسطى . واراد ان تنفق بعده في الخيرات وحسن الاثر ومن جملة خيراته هذا القصر الذي اوصى له بمليوني فرنك فضة وخمسة واربعين الف ليرة دخلاً سنوياً ليكون منه مدرسة عالية يتعلم فيها ستون طالباً من ابناء الولايات الاربع التي اضيفت الى فرنسا بموجب معاهدة البيرنيه وروسيللون

نقلت الى ليبسيك او مونيخ او برلين او فينا او اكسفورد او مانشستر او لندرا او نيويورك او شيكاغو لانتفع بها وتيسر سبيل الوصول اليها لانها تكون هناك مفهرسة مبوبة على طريقة فيها روح القرون الوسطى وقد جعلت هنا على اسلوب قريب المأخذ سهل التناول خال من القيود التي تقيد المطالع والمراجع · فان كانت فرنسا في مقدمة شعوب الارض من وجوه كثيرة ولا سيما في الامور الذوقية وبدائع الصناعات والاصلاحات الدستورية والانسانية فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع فعرفوا كيف يطبقون انفسهم على الذوق العصري

مثال ذلك صناعة الوراقة او بيع الكتب فانا نجد المانيا ارقى من فرنسا فيها مع كثرة تفنن الفرنسيس فيما يدل على سلامة الذوق حتى ان ليبسيك في المانيا تبيع وحدها من الكتب قدر ماتصدر فرنسا كلها ومن الغريب ان الكتبية الالمان في نفس باريز تجدهم امهر في تصريف كتبهم فيبيعون كمية اوفر من كتبية الباريزيين ·

جاء في كتاب « المانيا الحديثة » ان المانيا اعظم البلاد اصداراً للكتب فقد كانت اوائل القرن الماضي لاتخرج في السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب فاصدرت سنة ١٩٠٥ ٢٨٨٨٦ كتاباً في حين ان فرنسا التي هي في الدرجة الثانية بكتبها لم تصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتاباً فاذا قدّر انه يطبع من كل كتاب في المانيا الف نسخة فيصيب كل شخص فيها على اقل تعديل مجلد واحد فصناعة الكتب في المانيا رابحة جداً · وقد كان عدد المحال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥ ٧١٥٢ محلاً تصدر الى الخارج فقط ماقيمته ٢٩٠ مليون مارك

تلك الكنوز وما يصوغونه عقوداً ثمينة وتعاويذ محلاة تقي البشر شر الجهل والخرافة

ولعله يخطر ببال بعضهم ان هذه المكتبة هي كل ما في فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيس فيها قواهم وجمعوا لها من اقطار الارض كل غال ونفيس على عادة الافرنج في التغالي بفخامة مصانعهم وضم شتيت متفرقهم وحرصهم على الاجتماع للانتفاع ولكن في باريز وحدها من المكاتب العامة ما لو جمع ايضاً لكان منه مكتبة كمكتبة الامة بكثرة اسفارها الا ان هذه تفوقها بالنوادر من المخطوطات

ولباريز عشر مكاتب اخرى في كل واحدة منها عشرات الالوف من المخطوطات والمطبوعات دع عنك خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكليات والمجامع فان لكل واحدة منها ما يقتضي للمطالع من اسفار المراجعة وغيرها · اما خزائن كتب الافراد فهذه لا يحيط بها الا علام الغيوب او من يدعي انه يعرف ماحوت باريز من علم وادب وذهب ونشب

ويقول العارفون ان قواعد بلاد الانكليز السكسونيين كالمانيا وانكلترا والولايات المتحدة تحسن استخدام اسفارها اكثر من الجنس التوتوني اللاتيني كالفرنسيس والطليان والاسبان وغيرهم اذ ثبت ان تلك الامم العظمى الراقية اكثر احساناً للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية على اسلوب حديث لم يخطر ببال الفرنسويين الذين جروا في اوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شؤونهم على تقاليد لهم قديمة وان عرف عنهم انهم اسبق الامم الى التجديد ولكن تجديدهم في امور دون اخرى ·

والانتفاع من الكتب ايضاً لم يخرج عن هذا النظام حتى قالوا ان نفائس المخطوطات والمطبوعات الموجودة في مكتبة الامة في عاصمة الفرنسيس لو

العالم واهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها ففيها من نوادر المخطوطات والمطبوعات العربية الوف

اختلفت اليها غير ما مرة ولم اتمكن من مطالعة كل ما اريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين في قاعات المطالعة · وبلغني ان الكتب التي اهديت الى مكتبة الامة في العهد الاخير لم يتيسر ادخالها في قوائم الكتب على كثرة موظفي المكتبة وكادت مطبعة الامة الاميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن ولا غرو فان ما رأيته منها مطبوعاً الى عهد ليس ببعيد يبلغ وحده مكتبة برأسه ويقضي فيه المرء الساعات ولا يستطيع ان يستوفي النظر الاجمالي

ولو صرف طالب العلم عمره كله ببحث في مخطوطات مكتبة الامة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسر له ان يأتي الا على قسم ضئيل جداً مما حوته في بطنها من معارف البشر ولا تعد المكتبة الخديوية في مصر ومكاتب الاستانة التي تتجاوز الاربعين مكتبة ومكتبة المجلس البلدي في الاسكندرية ومكاتب دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الادنى اذا جمعت كلها في صعيد واحد وجعلت لها فهارس وقوائم منظمة الا جزءاً صغيراً من ذاك الجسم الكبير · وعلى تلك النسبة قس المطالعين والمراجعين في مكتبة الامة بالنسبة لامثالهم في البلاد العثمانية والمصرية فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالاً ونساء شيوخاً وعجائز شباناً وشابات كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة وربما جاوز الالف احياناً وتجد فيهم الغرباء من امم اوربا وآسيا واميركا وافريقية ممن تجمع بينهم كلمة العلم الجامعة وكلهم يتنافسون في البحث والدرس ويستخرجون من ركاز

نظرة واحدة لضيق الوقت وكثرة مايجب ان يدرس من آثار هذه الحضارة الغربية الغربية

وبعد كل هذا صرت أرى الاشتراكيين عَلَى حق فيما يطالبون به المجتمعات الحديثة في الغرب وهم يرون مئات الفدادين من الارض تجعل حدائق قد لا يختلف اليها الا افراد في حين يهلك مئات الالوف من المحاويج والفقراء ولا من يرحم ضعفهم المادي والصحي او يرثي ابكائهم وتسبل عَلَى النظر هذه التحف والعاديات التي لاتقدر بثمن وحكومة الجمهورية تقترض مئات الملايين من الفرنكات لسد العجز في ميزانيتها . وهكذا نظام المجتمع الغربي ولعلّ عقول أهله المفكرة تحرر في الاجيال المقبلة الفقير من فقره او تقوى عَلَى الاقل عَلَى تعديل هذا النظام الجائر الذي يسلب من كثيرين السبد واللبد ليعمر به قصر البلد ويلعب في حدائقه وساحاته الوالد والوالدة والولد

مكاتب باريز ومكتباتها

٣٠

لو لم يكن في باريز الا مكتبة الامة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومئة الف كتاب مخطوط ومليونين ونصف صورة مختومة والوفاً من الايقونات والانواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات لكفاها جالباً للسائحين ولافتاً لانظار اهل العالمين من العالمين .

مكتبة أسست منذ نحو ستة قرون وملوك فرنسا وعلماؤها واشرافها يتبارون في ان يحملوا في كل فرع من فروع العلم واللغات صنوف المخطوطات والمطبوعات حتى اذا جاء القرن العشرون اصبحت مكتبة الامة اكبر مكاتب

في اليوم مدة سنين طويلة وقد فتحت ابواب المتحف سنة ١٨٣٧ وفيه اليوم ٥٦٠٠ اثر تاريخي

اما مجموعة الصور البديعة التي فيه فعددها ٢٤٠٠ صورة ليس لها نظير في العالم ومن يمعن النظر فيها كثيراً يخرج من المتحف وقد درس تاريخ فرنسا ووقائعها الحربية بالعمل والنظر

ومن جملة ماحواه اسلحة بيوت الشرف التي اشترك فرد او افراد منها في الحروب الصليبية · ومنها ابواب مستشفى فرسان رودس الذي اهداه السلطان محمود العثماني سنة ١٨٣٦ الى لويز فيليب صاحب فرنسا · وفيه صور كثير من مشاهير الشرق كأنك تراهم عياناً وفيه صورة تمثل القائد كلبر الفرنسوي وسليمان الحلبي يقتله في حديقته في القاهرة زمن الاحتلال الفرنسوي في مصر ·

اطلت الروية في كل هذا وانعمت النظر في النفقات الطائلة التي انفقت على هذه القصور المزخرفة والمصانع العظيمة فاعطيت بعدها الحق لمن قاموا بالثورات الفرنسوية يريدون انزال الملوك عن عروشهم وفصم عرى السلطة الفردية لتنقل الى ايدي الامة · نعم ان اقل نظرة الى هذه القصور يستغرب معها المرء كيف لم تحدث تلك الثورات قبل حدوثها بزمن طويل ولكن الحوادث كالحبالى لاتلد الا بعد اتمام مدة الحمل او كالثمر لاينضج قبل ابانه ·

ولم اتمكن يوم زيارتي لفرسال من روئية كل حدائقها ومرافقها لنزول الثلج بكثرة ولكني على الجملة اخذت منها صورة اجمالية كافية · شأني في كل مازرته من المعاهد ورأيته من المشاهد فلم يتيسر لي ان أُتي عليه سوى

في متحف اللوفر العظيم بالقرب من نهر السين ومتحف فرسال علَى ثلاثة ارباع الساعة من باريز · اما متحف اللوفر فهو من اجمل قصور العالم واوسعها عرف سنة ١٢٠٤ علَى عهد فيليب اوغسطس ومازالت ايدي الملوك تتعاوره بالاصلاح او التدمير حتى اذا كان عهد فرنسيس الاول اصبح اللوفر متحفاً يقسم اليوم الى سبعة متاحف في متحف بحسب اصول آثارها وزمنها وطبيعتها وهي متحف التصوير ومتحف الرسوم ومتحف النقش ومتحف النحت القديم ومتحف النحت في القرون الوسطى وعلَى عهد النهضة ومتحف النحت الحديث ومتحف العاديات الآسياوية ومتحف العاديات المصرية ومتحف العاديات الافريقية ومتحف العاديات النصرانية ومتحف الفخار والاواني الخزفية القديمة ومتحف الفلز والحلي والرخام القديم ومتحف عاديات القرون الوسطى والنهضة والقرون الحديثة ومتحف تير ومتحف البحرية ومتحف الشرق الاقصى ·

وكل متحف تصرف فيه الساعات الطويلة ولا تستوفي النظر فتأخذك الدهشة من رؤية المكان ورؤية المكين وتقضي بالعجب من كل مايقع عليه بصرك اذ تتمثل لك عظمة الانسان وتفننه فيما تصنعه يده وعينه وذوقه

اما متحف فرسال فهو في مدينة فرسال وكانت في القرن الحادي عشر للميلاد قرية فاصبحت بعناية لويز الثالث عشر مدينة صغرى لانه اقام فيها قصراً للراحة اثناء الصيد واراد لويز الرابع عشر ان يجعل فرسال مركز حكومة فرنسا فانشأ فيها ابنية ومصانع عظيمة وكذلك فعل لويز الخامس عشر حتي اصبح عدد سكانها ثمانين الفاً على عهد الثورة · وهكذا اذا اراد الملوك ان يعمروا بلداً احيوه واذا شاؤا ان يخربوه اماتوه · واشتغل في اقامة قصر فرسال الذي جعل المتحف فيه اليوم ثلاثون الف رجل وستة آلاف دابة

كونت والفرد دي موسه وشار كو و كورنيل ودانتون وغامبتاوكي دي موباسان
وجول سيمون ولافييت وواشنطون ولافوازيه و باستوز وفيكتور هوغو
وغيرهم وفيها ٦٨ تمثالاً اثنان منها لاسكندر دوماس الابن والاب · وواحد
لبالزاك و بوفون و برانجيه وشارلمان و كلودبرنار و كوندورسه ودانت وديدرو
وغاريبالدي وجورج ساند وجان جاك روسو وجان دارك ولامارتين
ومارات وموليير و باسكال وشاكسبير وفولتير وتمثال الحرية والقانون والجمهورية

هذا داخل العاصمة اما خارجها فلها من غابتي فنسين وبولونيا اعظم
فسحة ونزهة وغابة فنسين في شرقي باريز عَلى بضعة كيلومترات من نقطة
دائرتها ومساحتها ٩٢٧ هكتاراً وفيها من انواع الراحة وتنويع المناظر المفيدة
ماهو العجب العجاب واعجب منها غابة بولونيا في غربي باريز ومساحتها ٨٧٣
هكتاراً زرتها ثلاث مرات وان كانت في الشتاء ليست مثلها في الصيف
عَلى انها ماخلت من الانيس والجليس وكان احد تلك الايام يوم عيد رأس
السنة والسماء مصحية والشمس طالعة مريضة صحيحة والعيون المراض الصحاح
خرجت من كناسها تستنشق الهواء النقي · وهناك منظر من بحيرات بولونيا
وطرقها لاادري كيف يصوره الشاعر اذا كان الوقت ربيعاً او صيفاً اوخريفاً
ولو كنت شاعراً لحبرت في وصفه القصيد وان زرتها في الفصل الميت كما
يقول الفرنسيس ·

***

اما المتاحف الباريزية فهي ايضاً قصور نزهة وحدائق صفاء وعددها
٣١ متحفاً يحتوي كل منها عَلى اقصى مايتصوره العقل من ارتقاء البشر في
الصناعات والفنون على اختلاف الاعصار زرت بعضها وقضيت اوقاتاً طويلة

زرت منها حديقة الحيوانات وحديقة النباتات وحديقة كلوني وحديقة لوكسمبورغ وعجبت لمن يزور هذه الحدائق مرات لم لايكون عارفاً بالنبات والحيوان وتاريخ مشاهير فرنسا احسن معرفة فمثل هذه الحدائق التي يتنزه فيها المتنزهون هي في الحقيقة مدارس عملية يدرس فيها المتنزه كبيراً كان او صغيراً ماينبغي له من هذه العلوم درساً عملياً لايحتاج فيه الا الى انتباه فكر قليل حتى اذا اسعده الحظ ونظر في المدرسة او خارجها في كتب هذه العلوم يصبح وهو مطبق العلم على العمل ·

ولقد رأيت في حديقتي الحيوان والنبات اشياء كنت اقرأها ولا اعرف اعيانها فلما وقع النظر عليها تبينت فضل عرضها وان العلم النظري اذا لم يشفعه علم عملي يبقى كالسيف في غمده او البندقية في معملها او الكهربائية قبل توليدها · وليس في البلاد العثمانية او المصرية مايشبه هذه الحدائق اللهم الا ان تكون حديقة الجيزة والجزيرة والقناطر الخيرية في مصر وحديقة الامة وغيرها في الاستانة ولكن اين الثريا من يد المتناول وما ينظمه الباريزيون لانفسهم وينظمه الانكليز او الطليان والنمسويون لنا · وما حك جسمك مثل ظفرك ·

وانك لعامترى في بعض الحدائق الة تماثيل مشاهير رجال فرنسا في السياسة والعلم مجسمة من رخام مجزع او حديد مصنع كأن ساحات باريز وشوارعها العظمى لم تسوعب وحدها كبار رجالهم حتى هرعوا الى الحدائق يضعون فيها التماثيل والنصب لمن احسنوا للامة او سادوها زمناً واصبح لهم في تاريخها ذكر يردد · ففي ساحات باريز وشوارعها ٦٨ مشهداً (*Monument*) لمشاهير علمائهم ورجال سياستهم ومنهم اوغست

فقد وهبها كارنجي المحسن الاميركي كثيراً كما ان بعض الروسيين منحوها مالا جزيلاً والفرنسيس يعطونها عن سعة · فحيا الله يوماً تقام لكل قطر من اقطار البلاد العربية كلية مثل هذه تدرس ابناءها علوم البشر بلغتهم وتكوّن مجتمعنا بالوطنية الصحيحة كما تكونها كليات الممالك الصغرى في الغرب كالبلجيك وهولاندة والدانيمرك والسويد ونروج وسويسرا والمجر وبولونيا وفنلندا والبرتقال

حدائق باريز ومتاحفها

١٩

يطول بنا نفس الكلام اذا اردنا الافاضة في كل فرع من فروع العمران بباريز وكلها مما يحتاج الى صفحات كبيرة وربما ملّ القارىء قبل ان يمل الكاتب · ولقد عنيت مدة مقامي في هذه العاصمة ان لا اضيع ساعة من وقتي الا في البحث عن جمعية او انسان وزيارة معهد فيه نموذج من ارتقاء العقول ووفرة العلم وحذق الايدي وبسطة العيش وفضل الرفاهية ومما جعلته لاوقات الفراغ غشيان الحدائق والمتاحف ودور التمثيل والسماع

في باريز حدائق كثيرة عامة ومنها الصغير الخاص بحي او شارع صغير ويسمونها « سكوار » وهي كلمة انكليزية معناها ساحة مربعة او حديقة يحيط بها حاجز من قضبان حديد وتكون في ميدان عام وعددها ٣٦ حديقة تتمنى كل حاضرة من حواضر البلاد العثمانية ان يكون لها من نوعها واحدة فقط بانتظامها وحسن تعهدها · اما الحدائق الكبرى فعددها تسع تصرف في كل واحدة الساعات وانت تسرح طرفك فيما خصتها به يد الصانع وايدي البشر من مجالي الظرف والجمال :

ولا سيما على اميركا الجنوبية و بوهيميا والبلاد المصرية والعثمانية و كانت هذه الدار رسول السلام بين الانام ومعلمة الناس كيف يكون التجانس الروحي والاخاء العام . ولكم كان اساتذتها يسيحون في بث ماعلمهم الله في البلاد التي يقل فيها العالمون ولكم أنشئت في حجر هذه الدار جمعيات تريد التقريب بين الشعوب وتعليم الجاهل منهم ولكم رنت في غرفها وقاعاتها اصوات الخطباء من علماء الارض اتوها يحملون اليها نتائج ابحاثهم ودروسهم . فان كانت كلية باريز امّ كليات براغ والاستانة ومصر وغيرها من كليات البلاد اللاتينية واميركا اللاتينية فهي تفاخر بانها ام كليات انكلترا وايكوسيا .

ويؤخذ من احصاء سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ انه كان في هذه الكلية ١٧٣٠٣ طلاب منهم ٣٣٦١ من الاجانب فتيان وفتيات ومن هؤلاء ٩٢٦ يدرسون الحقوق و ٥٢٠ يدرسون الطب و ٧٧٣ العلوم و ١٠٦٢ الآداب

ولم تقصر كليات الولايات وعددها اثنان وعشرون كلية في بث روح التكافل الاخلاقي والعقلي فانشأت كلية تولوز جمعية اجتماع الطلاب الفرنسويين في اسبانيا وانشأت كلية بوردو مدرسة الدروس الاسبانية العالية في مدريد وانشأت كلية كرنوبل المجمع العلمي في فلورنسة وكلية نانسي وهي على الحدود الالمانية تعلم قاصديها احترام فرنسا وخدمتها للعلم . وهكذا الحال في كلية مونبليه وليل وليون فكليات فرنسا تعلم في السنة سبعة آلاف طالب وهو عدد ليس بقليل يدل على تفردها في هذا الشأن من بين اكثر الممالك الراقية

هذه شذرة صغيرة في وصف كلية باريز التي مازالت الحكومة الفرنسوية تنفق عليها النفقات الطائلة والمحسنون لاينفكون عن اعطائها المنائح الكبيرة

الحماسة الدينية وفتح لامم المغرب ونشاطهم طرقاً جديدة في العمل ومن الافكار الفرنسوية نشأت بعد نزاع قديم فكرة الوطنية متجلية في صورة موءثرة ذات بأس ومضاء بحيث خضعت السياسة لسلطانها ووضعت اسس الوحدة الوطنية · والافكار الفرنسوية هي التي طهرت رياح الاصلاح والنهضة وقادت الافكار القديمة الى التجديد وانارت العالم بقبس انوارها · والافكار الفرنسوية هي التي حملت الى العالم في عهد فولتير ومونتسكيو افكار التسامح الديني والعدل الاجتماعي والحق والانسانية · والفكر الفرنسوي هو الذى سنّ المبادئ الخالدة في دساتير الامم المتمدنة باسرها · فمن فرنسا نشأت حرية البلجيك وحرية اليونان وحرية ايطاليا وحرية العثمانية · وفرنسا مهد الادب تنشر انواره فتتناوله الاجانب وتتقبله بقبول حسن وهي البلاد التي اشتهرت بعلمائها وصناعها

ومن كلية باريز اخترع امبير اختراعاته التي لولاها لما اخترع التلغراف اللاسلكي والسلكي والتلفون ولم تتم عجائب الكهربائية الصناعية · وفي كلية باريز احدث باستور انقلابه العظيم في علم الحياة الذي جعله المحسن الى الانسانية في العالم اجمع · وفي كلية باريز حقق برتلو الطريقة الصناعية في المواد العضوية فنشأت منها الكيمياء الحديثة · وفي كلية باريز اخترع كوري وقرينته الراديوم واهتزت في ايديهما ذراته · وفي معامل كلية باريز اوقد مواسان للمرة الاولى لتنور الكهربائي كما اخترع غيره التصوير الشمسي بالالوان

كانت هذه الكلية كما قلنا اعظم كليات القرون الوسطى فجعلوها سنة ١٨٩٦ كلية تليق بعظمتها الماضية بحيث لم تفقد مكانتها العلمية وفيها اليوم زهاء ثلاثمائة استاذ يفيضون كما افاض اسلافهم على العالم من علومهم

في العالم كلية بابل أسسها نينوس مؤسس نينوي والمملكة الاشورية الاولى وخلفتها كلية منفيس المصرية وخلفت كلية منفيس كلية آثينا وبعد هذه انشئت كلية رومية وبعدها قامت كلية باريز واشتهرت كلية بولونيا في تعليم الحقوق كما سبقت كلية باريز غيرها في الآداب المقدسة والعالمية وكان في جوارها عشر مدارس تحيط بها كأنها ام القرى وتلك من اعمالها مثل مدرسة الانكليز ومدرسة الايكوسيين والالمانيين واللومبارديين واليونانيين ولطالما بعث الملوك اليها باولادهم ليتخرجوا في المنطق ويتعلموا رقة الجانب وحسن الادب والعشرة .

ظلت هذه الكلية منذ القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر تربي معظم الرجال الذين يختلفون الى التعلم فيها وفيهم الشعراء والعلماء والفلاسفة ومن مشاهير من تخرجوا فيها غليوم اوكام ورايمون لول وتوما داكين وبنوا داناني وبونيفاس الثامن وبرونوتو لاتيني ودانت وتوما موروس وايراسم وغيرهم وجميع طلابها على اختلاف اصقاعهم كانوا يرتاحون في حماها وكان مطمح انظارهم حب الحقيقة وهي القاعدة الاصلية فيها وكل منهم يتمتع بحقوقه . ولقد جاء زمن كانت الحياة العقلية محصورة في جدران المدارس الا ان كلية باريز اعظم منبعث لبث الدعوة الى الافكار الفرنسوية وكانت وحدها تكفي لانارة العالم الا قليلاً وكان رجال تلك الازمان ينسبون العلوم الى مواطنها ويرجعون الامور الى مصادرها فيقولون ان رومية مقر البابوية والمانيا مقر السلطة وباريز مهد العلم .

وكانت الافكار الفرنسوية — كما قال احدهم في المجلة الباريزية — هي اكبر معين في القرون الوسطى عضد الى النهاية الصليبيين في نشاطهم وهيأ اسباب

سورية الصغرى وبغداد والبصرة والموصل واحسن منها جرائد مهاجري سورية في اميركا الشمالية والجنوبية وهي لاتقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد الرشيق · ومع هذا فان الآمال قويت بان لا ينتصف هذا القرن الرابع عشر للهجرة الا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها بالضاد اي بالصاد والحاء والخاء والعين والغين والثاء والذال والظاء ورقيت لغتنا بمساعي المنورين من ابنائها امثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث انوارها واريد بها الحجاز واليمن ونجداً فان فيها بقايا من ارباب الذكاء النادر الى الآن من لو تمرنوا على العمل اذا تهيأت لهم الاسباب لاتى على ايديهم خير كثير للامة ولا يرجى ذلك الا متى انقطعت شأفة الفتن من بث الافكار وامن الناس على اموالهم وارواحهم ليتفرغوا او افراد منهم للدرس والاستنارة

هذا ما حضرني في موضوع نهضة العربية الاخيرة القيته في هذه المحاضرة وربما خرجت عن البحث بعض الشيء وساحة عفوكم تسعني وانتم تعلمون اني على اوفاز استودعكم الله والسلام عليكم

كلية باريز

١٨

كلية باريز من اقدم كليات العالم في التاريخ ان لم تكن اول كلية أنشئت وقد كانت في القرون الوسطى بلا مراء اشهر كلية واكثرها ايواء للطلبة فكان علماء الوقت كما قال احد الفضلاء ينظرون اليها بانها صاحبة الحق في استخراج كنوز العلوم ملكت ارثاً شرعياً صحيحاً وكانت اول كلية أنشئت

التونسي واشياعه فان الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة الاذكياء من الخلدونيين وغيرهم . اما طرابلس الغرب وبرقة والصحراء والسودان فهي من اخوات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها ولكن هناك في صحراء مراكش بلد غريب في تلقف ملكة العربية واعني به شنقيط بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطي الحافظ المشهور في عصرنا . وطريقة اهلها طريقة الاقدمين في التلقي والاستظهار وقد شوهدت في شنقيط بعض البنات الشنقيطيات الى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم واظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الازهر .

اما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في احياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الاخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضرموت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق الا ان ذلك لم يحل دون نبوغ بعض افراد شاركوا اتم المشاركة في حياة العربية ونعني بهم بعض اولئك العراقيين النوابغ الذين ألفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجز على الافكار الذي دام في البلاد العثمانية الى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لا نغالي اذا قلنا ان ثلاثة ارباع ما تم للعربية من الارتقاء في القرن الاخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس . ومن الاسف اننا لا نزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربي منها يكاد يكون اشبه بالمالطية والكرشونية منه بالعربية الحجازية فتسقط فيها من الاغلاط في التركيب والتأليف والالفاظ والوضع ما نسأل الله معه السلامة واقل من ذلك غلطاً تلك الجرائد التي صدرت مؤخراً في طرابلس الغرب وبعض مدن

فكانوا والله اعرف بالعربية وفنونها من اكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الاخير على غير حق اما من تمحض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفاخر العربية في هذا العصر استحكمت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء واحاطوا بعلوم الوقت احاطة نبهاء الغربيين ٠

واليكم ايضاً مثالاً صغيراً اذكره لكم دليلاً على ماأتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة فقد شاهدت في وادي النيل بعض العمد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلطف في التعبير مما لاتتلوه في عسلطات المحشين والمهمشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك الا بفضل المدارس المنظمة وماتلقيه الجرائد على مسامع الناس وانظارهم كل يوم من فصح العربية وشواردها وتتفنن فيه من اساليب التعليم ٠ نعم ان مطالعة الجرائد والمجلات اعانت على انتشار الآداب وادخلت الغيرة على التعلم في نفوس ارباب الاستعداد

ولذا رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الاصول الحديثة ولم يولع اهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم مازال اهلها الى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراكش فان مدينة فاس منذ القديم ماخلت من افراد يعانون الآداب على الاصول القديمة ولكنهم في الجملة خير من اهل الجزائر الذين لاتكاد تجد فيهم فرداً يعد في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت وما ذلك الا لان اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الادوار سوق نافقة ولان حكومتها تحاول منذ القديم ان تجعل اهلها فرنسيساً في لغتهم وافكارهم ومنازعهم

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثها فيها خير الدين باشا

لها دوام النماء والارتقاء ·

انا لا اقدم لكم مثالاً من امثلة ارتقاء لغتنا اكثر من ان احيلكم على مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة في سورية والفلاح والمحروسة في مصر وان ترجعوا الى كتابة الدواوين في مصر في منتصف القرن الماضي مثلاً وترجعوا اليها اليوم وان كانت الى الآن عشيقة الركاكة بعض الشيء · قابلوا المنشورات التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما كان يصدر من امثالها منذ مئة سنة مما اورد الجبرتي في تاريخه نموذجاً صالحاً منه بنصه وفصه · عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به السن المحامين واقلامهم في مصر من التفنن في اساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب المحاماة طرفاً صالحاً منه يتجلى لكم كيف ارتقت لغة القضاء · استمعوا للخطباء اليوم ممن درسوا الدروس النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقابلوها باكثر ما يحفظه خطباء الجوامع او يقرأونه من السجعات في دواوين الخطب القديمة · تدبروا لغة التمثيل اليوم وان كنا فيه دون سائر فروع الآداب تأخراً واسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسماجة · اقرأوا المحاضرات التي تتلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في مصر الخالية من التعقيد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تتلى زمن الثورة العرابية وبعدها مثلا تدركون كيف وفقنا الله الى قيام بناء آدابنا على هذا الاسلوب الرائق والابداع في الاداء والالقاء ·

اليس مما يعد من نهوض اللغة ما نراه من احكام ملكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة احداثاً تخرجوا من دار العلوم

وغيرهم من جهابذة المنشئين غدوت اعجب من نفسي كيف اضاعت وقتها في تلقف تلك الاسفار المسجعة وفي اللغة مثل نهج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والاحياء وغيرها مما لا يتسع المجال لتعداده وهو في الحقيقة ونفس الامر مادة أدب كما هو مادة علم لا تبلى على الدهر جدتها ولا تخلق ديباجتها كما كنت اعجب من اقبالي ايام الطلب عَلَى تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفي الحلي وابن منجك وابن مليك والجندي من شعراء المتأخرين وعند العرب من اهل هذا الشأن امثال ابي تمام وابي الطيب وابي عبادة وابي نواس والشريف الرضي وابن حمديس الصقلي وابي فراس الحمداني ٠

يرجع الفضل الاكبر في انتشار دواوين الادب والتاريخ واللغة من كتبنا لعلماء المشارقة من الغربيين امثال دوزي ودساسي ووستنفيلد وعشرات غيرهم من اهل اوربا ولبعض ما نشره اليسوعيون في مطبعتهم المتقنة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي أُلفت في اوقات مختلفة في مصر لاحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التي طبعت لنا المخصص لابن سيده احسن كتاب عني بطبعه في شرقنا ولما طبعته المطبعة الاميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس ٠ كل هذه الاعمال اعانت العربية عَلَى تحسين آدابها وترقيها ٠ ولا ننسى غيرة اولئك الذين نسجوا في منظومهم ومنثورهم عَلَى مناحي الاوربيين من حيث قلة الكلفة ومجاراة الطبع ومحاكاة الطبيعة ووصف عواطف النفس بايجاز واعجاز واولئك الذين وقفوا انفسهم منذ عشرات من السنين يغربون لنا كل يوم في جرائدهم ومجلاتهم افكار الغربيين في سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكوّنوا مجتمعنا الادبي عَلَى ما ترونه وجددوا للغة شبابها بحيث أَمنا بفضلهم عليها من العفاء واصبحنا نرجو

يتأنون قليلاً فيما يكتبونه واخذت تخف اغلاط الكاتبين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلما نقل الناقلون عن اللغات الافرنجية ونحا المؤلفون مناحي قدماء الكتاب في ترك التكلف والتعسف حتى صح لنا ان نقول اليوم ان اسلوب الكتابة العربية لاينقص عن اللغات الافرنجية الراقية بايجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصرين وافكارهم

نعم عادت للغة العربية ولا سيما في الثلاثين سنة الاخيرة نضرتها الاولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذاك السجع المتكلف الذي اتانا به العماد الكاتب الاصفهاني من فارس — وفارس مورد بدع كثيرة في الاسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب — ونقله الى العربية فاجاد في اكثره الا ان من جاؤا بعده قد افسدوا به علينا لغتنا لانهم لم يتقنوه

واني لا ازال اذكر ما كنت اكثر من مطالعته واستظهاره ايام ولوعي بالادب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليميني للعتبي ومقامات الزمخشري ومقامات الاصفهاني وقلائد العقيان وذيله مطمح الانفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الادب لابن حجة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت اطرب لتلاوتها ولا اكاد افارقها في خلوتي وجلوتي . ولما كتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسوية والتركية وانشأت ابحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وابي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب الاصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب

ما ينشر فينمقه ويزوقه وناهيك بكلام تصقله الانامل الفارسية · فاحمد فارس هذا لو انصفنا هو واضع اساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من آثاره · ومن اراد ان يطلع عَلَى شيء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع الى كنز الرغائب في منتخبات الجوائب وهو مطبوع متداول وان احب الاطلاع عَلَى الجوائب برمتها في حجمها ووضعها فليرجع اليها في خزائن الكتب في اوربا ومصر والاستانة ·

ولم يقف عمل احمد فارس عند حد نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب سر الليال ورحلة له الى اوربا جدية محضة وكتاب نحو اللغة الانكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الادب واللغة والشعر ككتب الثعالبي والتوحيدي والطغرائي والبديع وغيرهم من ائمة الادب نشرها على احسن اسلوب راق في طول البلاد وعرضها باثمان بخسة فعمت بها الفائدة وانشأ طلاب الآداب يحذونها في اسلوبها · ومابرحت مطبوعات الجوائب الى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفع بها الاحفاد والبنون عَلَى ممر الدهور والقرون ·

ابتلي احمد فارس باناس حسدوه واي عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره وينقدون جريدته وكتبه ولكن تلك المناقشات اللغوية الادبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم تزد فارسنا الا جرأة عَلَى الجري في مضماره وقبولا بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان بنقده بعض كتاب العربية اشبه بسانت بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسويين فاستفاد ارباب الاقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد مما دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك اخذ من يعانون صناعة القلم

فيها قاموس الفيروزابادي الذي ألف كتاباً مهما في نقده وسماه الجاسوس عَلَى القاموس — كانت نصب عينه يأخذ منها كل ساعة مايشاء ويستحضر في دقيقة مايصعب الاتيان به في ساعة ويتفنن ماشاء بيانه وتبيانه · ولفظ الفارياق مقتطع من اول اسمه «فارس» وآخر اسم أُسرته «الشدياق» وقد حمل في كتابه على رؤساء الدين حملة منكرة لان بعضهم قتلوا اخاه ظلماً وتعصباً جعلوه في بناء لهم وبنوا فوقه لانه دان بالمذهب البرتستانتي «١»

هبط احمد فارس مدينة الاستانة بعد ان خبر حال اوربا خبرة زائدة وانشأ جريدة الجوائب التي طار صيتها في الآفاق ورزق الحظوة بعلمه فكان ملوك الاطراف يهادونه ويمنحونه المنائح وممن كان يساعده خديوي مصر وباي تونس وملك باهوبال في الهند حسن صديق خان الذي طبعت له مطبعة الجوائب معظم تآليفه العربية وكان هذا الملك اعلم الملوك المتأخرين بل اشبه بابي الفداء صاحب حماة في جمعه حكم الناس الى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب في فهم اسرار الكتاب والسنة

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا التي أسست بعدها عَلَى نسقها وقلّ ان نشأَت لنا جريدة في صحتها وديباجتها العربية اللهم الا ان تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومصباح الشرق لابراهيم بك المويلحي والبرهان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لان جريدته كانت كهاته اسبوعية ولهُ فيها مساعدون في الاقطار كان يهاديهم ويهادي علماء عصره حتى كثر احبابه من العلماء في شمالي افريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذي يتولى النظر في كل

«١» هنا قرئت نموذجات من شعر احمد فارس ونثره من كتابه الفارياق

ولقد كان من اعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت على ذلك الدور ايضاً بطرس البستاني وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من اصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الاسير وابراهيم الاحدب وناصيف اليازجي وأسرته وغيرهم فهؤلاء كلهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في اقطار الشام ومصر واميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء · ولم تحرم الاستانة — والعواصم مرزوقة منذ خلقها الله — من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبحثه واعني به احمد فارس الشدياق الذي اقترح عليّ صديقي سيد افندي كامل من رجال الجامعة المصرية ان اتوسع في الكلام عليه ·

اصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مسيحية خرج من بلاده مغاضباً فقضى زمناً طويلاً في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وانكلترا وتعلم في خلال ذلك الانكليزية والافرنسية ثم دان بالاسلام وألف بعض الكتب ومنها اللفيف في كل معنى طريف طبع في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتبه في اوربا كتاب الساق على الساق في ماهو الفارياق او ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠ هـ · وضمنه ترجمة حياته وشؤوناً وشجوناً على اسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر ان تعده من الانشاء المعروف عند الافرنج بالاومورستيك (الجد في الهزل) او الرياليست (الحقيقي) الذي حدث في عهد فلوبر اوالناتوراليست (الطبيعي) الذي تم على يد زولا وانك لتدهش من قدرته فيه على التعبير ورشاقته في التصوير ومتانته في التحرير والتحبير فكأن اللغة التي كان من جملة محفوظات احمد فارس

وخلف اكثرهم من مآثر فضله ما يطرس المتأدبون عليه وينسجون على منواله ·

وبينا كانت اللغة العربية تزهر في مصر في الامارة العلوية عزَّ على الشام ان تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الافراد والجمعيات وذلك في اواسط القرن الماضي وكانت مدينة بيروت وهي ثغر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها اناس من مرسلي الفرنسيس والاميركان وانشؤا فيها مدارس جعلوا لغتها الاولى اللغة العربية واتقنها كثيرون من اهل لبنان فحمد مسعاهم وكانت اليد الطولى في تنشيط لغة قريش للدكتورين كرنيليوس فانديك ويوحنا ورتبات وهما من اعظم موُسسي الكلية الاميركية الانجيلية في بيروت تعلما العربية والاول اميركي والثاني ارمني ودرسا بها مع اقرانهما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرتهما عليها ان عمدة المدرسة لما عمدت ان تجعل لغة التعليم في الكلية اللغة الانكليزية بدل العربية قاوما ماوسعتهما المقاومة ولما اخفقا استقالا من وظيفتيهما لانهما ابت مروءتهما الان يمحضا النصح للبلاد وللغتها · والدكتور كرنيليوس فانديك الاميركاني في سورية بفضله على اللغة العربية وماعرب لها من كتب العلم اشبه بالشيخ رفاعة الطهطاوي في مصر ووجه العجب في فانديك اعظم لانه اميركي الجنس والمنشاء غار على لغة العرب اكثر من اهلها ومن الغضاضة على مصر والشام انهما لم تعرفا لهما حقهما على مايجب وكان على القطرين ان يرفعا لهما تمثالين كما رفعت باريز لهوغو وروسو او كما رفعت مصر لمحمد علي وابراهيم · والعلماء ان لم يكونوا احق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا اقل من ان يكونوا على مستواهم ·

وحسن حسني الطويراني واحمد سمير وعبد الغني العريسي ورزق الله حسون ويوسف البستاني وانطون جميل وعادل ارسلان ونسيب ارسلان وجرجي حداد ورشيد عطية ونجيب طراد ويوسف زخم وعبد الوهاب النجار وميشيل بيطار وخليل زينية ومحمد مصطفى واحمد زكي ومصطفى لطفي المنفلوطي وامين ظاهر خير الله وعيسى اسكندر المعلوف وديمتري قندلفت ويوسف الحازن وروحي الخالدي ومحي الدين الخياط ومحمد المويلحي وخليل سعادة وداود بركات وبشارة زلزل وبولس زوبن وعبد القادر المغربي وبدر الدين النعساني ومرسي محمود ومحمد صادق عنبر وعبد الرحمن البرقوقي وعبد القادر المؤيد وعبد الكريم سلمان واحمد الصابوني وعشرات غيرهم لاتحضرني الآن اسماؤهم من شيوخنا وكهولنا وشباننا · وقام من الشعراء محمود سامي وعبد المحسن الكاظمي واسماعيل صبري وحافظ ابراهيم واحمد شوقي ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوى وشكيب ارسلان وفارس الخوري وخليل مطران وعبد الله البستاني ومصطفى صادق الرافعي وبطرس كرامة وناصيف اليازجي وعبد الباقي العمري ونجيب الحداد وامين الحداد وولي الدين يكن ونقولا رزق الله وشبلي ملاط وداود عمون وفضل القصار ورزق حداد وغيرهم ومن الخطباء جمال الدين الافغاني وعبد الله نديم وابراهيم الهلباوي وسعد زغلول واحمد الحسيني ونقولا توما ومصطفى كامل وعبد الرحمن شهبندر وانيس سلوم واسكندر العازار وفارس نمر ومحمد ابو شادي وامين ريحاني ومحمد لطفي جمعة واحمد لطفي السيد واحمد عبد اللطيف وعمر لطفي واحمد لطفي وابراهيم اللقاني واحمد محمود وعبد العزيز الثعالبي وغيرهم ممن هم عمدة العربية في نهضتها الاخيرة عملوا لخيرها في مصر والشام والعراق وتونس اعمالاً

المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الامة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى في برهة قليلة عَلَى يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لايرجع الى عقل ولا الى نقل ·

كان الادب العربي قبل دور النهضة الاخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهان طول بلا طول ولا طائل وجمل باردة سمجة وشعر ركيك اكثره في الاماديح والاهاجي وان ارتقى الشاعر انفتق لسانه في وصف الخد والخال وذات النطاق والخلخال من ربات الحجال او الذكران من الرجال · وما اظنكم اعز الله بكم دولة الادب الا قد وقع لكم شيء كثير من امثال هذه الركاكات والسخافات فضربتم بها عرض الحائط وحمدتم الله عَلَى ان خلقكم في زمن قام فيه من الكتاب امثال محمد عبده واحمد فارس وابراهيم المويلحي وابراهيم اليازجي وابراهيم الحوراني وطاهر الجزائري وعبد الله فكري ومحمود شكري الالوسي وجمال الدين القاسمي وحفني ناصف ويعقوب صروف وابراهيم مصور وسليمان البستاني وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وقاسم امين واحمد فتحي زغلول ورشيد رضا ورفيق العظم وعبد الحميد الزهراوي وعبد العزيز جاويش وصالح حمدي حماد ولبيب البتنوني وفريد وجدي ومحمد فريد وعلي يوسف واحمد تيمور وزكي مغامز وشاكر شقير وسامي قصيري وشحادة شحادة وسعيد الشرتوني ورشيد الشرتوني وفرح انطون وجرجي يني وابراهيم النجار واديب اسحق ونعوم لبكي ونعوم مكرزل واحمد فؤاد وسعيد ابو جمرة ومصطفى الغلاييني وعبد الباسط فتح الله ومحمد بيرم وخير الدين التونسي ومحمد المهدي وشكري العسلي وشاكر الحنبلي وعبد الوهاب الانكليزي ونجيب شاهين واسكندر شاهين وسعيد الباني ومحمد مسعود وحافظ عوض

الذي كان يحمي الملتجئين اليه من امراء المسلمين الهاربين من الخلفاء في قرطبة · كان شارلمان لاول امره أُمياً تعلم الكتابة البسيطة علىٰ كبر مثل محمد علي الا ان تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروساً فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستنيرين والمتعلمين الذين كان يستعين بهم علَى نشر المعارف بما انشأه من المدارس باشارة الكوين المشهور استاذه وامين سره وباذر الجراثيم الاولى من المعارف في هذه الارض الفرنسوية وبمساعيه أنشئت المدارس في اكس لاشبل عاصمة البلاد اذ ذاك وتور واورليان وليون واستنسخت الكتب الوافرة لينتفع بها الطلاب

ومن العجيب انه حدث لنهضة شارلمان ماحدث لنهضة محمد علي حذو القذة بالقذة وذلك انه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ريحها جملة واحدة لان من خلفوه علَى سرير الامبراطورية لم يكونوا علَى قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولان الاعمال العظيمة في البلاد المنحطة قد تقوم بالفرد اكثر من قيامها بالافراد وعلَى العكس منها في البلاد الراقية · اتت خمسون سنة علَى فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم او كاد ولم تدب روح التجديد فيها الا بانتباه عقول الامة وعلَى يد اناس من ابنائها كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تجدد حياة آدابها بيدها بعد محمد علي بنحو خمسين سنة متكلة في مهمتها علَى نفسها لاعلى الحكومة وبذلك جاز لنا الاستنباط بان كل اصلاح يقوم بالامة في هذا الوجود يكون الامل في بقائه اكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الاستبدادية التي تجد فيها تمييزاً بين الامة والحكومة · والحكومات قد تعرض لها عوارض تنسى معها الترغيب في العلم ومنها الى اليوم من يفضل الجهل علَى العلم · ولهذه

بل في البلاد العربية كافة واصبحت مصر ببيض اياديهم من هذه البلاد بمثابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتهز اعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التي ترجمت في فنون مختلفة من الافرنجية زهاء الفي مجلد . والاثر الاكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ من ألف وترجم في عهده بما خلفه من قلمه او عرب في قلم الترجمة برئاسته وما بثه من المبادىء في مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس . وكلها اعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جزيل . خل عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الاثناء ومنها جريدة وادي النيل لابي السعود ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك .

ورب معترض يقول اي علاقة لتعلم العلوم الجديدة ونقلها الى العربية بحياة اللغة التي يراد منها آدابها المنثورة والمنظومة ليس الا . والجواب انه لا ادب لمن خلت لغته من امثال هذه المعارف . فكما ان للعلوم ارتباطاً كلياً بعضها ببعض هكذا للغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها بل ان لغة مهما حوت من انواع البديع والمعاني والبيان لا تعد من اللغات الحية ان لم تكن لغة علم قبل كل شيء

وهنا مسألة مهمة لا احب ان امر بها وانا منطلق لان لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الادبية وهي انا اذا تدبرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لانلبث ان نشبهه من ملوك الافرنج بالامبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية . وشارلمان كما لا يعزب عن علمكم كان من اعظم ملوك دهره وله صلة بملوك المسلمين وهو الذي انفذ اليه الرشيد العباسي رسولاً من قبله سنة ٨٠١ م يحمل اليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهذا

منــذ سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الاستـاذ بروجر بك الفرنسوي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلية والمستشفيات المصرية الى خديوي مصر في عهده يقول له في تقريره السنوي ان الوقت قد حان لان تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين اذ قد اصبح فيهم الاكفاء الآن وان مهمة فرنسا في تربية ابناء مصر في هذه الفروع العلمية قد انتهت او كادت ·

نعم في ذاك العهد تم للعربية ما تريد من تعريب المصنفات العلمية والادبية على اختلاف انواعها وعادت فاضحت لغة علم بعد ان انقطع سند العلوم منها قروناواحيااولئك المصريون امثال الطهطاوي والرشيدي والشباسي والهيهاوي والنحراوي وحماد وبهجت والفلكي وندى والنبراوي والبقلي الفاظاً من لغتنا كانت في حكم الدارس هجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية في بغداد والاموية في قرطبة والفاطمية في مصر واضافوا الى تلك الالفاظ ماحدث بعد عهد الحضـارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التي سلك عليها اجدادنا المعربون غالباً حتى ان الاتراك والفرس لماشرعوا يعلمون العلوم في البلاد العثمانية والايرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا امامهم كنزاً حاضراً ينتفع به في الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة في الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وادمجوها في تضاعيف لغتهم

كان الطلبة الذين ارسلهم محمد علي الى التخرج في اوربا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حملة لواء العلم لا في القطر المصري فقط

قال لي صديقي الدكتور عثمان بك غالب احد حسنات مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي اختطها محمد علي لمن يجيء بعده وشاهد تلك الحركة العلمية في ابانها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشهدها الآن في تجددها : لقد ظلت نهضتنا العلمية سائرة احسن سير الى سنة ١٨٨٢ فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من ابناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد شيء منه لاحلال اللغة الانكليزية محل اللغة العربية في المدارس الاميرية زاعماً بان الواجب عَلَى المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لايتأتى الا اذا اتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف في ايامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لابناء انكلترا وقطعت الارساليات العلمية الى اوربا حتى لم يكد يبقى اليوم من اولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل اذا عادوا الى منابر التعليم لايسدون حاجة مصر واخذت المعارف في عهد المبارك تطهر المدارس بامثال دنلوب وارتين من كل ماينفع اللغة او كان من آثار النهضة الاولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة اكداساً في مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجل العار عَلَى من عقوا لغتهم وامهم كما عق اخوة يوسف ابن ابيهم عَلَى حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التآليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرهما من مصنفاته

قال غالب بك كان اكثر اساتذة المدارس التي انشئت في مصر على عهد نهضتها الاولى من الفرنسويين المستعربين يكتب الاستاذ درسه بالفرنسوية والمترجم معه ينقله الى العربية فيلقي عَلَى الطلبة بلغتهم دام ذلك

من حيث خدمته للغة والعلم لا من حيث منازعه السياسية من اعاجيب الحكام في الشرق · والشرق ابو المعجزات والكرامات ·

ليس من يجهل ان محمد علي كان امياً او يقرب من درجة الامية · مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لانه كان ارناؤدياً ولم يخط سطراً واحداً لانه تعلم في الكهولة مبادئ طفيفة من حسن الخط والقراءة فقط · ومع هذا فقد عني بما لم يعن به احد من ملوك المتأخرين وشرع منذ استتب له امر مصر يختار الاذكياء من ابنائها ممن قرؤا الدروس الوسطى فيبعث بهم على نفقة الحكومة الى اوربا ليخصوا في العلوم التي اولعوا بها حتى اذا عاد احدهم واتم تحصيله يحبسه عنده في قلعة الجبل ويخرج له كتاباً بالافرنجية في الفن الذي اتقنه ويوعز اليه بان لايخرج من القلعة قبل ان يترجمه بالعربية ويأمر له باسباب الراحة والمعينات على الترجمة والتأليف · فاذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على امير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس او الى لجنة كانت معروفة اذ ذاك بلجنة الامتحان فبعد ان تنظر فيه ترخص بطبعه في المطبعة الاميرية ويغدق الامير على المترجم انواع الهبات ويشرع في ترقيته في المراتب ان كان ممن استعدوا للادارة او الجندية او البحرية واذا كان من الاساتذة يوسد اليه التدريس في بيوت العلم موسعاً عليه في الرزق ليتخرج به ابناء مصر · وهو عمل يذكرنا بما كان يأتيه المأمون العباسي من الانعام على المترجمين ولكن مايصدر عن المأمون وهو اعلم خليفة في الاسلام لايستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الامة بقدر مايستكثر ماتم على يد محمد علي الامي الالباني وعصره عصر شيخوخة الاسلام والمسلمين ·

اخواني : تعلمون قرت بكم عيون مصر انه اتت على اللغة العربية ادوار واطوار وعرض لها مايعرض لكل كائن في الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وان اتعس ايام ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة وهو عهد الفتور في جسم الامة الاسلامية عامة والامة العربية خاصة · ثلاثة قرون بل اكثر مضت في مرض مستحكم كانت تكفي لموت هذه اللغة الشريفة التي تعقد اليوم عَلَى امثالكم خناصرها وترجو بمساعيكم ان يكون مستقبلها خيراً من حاضرها وغابرها بيد ان لغة يفرض على زهاء مائتي مليون من المسلمين ان يتعلموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال مادام في الارض مسلم يوحد الله ·

لابد لكل حركة من سبب · وسبب ماعرا العربية من الضعف في تلك القرون انقطاع الملوك عن الاخذ بيدها فاصبحت الامور العلمية صورية ينظر فيها الى الاشكال لا الى الحقائق واقتصر الناس عَلَى فروع الفقه والكلام والتوحيد وعدوا ما عداها من العلوم فضولاً لاغناء فيه وساعد على انتشار هذا الرأي السخيف مأاصاب البلاد من ضعف الاحكام وفساد النظام ولا علم حيث يفقد الامن وفي النادر ان يهتم جاهل بتعليم او يربي من لم يترب ّ

وكأن قدرة المولى تعلقت بان هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من ابنائها ان تأتيها الصحة عَلَى ايدي غيرهم · وربما يعجب بعضهم الآن اذا قلنا له ان مبدأ نهوض اللغة العربية كان في مصر ايام محمد علي وقد صحت عزيمته على خدمتها مسوقاً بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من اهل العلم من الفرنسيس فكان من اعماله الجليلة ماخلد له الفخر عَلَى الدهر وجعله

عند ما يفكر في عاقبة سعي الجهلاء لابقاء سوء التفاهم بين العثماني والعثماني فكيف يتمنى هذه الامنية البعيدة اليوم من ربط العثماني بالايراني · فاللهم علمنا علماً نحسن به التفاهم حتى يتآخى الشرقيون كما يتآخى الغربيون

محاضرتنا في نهضة العربية

١٧

في باريز ثلاث جمعيات شرقية الاولى جمعية شبان الاتراك العثمانيين والثانية جمعية الجامعة الاسلامية والثالثة جمعية الاخاء المصرية · اتخذت كل جمعية لها نادياً واخذت تعمل علَى مافيه غايتها وقد كلفتنا جمعية الاخاء المصرية ان نلقي عليها محاضرة في نهضة اللغة العربية في المئة سنة الاخيرة فالقينا عليهم المحاضرة الآتية في ناديهم في قهوة فولتير امام دار تمثيل الاوديون :

سادتي الاخوان

سألتموني سعدت بكم اوطانكم ان احدثكم بطرف من تاريخ نهضة اللغة العربية في المئة سنة الاخيرة وما منكم الا من استفيد منه واتشرف بالاخذ عنه · انتم من اهل الفئة الفاضلة في وطنكم يتوقع منكم ان تنيروا آفاق جهله بانوار معارفكم وان تعمروا اكناف معالمه ومجاهله بما ثقفتموه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صحيح وآداب رافعة · فاني لي وانا نازل بينكم متعلماً لا معلماً ان افوه في حضرتكم بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مصاقع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء وماحالي وحالكم لو انصفتكم وانصفت نفسي الا حال من يحمل التمر الى هجر او المسك الى ارض الترك إستغفر الله بل ان حال من يلقي محاضرة علَى جمعية الاخاء المصرية في باريز اعجب واغرب ·

في اميركا كما عظمت منزلة رجال المال والاعمال والصناعة والتجارة ·
وكثير من سكان المدن يعنون بالموضوعات الادبية والفنية والعلمية واصبحت
بعض المدن مثل بوسطون التي هي مقر الحركة العقلية منذ زمن طويل
ميدان الآداب والعلوم · وان كثيراً من الاسر لينزلون مدينة واشنطون
عاصمة الولايات المتحدة في سياستها ويعيشون فيها بعيدين عن اضطرابات
نيويورك وسان لوي وشيكاغو · وليس للاميركان مثل فرنسا بلاد يغترفون منها
مادة علم ولا يجدون بلداً مثل فرنسا تتلقاهم بقبول حسن وتوفر الارادات
على حبهم · وفرنسا تتعلم كذلك من نشاط رجالهم فكما ان طلابهم يجدون
في بلادنا مايتعلمونه كذلك اولادنا يستفيدون من تعلمهم في كليات اميركا
فينشأون بين شبان يشعرون منذ صغرهم باستقلال الفكر وانهم حاملون
تبعة اعمالهم ان خيراً فخير وان شراً فشر ·

لما وصل النقل الى هذا الحد وقف القلم فذكرت شيئاً من حال الشرق ·
ذكرت حال العثمانيين والايرانيين وانهم وان كانوا من امم مختلفة فجامعتهم
الكبرى وهي الاسلام لاتقول بجنس ولا عنصر فلو كنا وكانوا عَلَى شيء
من العلم الحقيقي اما كنا ندعو الى انشاء جمعية عثمانية ايرانية كما ينشيء
هانوتو اليوم جمعية فرنسوية اميركية

ولكن ضعف عقول رجالنا ورجالهم وتعصبنا وتعصبهم وجهلنا وجهلهم
لاتلبث ان تنفجر براكينها اذ ذاك ويتذرع بعضهم بالسياسة يتوكأون عَلَى
عكازها لينافروا بين القلوب ويفرقوا بين ابناء الاب الواحد وهناك تدخل
الدول ذوات الشأن والغايات في البلادين وينفخن في ابواق الشقاق
مستعينات ببعضنا عَلَى البعض الآخر · وان العاقل ليربط عَلَى قلبه بيده

٦٦٦ مليون دولار دع عنك الصيد في بحار اميركا وانهارها وهو يباع بعشرات الملايين من الدولارات ·

وبلغ سنة ١٩٠٥ مجموع ما في الولايات المتحدة من المعامل ٢١٦ الف معمل رأس مالها ١٢٦٨٦ مليون دولار يعمل فيها ٥٤٧٠٠٠٠ يتقاضون اجوراً يبلغ مقدارها ٢٦١١ مليون ريال وتبتاع بثمانية مليارات ونصف من المواد الاولية وتبيع بما قيمته خمسة عشر ملياراً · وفي سنة ١٩٠٨ اعطت الحكومة ١٦٣ الف رخصة لانشاء محال واماكن قيمتها ٥٤٦ مليون ريال

وبلغ طول الخطوط الحديدية في هذه الولايات سنة ١٩٠٧=٢٣٧ الف ميل اي ٣٨١ الف كيلو متر لها ٥٥:٣٨٨ قاطرة و ٢،١٢٦،٠٠٠ مركبة فيها من المستخدمين ١٦٧٢،٠٠٠ يقبضون ١٠٧٢ مليون دولار مشاهرات وبلغ عدد من نقلتهم تلك الخطوط من الركاب ٨٧٤ مليوناً وثقل البضائع ١٧٩٦ مليون طن وثقل الطنات الالفية (الالف ١٦٠٨ امتار) ٢٣٦ ملياراً ورأس مال شركات السكك الحديدية ١٦ مليار دولار وصافي ريعها اربعة في المئة · وفيها ماعدا هذه السكك الحديدية ٣٨٨١٢ ميلاً من الخطوط الكهربائية ·

وبلغت صادرات الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨ ١١٩٤ مليون دولار والواردات ١٨٦٠ ومجموع تجارة اميركا الخارجية ٣٣١٥ مليوناً

وكل هذه القوة الاقتصادية ليست بشيء لو لم تكن الاخلاق اساس عظمتها الاقتصادية وقد اخذ مقام المفكرين والعالمين يعظم

بمعونة الحكومات الاخرى، ومنحه المستر كارنجي مبلغاً جسيماً من المال وهو يفتح قاعات لالقاء المحاضرات والاجتماع ومكاتب لاخذ المواد والتعليمات وخزانة كتب ومحلات كبرى وينشر مجلة للدعوة الى هذا الغرض وذلك عَلَى صورة رسمية كما ان اسبانيا انشأت مثل ذلك للتوفيق بين اسبانيا واميركا وبمثل ذلك قامت البرتقال للتوفيق بينها وبين البرازيل · وفي المانيا اتحدت الكليات واعمال الرجال عَلَى جلب ابناء الاميركان وتلقينهم التربية الجرمانية اما شعار جمعيتنا فهو ان نحبب فرنسا الى نفوس اميركا ونعرفهم بها ونحبب اميركا الى نفوس الفرنسويين ونعرفهم بها

ولا بأس هنا بذكر شيء من تلك العظمة الاميركية التي ادهشت العالمين المدني والوحشي · فان مدائن نيويورك وشيكاغو وسان لوي وسان فرنسيسكو قد امتازت بغناها في زراعتها ومعادنها وصناعتها واعمالها التجارية الخارقة للعادة فقد كان في الثماني والاربعين ولاية ومقاطعة كولومبيا والارض الهندية والاسكا وجزائر هافاي ومنها تتألف الولايات المتحدة ٥٧٣٩٦٨٧ مزرعة سنة ١٩٠٠ ومعدل سعة كل واحدة منها ١٤٦ فداناً (آكر) وثمنها ٢٠ ملياراً ونصف مليار دولار اي ١٠٦ مليارات من الفرنكات وكان مجموع محاصيل هذه المزارع سنة ١٩٠٨ ٨ مليارات دولار منها ٢٦٦٨ مليون مكيال من الذرة و٦٦٤ من الحنطة و ٨٠٧ من القرطمان و ٣١ من الجاودار و١٦٦ مليونا من الشعير و١٣ مليون بالة قطن و٧٠ مليون طن من العلف و٧١٨ مليون لبرة من التبغ و ٢٧٨ مليون مكيال من البطاطا و١٣٥ مليون لبرة من الصوف النقي

وكانت مساحة الغابات الاهلية ١٦٨ مليون فدان تغل كل سنة

يحج الالوف من الاميركيين كل سنة للتنزه والارتياض والاستفادة وكلما كثرت الرفاهية في ديارهم تدعوهم الدواعي الى نزول باريز وما في اراضي فرنسا من المصايف والضواحي كالشاطئ اللازوردي (كوت دازور) فان مجموع الاميركيين الذين يختلفون كل سنة الى ديارنا لايقلون عن مليون سائح · فعقد الصلات بين فرنسا واميركا فيها كل ما نحتاجه من الاسباب القوية فان كانت اميركا الشمالية تدعونا اليها بما فيها من القوة والعظمة فاميركا الجنوبية تناديناً اليها القرابة لان عناصرها لاتينية وتربتها لاتينية فمن كندا الى مضيق ماجللان مارين بالمكسيك والجمهوريات الوسطى ترى الدم اللاتيني ممزوجاً في شرايين العناصر الجديدة وعلى اميركا الجنوبية يصح اطلاق المثل القائل «هذا دم لاماء»

ومثل هذه الجمعيات نفعتنا في القارات والاقطار الاخرى فقد كانت جمعية «افريقية الفرنسوية» اعظم معاون للحكومة في اعمالها الاستعمارية وجمعيه «آسيا الفرنسوية» اخذت على عاتقها مثل هذه المهمة و«جمعية مراكش» تعمل على نشر الافكار الفرنسوية في الغرب الاقصى فنحن بجمعيتنا هذه لانأخذ الى اميركا من معارفنا بقدر مانأخذ عنها · فلا نرمي الى الدخول فيها ونشر كلمتنا بين ابنائها بل نود ان نعاونها ونحالفها نريد ان نتعلم عليها ونحن ابناء المدنية القديمة درساً في النشاط والمضاء فان كان لمدننا القديمة كنائسها وبيعها فللمدن الحديثة معاملها ومصانعها فنحن نقنع بامتصاص التاريخ اما هم فينشقون ارج المستقبل

قام في واشنطون مثل عملنا هذا يرمي الى التقرب بين جميع العناصر في العالم الجديد سموه مكتب الجمهوريات الاميركية انشأته الولايات المتحدة

اليوم في الدرجة الرابعة بعد انكلترا والولايات المتحدة والمانيا · اي اننا فقدنا ما كان لنا من المكانة قديماً فنحن اليوم نريد ان نستعيد منزلتنا الاولى او ان نغتنم الوقت الضائع فالمسأَلة ليست متعذرة ولكن تقتضي لها الارادة والتفكر والعمل على طريقة منتظمة والعودة الى تقاليدنا والانتفاع من اسبابنا

اما الولايات المتحدة بما لها من المركز الذي احاط بطرفي البحرين المحيطين فهي المهيمنة عَلَى اعمال العالم فان عدلت الحالة بين اليابان وروسيا فلا يبعد ان يجيء زمن تتداخل فيه في السياسة الاوروبية وان الفرنسويين في كندا ليبلغون مليونين ونصفاً ومثل هذا العدد من الفرنسيس منتشر في جمهورية الولايات المتحدة ولا سيما في الجنوب واللغة الفرنسوية في هايتي هي اللغة الرسمية فاذا حسبنا المستعمرات الفرنسوية في كويان وجزائر الانتيل يصبح عدد الفرنسيس ومن يتكلمون باللغة الفرنسية من الاميركان ليس بقليل

وان ما لنا من الايادي في اميركا ولا سيما وقد قرن فيها اسم لافاييت الفرنسوي باسم واشنطون الاميركي اللذين ساعدا على استقلال الولايات المتحدة وما وضعناه فيها من اموالنا وقمنا به في جمهوريات الجنوب من البعثات العلمية والعسكرية والمشاريع الاقتصادية والمالية كل ذلك يدعونا بلسان الحال الى ان نصل الحاضر بالغابر وان لم تكن سلسلة الصلات قد قطعت كل القطع

والناس مهما تقلبت بهم الحال لايزالون يذكرون لفرنسا بيض اياديها عَلَى المدنية واذا نسوها فانهم لاينسون باريز التي تنشر انوارها على العالم واليها

مع اميركا الشمالية والجنوبية واستغرقت التدابير الاوربية الكبرى التي اضطررنا الى مجاراتها فكرنا وقوتنا المادية . وانحطت بحريتنا التجارية فضعفت بضعفها اسبابنا في العمل واحتفظنا باساليبنا القديمة التجارية فسبقتنا شعوب اكثر منا فتاء واكثر مضاء واقل مطالب ومشاعب

نعم تقدمنا وتاثلنا ولكننا لم نبرح كما كنا في قوتنا على عهد نابوليون على حين كانت اميركا بثروتها وقوتها وعظمتها تتقدم تقدماً لا يوصف فقد كان سكان الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ — ٣٦ مليوناً اي مايقرب من سكان فرنسا على التقريب فاصبحوا سنة ١٨٩٠ — ٦٣ مليوناً وهاهم يتجاوزون اليوم الثمانين مليوناً . وفي كندا اليوم زهاء ٦ ملايين من السكان وفي الجمهوريات الوسطي والمكسيك ٢٢ مليوناً واصبحت اميركا الجنوبية ٤٥ مليوناً وكان فيها سنة ١٨٩٠ — ٣٥ مليوناً

وكان مجموع تجارة الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ خمسة مليارات ونصف فرنك فاصبحت اليوم زهاء ١٦ ملياراً وكان مجموع تجارة كندا سنة ١٨٧٨ = ٧٩ ٧٥٠ مليوناً فاصبحت سنة ١٩٠٥=١٩٠٦ مليارين ونصفاً . ومجموع تجارة اميركا الوسطي والمكسيك مليارين ونصف وجمهوريات الجنوب اكثر من اربعة مليارات منها ملياران ونصف للبرازيل ومليار للجمهورية الفضية .

وعلى الجملة فقد بلغ مجموع ماهناك من نفوس ١٦٠ مليوناً من البشر ومجموع التجارة اكثر من ٢٥ مليار فرنك واحدثت اميركا حركة كبرى في العالم بدخولها مضمار الاتجار فاثرت في فرنسا تأثيراً غير قليل وكانت هذه الى ذاك التاريخ قريبة بتجارتها من انكلترا اي لها المقام الثاني في التجارة فاصبحت

اميركا » مؤلفة من علماء وسياسيين وقواد واجتماعيين ومعلمين وفي رأسها المسيو جبرائيل هانوتو احد اعضاء المجمع العلمي وصاحب التآليف الكثيرة في التاريخ والسياسة ووزير خارجية فرنسا الاسبق وقد انشأوا لبث هذه الدعوة مجلة شهرية باسم جمعيتهم تدعو الى هذا الغرض استفتحها رئيس الجمعية بمقالة في الغرض الذي يرمون اليه وكتب في المجلة الاسبوعيه مقالة طويلة الذيل في هذا الشأن فرأيت ان الخص للمشارقة لباب هاتين المقالتين دلالة عَلَى ما يأتيه المغاربة من الاعمال النافعة لمستقبلهم لننعي على انفسنا نومنا عن النظر في مستقبلنا

قال هانوتو : ان النجاح معقود بناصية من يعمل في الوقت اللازم ولو وجهنا وجهتنا منذ سنة ١٨٦٠ الى اميركا الشمالية والجنوبية لما احتجنا اليوم الى دعوة امتنا لتعريفها بما نعرفها به · هبت علينا الزعازع السياسية والاقتصادية منذ ذاك الحين واذ قد سكنت الآن وجب علينا ان نعمل عملاً يحمل في مطاويه احسن الفوائد

تبدلت الارض غير الارض في خمسين سنة حتى صح ان نقول ان قارتي آسيا وافريقية كأنهما اكتشفتا حديثاً فكثرت مواصلاتهما وحملت اليهما المدنية والحضارة وجرى تعليمهما واستعمارهما وكان لفرنسا من هذا التحول الغريب حصة موفورة · فقد غير دلسبس بفتحه ترعة السويس شكل الارض كما ان جول فري بموافقته عَلَى السياسة الاستعمارية قد حاز لنا قسماً كافيا من قسمة الاراضي الجديدة

وبينا كان الشرق يستدعينا غدا الغرب ينكرنا ويستغني عنا · فان مسأَلة باناما المشؤومة التي جاءت بعد مسألة المكسيك قد اثرت في علاقاتنا

مايشاؤن فالعمل كما قال اميل بوترو هو السرور علَى شرط ان لايكون صاحبه مستعبداً فيه لاحد ولا لمؤثر بل يقوم به مدفوعاً فقط بعامل نتائجه الطبيعية وهي الايجاد والابداع · وما التربية الا ان تخرج كل انسان علَى ماينفع فيه و يتيسر له النبوغ في فروعه · التربية هي تخريج المرء اولاً في مجموع المبادىء العامة التي هي وقف خلفه لنا اسلافنا بتجاربهم وسموا ذلك العقل ثم تخريجه ثانياً في ان يكون مخصياً متفرداً في علم واحد يكون فيه علَى بصيرة علَى نحو مايتطلب ذلك العلم الحاضر والمجتمع الحديث ثم ينشأ ثالثاً ممن دخل في هذين الطورين في التربية فيلسوف يدرك قيم الامور ويعرف الصلات المتبادلة فيما ينصرف اليه العالمون علَى اختلاف معارفهم ويبحث في ان يوفق توفيقاً حسناً بين الحياة الخاصة والحياة العامة · وكل هذا لايفهم مغزاه شرقنا التعس الآن ·

تآخي الغربيين

١٦

كل فكر ومذهب في الوجود نتيجة الدعوة اليه وتحبيبه الى النفوس · عرف الغربيون هذه القاعدة فجروا عليها في كثير من اعمالهم وكان من ثمرات الدعوات السياسية الدينية تأليف الوحدة السويسرية والالمانية والاميركية وتوحيد كلمة الجزائر البريطانية وانتشار المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والفوضوية وكثرة من يدينون بالمذاهب البرتستانتية والفلسفية

وقد قام هذا الشهر في فرنسا جماعة ممن يفكرون لخيرها رأوا ان بلادهم وتنتفع كثيراً من تحسين صلاتها مع اميركا فألفوا جمعية دعوها « جمعية فرنسا

غلوة من سكان هذه الرحبة الشريفة يأخذون منها ماراقهم كل ساعة ·

وليست هذه الوسائط هي كل مافي معهد تير من المعونات لعلمائها بل ان لهم بفضل الشيخ الرئيس مديرهم الحكيم الكبير اهم الاسباب التي تربطهم بعلماء العالم ومجامعه وكلياته فهم كسكان الجنان توفرت لهم كل الوسائط فلم يبق عليهم الا ان يقطفوا من ثمار يحبونها كل قريب ودان

يعيش هوءلاء العلماء عيشة مشتركة فيتناولون طعامهم معاً و يلعبون و يتنزهون معاً ويبحثون عن العلوم التي يمتون بها معاً و يظلون هكذا يعيشون عيشة الاتراب العاملين على ماتعلموا في طفوليتهم في المدارس والكليات . ويستفيد بعضهم من بعض في العلوم المختلفة ويعاون بعضهم بعضاً معاونة الاخوان ويترفهون رفاهية لايتمتع بها الا عقلاء الاغنياء

قام هذا المعهد المفيد تحت رعاية العلماء من اهل المجمع العلمي وحققت فيه موءسستاه العقلية تيروشقيقتها ما رسمه النظار على ذاك المعهد امثال جول سيمون ومنيه وبارتلمي سان هيلير فكان تير الذي عد من نوابغ القرن التاسع عشر الذين خدموا بلادهم خدمة تذكر على الدهر فتشكر نافعاً لامته في حياته بعقله وفي مماته بماله فمتى يصل الشرق ياترى الى هذه الدرجة في العقل والاحسان ومتى يكون علماوءه من اهل السعة واليسار الى هذا الحد ليحسنوا الانتفاع باموالهم كما احسنوها بعلومهم

ان شبان العلماء في هذه الدار بعد ان تعلموا ورأوا العلماء كيف يعملون محتاجون لهضم ماتعلموه ان يعانوا لينشأ منهم افراد متفردون في العلم فيتحولون بهذه الواسطة من تلامذة الى اساتذة اكفاء ان يكفوا انفسهم وان يوجدوا ويخترعوا وهذا موقوف على ان يستجمعوا قواهم ويتمتعوا بحريتهم واوقاتهم على

ليسيح بها سياحة علمية وتعطيه غرفتين فسيحتين فيهما اسباب الراحة والرفاهية احداهما لنومه والثانية لعمله بحيث يكون الشبان العلماء الخمسة العشر وهو عدد الموجود منهم في المعهد ابداً موسعاً عليهم لا يطلب منهم الا ان يؤلفوا ويبحثوا ابحاثاً علمية تنفعهم وتنفع امتهم وبلادهم ويقسم عدد من كانوا فيها سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩ من شبان العلماء الى رياضيين ومؤرخين ومتشرع في السياسة والاجتماع وعالم في اليونانيات وحقوقيين وفيلسوفين ومؤرخ وموسيقار وعالمين في الجرمانيات ومؤرخ في الآداب الفرنسوية وجغرافي وقد انشيء هذا المعهد ١٨٩٣ فيكون عدد من اعانتهم عَلَى الاخصاء في العلم حتى الآن ٨٠ عالماً وكلهم وضعوا المؤلفات الممتعة النافعة للعلم عامة ولبلادهم خاصة وقد بلغت واردات هذا المعهد مئة وخمسين الف فرنك في السنة يتناول منها المدير عشرة الآف فرنك ·

قام معهد تير العلمي في اجمل حي من احياء باريز في حي الاشراف والنبلاء بالقرب من غابة بولونيا الغنـاء غربي مدينة باريز في الحي الذي تؤجر الدار فيه اليوم بثلثمائة الف فرنك مسانهة وسط حديقة انيقة تحيط بها الحدائق في مكان يجمع الى السكون المطلوب للعلماء والمؤلفين ولا يبعد عن سائر احياء العاصمة وما يلزم لهم من المواد المفرقة في مكاتب باريز المختلفة ودور العلم والمستودعات والمجامع والمتاحف وغيرها بحيث هم بعيدون قريبون عن الحركة العلمية والسياسية والاجتماعية وليس في المعهد مكتبة كبرى لانها عَلَى اتساع مساحتها لا يتسع صدرها لكل ما يلزم المؤلفين فيها من المواد بل فيها فقط كتب الفهارس والمعاجم والمراجع والامهات التي لا غنية لكل عالم عنها وما عدا ذلك فمكاتب باريز وعلماؤها ودور سجلاتها ومتاحفها عَلَى قيد

هذه الدار سميت باسم تير *La Fondation Thiers* والاولى ان تسمى دار معونة العلماء لانها ليست مدرسة كالمدارس ولا كلية كالكليات ولا مدرسة دينية كالمدارس الدينية بل هي دار يقبل فيها كل سنة خمسة (١) من شبان العلماء من نابهي الكليات يحملون شهادة «الليسانس» او «الدكتورا» في الآداب او العلوم او ممن نالوا جائزة من جوائز المجمع العلمي في الابحاث التي تجري فيها المسابقة بين ارباب الافكار والاقلام تحت نظارة المجامع العلمية الخمسة في باريز فيقضون ثلاث سنين في هذا المعهد ينصرفون فيها الى الفن الذي يريدون الاخصاء فيه فيبحثون بانفسهم لانفسهم تحت رعاية مدير المعهد فيلسوف فرنسا المسيو اميل بوترو الذي يعيش واياهم في المعهد كما يعيش الاب مع بنيه ويمدهم بآرائه ويهديهم الى اقرب الطرق للانتفاع بمعارفهم ووضع مؤلف او مؤلفات نافعة في الفنون التي هي احب من غيرها الى قلوبهم ولا ينشرونها الا اذا نظر هو فيها واقرهم عليها . واي عالم لا يحب ان ينتفع في عمله برأي عالم كالمسيو بوترو بلغ السبعين او كاد من عمره وهو يفني لياليه وايامه في العلم والفلسفة

يشترط فيمن يدخل دار معونة العلماء ان يكون ممتازاً بعقله واخلاقه ويفضل من يرتضي اساتذته اخلاقه ونبوغه ويشهدون فيه شهادة حسنة وان يكون دون السادسة والعشرين من عمره غير متزوج وقد قضى الخدمة العسكرية ويعطيه المعهد ستين ليرة في السنة لنفقته الخاصة وثلاثين ليرة

---

(١) اعتمدنا في هذه المقالة على ما كتبه المسيو اميل بوترو بشأن معهد تير العلمي في مجلة الافكار الحديثة ومجلة وشنشريفت *Wochenschrift* الدولية الالمانية وغيرهما من الفهارس والقوائم

دار معونة العلماء

١٥

هي الدار التي انشأتها الآنسة دوسن شقيقة العقيلة تير امرأة تير ٠ وهو العالم المؤرخ اول رئيس للجمهورية الثالثة نفع هذا الرجل فرنسا بحياته فاحبت امرأته ان تخلد ذكره بعد مماته فاوصت بمال يصرف عَلى تأسيس دار تؤوي خمسة عشر رجلاً من شبان العلماء يكفون فيها مؤونة الحياة المادية ويتفرغون للبحث والدرس ليكونوا صلة بين الكليات التي تخرجوا فيها والمجامع العلمية التي يراد اجلاسهم في قاعاتها ٠ ماتت العقيلة تير عَلى حين فجأة فنفذت وصيتها شقيقتها ووقفت مالاً بلغ ريعه مئة وخمسين الف فرنك

ان من يزور هذه الدار المباركة ويطلع عَلى اعمالها ورجالها يوقن كل الايقان بالمثل الافرنجي القائل بان « فرنسا تخترع والمانيا تعمل »٠ الفرنسيس يبتكرون في كل شيء وهذه الدار هي من مبتكراتهم وما اظن لها مثيلا عند الالمان والانكليز والاميركان سادة العالم في العلم وقادة الابداع والاختراع٠

زرت هذه الدار مرتين وتشرفت بالتعرف بمديرها احد كبار فلاسفة فرنسا وعلمائهم المعاصرين المسيواميل بوترو — ومشاهير الفلاسفة المعاصرين من الفرنسيس اليوم هم بوترو وفوليه ور يبو وبرجسون

ولم اتمن في حياتي ان اكون فرنسوي الاصل والجنس الا لما رأيت هذه الدار وعلمت انها لاتقبل في حجرها الا الفرنسويين ٠ تمنيت ان اعيش فيها المدة المحددة لكل طالب اتفرغ لدرس ابحاث تجول في الصدر ويعوق الزمان والمكان الآن عن اتمامها ٠

وهنا التفت الى رفاقي في الرحلة الذين دخل عليهم اليأس من ارتقائنا مما شاهدوه من الشوط البعيد الذى قطعه جيراننا

فاقول لهم ان ماشاهدناه عندهم ليس الا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وارادة قوية واساس راسخ واذا احببنا ان نبلغ بامتنا مبلغهم فما علينا الا ان نمد نحن يد مساعدتنا للدستور ونستخدم جميع القوى الحية في الامة وان تعمل الحكومة عملا فعالا لما فيه انهاض الشعب كما عَلَى الشعب ان يعمل لمعاضدة الحكومة الصالحة وبالجملة ان يعمل كلاهما بل يعمل الكل للواحد والواحد للكل ويعرف كل الواجب عليه ونكران النفس والمفاداة

وهنا خاض الكاتب في مسألة نهوض العثمانيين وانها موقوفة على التعليم واننا لا ننجح الا اذا حذونا على الاقل حذو البلاد التي كانت تابعة لنا بالامس كممالك البلقان مثلا وارسلنا من شباننا من يتعلمون العلوم الكاملة في كليات الغرب فمن اعظم نجاح تلك الامارات انها مازالت منذ زها ربع قرن ترسل بشبانها الى كليات العلم حتى لا تكاد تدخل كلية في اوربا الا وتجد منهم كثيرين وهؤلاء هم الذين استلموا زمام الاعمال في بلادهم ونفخوا فيها من ارواحهم ولسنا نضطر الى الاجانب لتعليم اولادنا في بلادنا بل يجب ان نجلب رجال الصناعات والعلم منهم يؤسسون في بلادنا مدارس ودور صناعات كما نحن في حاجة الى رؤوس اموال الاجانب لاستخدامها في اعمالنا ومشاريعنا وان نكون في سياستنا الاقتصادية كما قال ارنست لافيس المؤرخ الفرنسوي في تعريف السياسة انها علم خديعة غيرك من الناس وانت تظهر بانك تحملهم عَلَى الاعتقاد باننا لا ندرك بانهم خدعونا او انهم يحاولون خداعنا

وما كانت وحدة هذا المزيج الا نتيجة نظام الحكومة المركزية وحسن مأتاها وبعد نظرها فرأت ان تترك لكل قوم استقلالا اداريًا كان غاية الغايات في ابداعه وبذلك توقت الصدمات الهائلة ولم يحدث حتى الآن مايكدر صفو الراحة . وهذا الرأي في توسيع سلطة الاقاليم لم يكن منه الوحدة الجوهرية فقط لمافيه من احترام القوميات بل نتج منه ارتقاء خارق للعادة في جميع فروع العمل وذلك ان كل قطر له من نفسه غنى طبيعي غزير ورجال نوابغ اذكياء هم خيرة رجاله فاستطاعوا الانتفاع بما حوت بقاعهم وكان من ذلك ان استمتع كل جماعة بما لهم من الحقوق فنشأت المنافسة بين العناصر المختلفة واخذت كل واحدة منها تضاعف عنايتها وتكثر من جهادها فاوجدوا بذلك مجموعة من بدائع الاعمال منوعة الاساليب تمت في عامة فروع الجهاد الانساني وكان ذلك من اهم المشاهد واجملها التي وقع نظرنا عليها في رحلتنا واحسن معلم لنا معاشر العثمانيين

تألفت مملكة هابسبورغ من زواج امراء بعضهم من بعض عَلَى حين كانت الانقسامات الداخلية سببًا لضعف تلك المملكة ولطالما طحنتها مطامع جيرانها واعتداؤهم ولكن لما عزمت الحكومة ان تمنح العناصر المختلفة التي يتكون منها جسم المملكة دستورًا قائمًا عَلَى المبادئ الحرة في مراعاة الحق العام الحديث بدأ نهوضها وارتقاؤها الى الامام

فعلى نواب العثمانيين في مجلسنا النيابي ان ينظروا في أمر العناصر العثمانية ويحلوها كما حلتها النمسا والمجر التي كانت في حالة اشبه بحالتنا اليوم منذ نصف قرن فاحسنت حلها عَلَى مايجب فهي سابقتنا في هذا الباب وما علينا الا ان نأخذ عنها وبذلك نأمن العثرات ولا نسير على غير هدى

بلد بلغ هذه الدرجة من الرقي . نعم لقد تجلت لنا بلاد النمسا والمجر مملكة دخل اليها التجديد من كل اطرافها وتناول كل فرع من فروع اعمالها الخاصة والعامة .

وكثيراً ما اتفق لنا ان زرنا معهدين او ثلاثة في فرع من فروع الصناعة وفي اقاليم مختلفة فكنا نجد في كل منها ماعدا اساليب العمل التي يقضي بوجودها العلم اعمالاً كمالية تابعة وتحسينات خاصة ومحلية تدل على الاقدام الذاتي وقوة ارادة شخصية وحب في البحث وكلها ظواهر محسوسة لعمل عام ونشوء متواصل . كنا نشهد ذلك في كل الفروع الصناعية والفنية والمدرسية والانسانية . ولكثرة عنايتنا بالسوءال عن معاهد الاحسان ومعونة العملة تراءى لنا ان النمسا في مقدمة الامم في هذا الباب ومن ذلك ان ٤٢٠٠ من العملة العاجزين يعيشون في لاينز بالقرب من فينا لا على قدر الكفاية فقط بل يعيشون كما يعيش الملوك . وما ننس لاننس ملجأ المرضى العصبيين في شنهوف وفيه ٣٦٠٠ عامل يعاملون كما لو كانوا في قصور ملكية وهم موزعون على ٦٤ بناية في مسافة من الارض تتجاوز مساحة مدينة سلانيك وقد صرفت عليها حكومة النمسا السفلى ستين مليون كورون فقط لاغير

وبينا كان رفقائي رحلتي يدهشون من زيارة المعامل والمصانع ودور الصناعات على اختلاف انواعها في بلاد المجر والنمسا وموراقيا وبوهيميا وستيريا وغيرها كان يلفت نظري خاصة منظر اتفقوا على تسميته باسم مملكة هابسبورغ . فان هذه المملكة هي في الحقيقة رقعة شطرنج فيها غرائب الفسيفساء من العناصر المختلفة والوطنيات الغير المتجانسة ولكن هذه الجماعات على اختلاف اصولها قد اجتمعت ليكون مجموعها مثال جمال ولطف وتنوع

اذا اقامه ماشاهده في غربي اوربا وقعده بما فيها من آثار العمل والجد فان ابن مكدونية لاينقص عنه تأثراً في ماشاهده من اواسط اوربا وشعور ابناء الوطن واحد . قال الكاتب السلانيكي :

في ستة وعشرين يوماً ساح مائتان وخمسون رجلاً من اهالي الاستانة وسلانيك وازمير وغيرها من مدن الداخلية سياحة كبرى قطعوا فيها ٤٥٠٠ كيلومتر في السكك الحديدية و ١٥٠٠ في البواخر والعجلات والسيارات وعلى الارجل فوقفنا في خمس وعشرين مدينة كبرى وصغرى وزرنا نحو ١٥٠ داراً صناعية ومعهداً علمياً او مدرسياً وفنياً وادارياً ومتحفاً وغيره وحضرنا مئة دعوة وغيرها اقامتها لنا ١٥ جمعية و ٢٥ غرفة تجارة وحكومة النمسا والمجر فلم يبق من تلك الرحلة التي تذكرنا السائحين جول فرن وماين ريد الا ان نذكر شيئاً من ذلك الحلم الذي مر علينا في رحلتنا ونتثبت من تلك الاشباح لنحسن الانتفاع بها في مادياتنا وتكون لنا علماً ودرساً نافعاً ولقد كانت غايتنا من رحلتنا اقتصادية لندرس دور الصناعات والاوضاع التجارية والمدرسية والادارية عن أمم ولكن المسائل الاقتصادية والاجتماعية كما قال البارون هلومونسكي فيما خطبنا به لها مساس كلي بالمسائل السياسية وبينها روابط ولوازم ولا سبيل الى البحث في الاولى مع اغفال الثانية .

ولقد كنا نقضي بالعجب من كل مايقع نظرنا عليه حتى كنا نتساءل عما اذا كان ماتقع عليه انظارنا من مدهش الاعمال هو من صنع ايدي البشر وهم الذين قاموا بهذه العجائب وبحق ماقاله النائب الدكتور رضا توفيق رئيس جماعتنا السائحين عندما غادر النمسا ان اغنى اللغات عاجزة عن بيان الشعور الذي نتأثر به كلنا كما ينبغي لما لقيناه من الحفاوة الخارقة للعادة مدة مقامنا في

اما مدرسة اللغات الشرقية الحية وهي التي تقرئ مباديء الغات الشرقية وهي مخرج لاعضاء هذه الجمعية وغيرهم ممن يتولون القنصليات والترجمة والسفارة عن حكومتهم في بلاد الشرق فاسمها فيما ارى اكثر من نفعها وما دامت فرنسا تراعي الخواطر في توسيد وظائف التدريس لغير الاكفاء فان تعليم اللغات الشرقية يبقى صورياً لا حقيقياً · وهيهات ان ينشأ لفرنسا وهي على هذه الحال امثال المستشرقين الاول من ابنائها الذين باهت بهم الامم مادامت سوق الشفاعات رائجة عندها ·



درس من سلانيك

١٤

بينا كنت مأخوذاً بما اشاهده من مظاهر عظمة الامة الفرنسوية واقرأ مثالاً مجسماً من الارتقاء الغربي ولا افرغ ليلي ولا نهاري من زيارة المعاهد العلمية وحضور الدروس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واغوص في مكاتب باريز ولا سيما مكتبة الامة ومكتبة السوربون وبينا تكاثرت عليَّ المواد وانا لا اعرف باي لسان اعبر ولا باي قلم احبر وبينا انا افكر في بلادي وما يجب عليّ ان اكتب لها مما تأثرت به عواطفي واخذ بمجامع قلبي حمل اليّ البريد من سلانيك كراسة باللغة الافرنسية من قلم صموئيل سام افندي ليفي رئيس تحرير جريدة سلانيك الفرنسوية وهي محاضرة القاها في نادي الاتحاد الرياضي في ذاك الثغر اواخر الشهر الماضي عقيب عودته مع جماعة العثمانيين الذين ذهبوا لزيارة بلاد النمسا والمجر منذ مدة فرأيت ان الخصها للقراء ليعلموا ان تأثر العثمانيين واحد عند زيارتهم الديار الاوربية وان ابن سورية

الفيلسوف المعروف ونالت من الحكومة الفرنسوية عدة معونات رسمية ومنحت الجمعية مكتبة الامة الكبرى عدة كتب ومخطوطات وغيرها من النفائس ولا سيما المخطوطات التي اتت بها من الهند والمجموعة التبتية و كتب الديانة البوذية ·

وما عدا المجلة الآسياوية التي تصدرها الجمعية في نحو مائتي صفحة كل شهرين ويتألف منها مجلدان كل سنة فقد نشرت على نفقتها ٢١ مصنفاً تتألف من نحو ٤٠ مجلداً وبعض هذه المصنفات طويلة الذيل مثل مروج الذهب للمسعودي نشرته بنصه العربي وترجمته الى الفرنسوية وهو في تسع مجلدات ونشرت رحلة ابن بطوطة في اربع مجلدات و كتاب الماهافاستو في ثلاث مجلدات

وهذه الجمعية تمنح كل سنة معونات لبعض المؤلفين في الموضوعات العلمية · واعضاؤها اليوم ٢٥٠ عضواً منهم ٢٦ من الاجانب وهي تبعث بمجلتها الى نحو مئة جمعية علمية ومدرسة جامعة او مجلة دورية والى ثمانين مكتبة من مكاتب العالم على يد نظارة المعارف الفرنسوية وللمجلة ١٣٠ مشتركاً ليسوا من الداخلين في الجمعية · وقد بلغت وارداتها سنة ١٩٠٨ : ٢٥٦٣١ فرنكاً و ٦٦ سنتيماً وفي مكتبتها نحو اثني عشر الف مجلد من الكتب و ١٥٠٠ صفيحة و ٢٠٠ كتاب مخطوط وفيها مجموعة من النقود القديمة اه

هذا اجمال حال الجمعية الآسياوية وفيها من الاعضاء من لا فائدة منهم ولا رابطة بينهم وبين الغرض الذي ترمي اليه الا انهم يؤدون الراتب السنوي المضروب عليهم ويتناولون المجلة لقاء ذلك و كثير منهم لا يعرفون من احوال الشرق ولغاته واصول سكانه اكثر مما نعرف نحن عن الصين وتبت

وموسسي الجمعية ايضاً كوسان دي برسفال وكارنين دي فاسي ورموسا

فبدأت الجمعية اعمالها لاول تأسيسها بنشر المجلة الآسياوية التي اختصت بالبحث في لغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره ولا تزال الى اليوم نموذج العلم الراقي وسيدة المجلات الاخصائية في فرنسا

وانشأت الجمعية خزانة كتب جمعت فيها كل ماوصلت يدها اليه من الكتب والمخطوطات والرسوم وغيرها مما يفيد العلماء من اعضائها وجمعت ايضاً مجموعات من النقود القديمة والتحف البديعة · ونشرت مصنفات في تاريخ الشرق واصول لغاته وفلسفته واديانه وطبعت علَى نفقتها عدة مصنفات وساعدت كثيرين مساعدات ادبية ومادية علَى نشر الكتب النافعة وكان نشر المخطوطات وترجمتها من اهم الاعمال التي تعنى بها · وخصت جلساتها في سماع المراسلات والمناقشات العلمية النافعة كما عنيت بمراسلة العلماء الاجانب علَى الدوام والانتفاع بآرائهم واعمالهم ·

واذ قد ظهرت منافع الجمعية الآسياوية سنة ١٨٢٨ عادت بعد ان ضعف امرها بضع سنين الى مكانتها الاولى ولم تلبث ان قويت عن ذي قبل وانتشرت كلمتها فرأسها امثال سلفستر دي ساسي ثم جوبر ورينو وموهل وكارسان دي تاسي ورنية ورنان وباربيه دي مينار وسينار · ومن جملة رؤسائها الثانويين كوسين دي برسفال وبارتلي سان هيلير ودفرني وبوريه دي كورتيل وماسبرو وربنس دوفال وبين امناء سرها ابيل ريمورا وجايمس ودار مستثير وشافان

تنقلت الجمعية منذ تأسيسها في عدة اماكن ومنذ سنة ١٨٨٣ اتخذت لها مقراً في بناء ملاصق للمجمع العلمي وذلك بفضل رئيسها اذ ذاك رنان

والاميركيين والبلجيكيين كثرة عدد وحسن معرفة ولا عجب فالالمان نبغوا في كل شأن من شؤون الحياة والعلم والصناعة ودرس العربية كان له النصيب الاوفر من عنايتهم ·

وقد اشتهرت في فرنسا الجمعية الآسياوية ومدرسة اللغات الشرقية الحية وقد درست احوالهما وزرتهما غير مامرة وهاءنذا الخص للقاريء ماعرفته عن الجمعية الآسياوية بواسطة صديقي المسيو لوسين بوفا احد الاعضاء العاملين العاملين في الجمعية المشار اليها فقد كتب اليَّ ماتعريبة : ان فكر تأسيس جمعية علمية تعنى بدراسة الشرق قد جرى البحث فيه منذ اواسط القرن الثامن عشر ولكنه لم يتم الا بعد زمن طويل · فقد انشئت الجمعيات الاولى للباحثين في المشرقيات خارج اوربا مثل جمعية العلوم والفنون في باتافيا (١٧٧٨) والجمعية الآسياوية في البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية في بومباي (١٨٠٥) ومنذ ذاك العهد أنشئت في اوربا واميركا عدة جمعيات للمستشرقين ولكن اقدمها عهداً الجمعية الآسياوية في باريز أسست سنة ١٨٢٢

وعلى ذلك العهد رأى جماعة من مستشرقي الفرنسيس ان الحاجة ماسة الى ان يجتمعوا او يجمعوا مواد الدروس المختلفة الضرورية لهم وان يصدروا مجلة تكون لسان حالهم وقائمة اعمالهم · وكان المسيو دي لاستي انشط هؤلاء العلماء وبفضله أسست الجمعية الآسياوية التي ناب في رئاستها مايقرب من ثلاثين سنة وكان الرئيس اذ ذاك سلفستردي ساسي احد اعضاء المجمع العلمي واستاذ مدرسة فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية وهو اعظم من خدم اللغة العربية في فرنسا وربما كان اعظم مستشرق نبغ ونفع من الفرنسيس كان من

الهواء النقي ويذرون فيه المواد المضادة للتعفن وقد يتأذى بالركوب فيه بعض ضعاف المزاج ولكن ذلك من كثرة الازدحام فيه لا من شي آخر

علم المشرقيات

١٣

لايتأتى لغريب عن امة ان يعرفها حق المعرفة الا اذا درس لغتها وتاريخها وآدابها . واللغة مفتاح باب كل معرفة ومقدمة بين يدي كل عمل . ولذلك كان من الراغبين في درس احوال الشرق من اهل اوربا ان يدرسوا لغاته ليحيطوا خبراً باهله وكان للغة العربية المقام الاول بين تلك اللغات لانها لغة امة ذات حضارة باهرة ودين دان به اهل الاقطار المعتدلة من صميم الشرق . فتوفروا على احكام العربية وتنافسوا في تعلمها حتى نبغ منهم اناس لم يقلوا في فهم اسرارها عن خلص ابنائها الذين نشؤا في حجرها واحكموا ملكة نظمها ونثرها وكان لفرنسا من بين ممالك الغرب يد طولى في هذا المضمار . وكل مملكة من ممالك اوربا واميركا لاتخلو من افراد من اهلها انفسهم يعانون حل معضلات لغة العرب وينسلون الى تلقفها من كل حدب

ولقد دعوا تعلم هذه اللغات وما ينبغي لها علم المشرقيات او الاستشراق والمشتغلين بها علماء المشرقيات او المستشرقين وقديماً كان العارفون من اهل هذا الشأن من الفرنسيس اكثر من غيرهم وقد اصبحوا اليوم واكثرهم من الالمان . والالمان امهر الغربيين في النطق باللسان العربي واكثرهم نبوغاً فيه وعند الالمان من علماء المشرقيات بقدر ماعند الفرنسيس والنمسويين والمجريين والايطاليين والهولانديين والانكليز والروس والاسبانيين والبرتقاليين

من الطير والصيد و ٦ ملايين هكتولتر من الخمور و ٦٩٢٠٠٠ من الجعة و ١٢٠٠٠٠ هكتولتر من سائر المشروبات الروحية

وفيها ٣٠ الف فندق وحانة وقهوة ومطعم يعيش منها مئة الف نسمة ولتجارة الاطعمة ٢٢٥٠٠ محل يعيش منها ٩٠ الف شخص ولتجارة الفرش والاثاث ٣٢٠٠ محل وعدد البيوت والمخازن التي تبيع الامتعة والثياب والازياء ٩٥٠٠ محل فيها ٧٢ الف عامل وعاملة وعدد محال الاطعمة ومعاملها ٧٥ الفاً فيها ٤٣ الف مستخدم وخمسمائة الف عامل وعاملة فيكون مجموع من يعيشون من هذه المحال نحو مليون نسمة

واكبر وسائط النقل واسرعها في مدينة باريز السكة الحديدية الكهربائية تحت الارض التي يسمونها المتروبوليتين وهي تدل عَلَى عظمة العقل وآخر ماوصل اليه الانسان من التفنن وليس لهذا الخط نظير في سعته وجدته في برلين ولا في لندرا افتتح الخط الاول منه سنة ١٩٠٠ وله الآن ستة خطوط منها ماطوله عشرة كيلومترات ومنها اكثر واقل الى السبعة عشر كيلومتراً تربط اجزاء المدينة بعضها ببعض وينتقل الراكب ان احب من فرع الى فرع آخر بدون زيادة اجرة وقد تم الخط الرابع منه هذه الآونة وهو يسير تحت نهر السين ويكلف كل كيلومتر من هذا الخط ثلاثة ملايين فرنك وهو سريع نظيف رخيص يدفع الراكب في الدرجة الاولى ٢٥ سنتيما وفي الدرجة الثانية ١٥ وقد نقلت هذه السكة الحديدية سنة ١٩٠٩ : ٢٥٤٤٥٩٩٢٠ راكباً وكان عدد من اقلتهم في السنة التي قبلها ٢٢٩٧٠٠٥١٩ وكانت ارباحها سنة ١٩٠٨ نحو اربعين مليار فرنك فاصبحت في السنة التالية زهاء اربعة واربعين ملياراً وهم يعملون ابداً عَلَى تهويته عَلَى طريقة لاتخليه من

تضاء باريز في الليل بنحو ٥٢٣١٣ ضوء غاز و ١٥٧٥ مصباحاً كهربائياً وقوة القوى الكهربائية فيها للشركات الخاصة والعامة في باريز ٢،٣٠٠،٠٠٠ مصباح كل واحد ذو عشر شمعات · ويجري ماء الشفة الى مدينة باريز في قساطل من عدة ينابيع صافية نافعة خلافاً لما يدعيه بعض المتجرين بالخمور من ان ماءها مضر بالصحة حتى ينفقوا خمورهم ومعدل مايجري منه اليها ٣١٠،٠٠٠ متر مكعب يأتي الى ٨٤ الف محل من البيوت الخاصة و ٧٤٣٣ مضخة للحريق و ١١١،٦٩٥ محلاً لشرب المارة ويجري اليها ماء للاستعمال غير صالح للشرب وهو للصناعات وغيرها يجري في ٦٤٦٠٠ آلة عامة

في باريز ١٦٠٠٠ عربة بالخيل واكثرها بحصان واحد والمركبة ذات الحصانين هي في الاكثر عربات خاصة بالاعيان وارباب الفنادق وفيها ١٣٠٠٠ اوتومبيل كبير تنقل زهاء ٣٠ مليوناً من الناس في السنة و ١١٩ خطاً من خطوط الحوافل (اومنيبوس) والتراموای وفيها ٢٥٠ عجلة اومنيبوس و ١٩٠٠ مركبة كهربائية تنقل في السنة مالا يقل عن ٣٠٠ مليون راكب وعشرة آلاف مركبة خاصة و ١٢٠٠٠ سيارة (اوتومبيل) وقد كان في فرنسا في السنة الماضية ٤٤٧٦٧ اوتومبيلاً و ٤٠٠٠٠ مركبة نقل ولا تدخل فيها الكميونات وفي باريز ١٦٠ الفاً من الدراجات و ١٠٦ مراكب نهرية تحمل نحو ٢٣ مليون راكب في السنة وسككها الحديدية المحدقة بها تحمل ٣١ مليوناً ويركب من الست محطات الكبرى فيها زهاء ٧٧ مليون راكب ومثلهم يأتون اليها

ويلزم لباريز في السنة ٢٩٢ مليون كيلو من الخبز و ١٥٩ مليون كيلو من اللحم و ٣٦ مليون كيلو من السمك و ٦٦٩ مليون بيضة و ٣١ مليون كيلو

اجماليات في عمران باريز

١٢

باريز واقعة في الدرجة ٤٩،٥٠٠٤٨ من العرض يشقها نهر السين الى قسمين غير متساويين من الشرق والجنوب الشرقي ويتخللها في وسطها عدة آكام وجبال مهدتها حتي غدت كأنها بعض اجزائها منها مايبلغ ارتفاعه ١٠١ متر ومنها ١٢٨ ومنها ١٣٦ ومنها اقل من ذلك وتبلغ مساحتها ٧٨٠٢ هكتار ومحيطها ٣٦ كيلومتراً

وطولها من الشرق الى الغرب نحو ١٢ كيلومتراً وعرضها من الشمال الى الجنوب نحو تسعة كيلومترات وطول طرقها العامة ٨٨٨٠٠٠ متر فيكون مجموع مساحتها السطحية ١٥٣٢ هكتاراً ولها ٧٠ باباً او منفذاً منها ٥٧ باباً و ٩ طرق للسكة الحديدية وطريقان لمجرى السين وطريقان لترعة سان ديني واورك وعدد سكانها بحسب الاحصاء الاخير ٢٧٦٣٣٩٣ وباريز بالنسبة لحجمها اكثر المدن ازدحاماً اذا قيست بالمدن الاوربية ومعدل الزواج فيها كل سنة ٢٥ الفاً والولادات ٦٥٠٠٠ والوفيات ٥٠٠٠٠

وتقسم من حيث امورها الادارية الى عشرين قسماً لكل واحد منها عمدة وثلاثة او خمسة مساعدون ولباريز ٢٣٤٥ زقاقاً و ٨٢ جادة كبرى و ١١٥ شارعاً و ١٦٦ ساحة و ٤٠٦ طرق غير نافذة و ٤٦٨ ممشى و ١٥٤ قرية و ٤٩ مصيفاً و ٧١ مجرى عاماً و ٤٢ رصيفاً و ٣١ جسراً و ٤٨٠٠٠ بيت وتمتد الطرق المغروسة بالاشجار وفيها ٨٧٠٠٠ شجرة على طول ٢٧٠٣٦٣ متراً وفيها ٨١٠٣ مقاعد لجلوس الناس في الطرق والشوارع والساحات والحدائق

صفائح من توتياء وجعلوها في رأس كل شارع واستعاضوا عن مصابيح الشموع القديمة بمصابيح الزيوت

ولما جاءت ثورة سنة ١٧٨٩ كثر عمران باريز اذ اعقبت تخليص الاراضي من الكنائس والبيع لتنشأ فيها الشوارع والجادات وكثرت الابنية العامة والخاصة والمعاهد العلمية والصناعية والحدائق العامة والمدارس الكبرى ولئن كان من الثورات التي حدثت بعد ولا سيما فتنة سنة ١٨٤٨ مانشأ عنه بعض الاضرار على العمران الا ان الهمم كانت اعظم للتعمير منها للتخريب وقد جاء عشرون الفاً من الالمان واحتلوا سنة ١٨٧١ بعض احياء المدينة عقيب الحرب التي فشل فيها الفرنسيس في موقعة سدان وعاد الالمان من حيث اتوا بعد ثلاثة ايام

وكان عهد عصابات الكومون بعد ذلك من اشأم ايام الخراب علَى عمران باريز فتقوض بها ٢٣٨ داراً خاصة وعامة وقتل سبعة آلاف جندي وقتل وجرح خمسمائة ضابط وقدرت الخسائر بثمانمائة وستين مليوناً من الفرنكات وكثر بعد ذلك العمران باستتباب اسباب الراحة وكان من المعارض الثلاثة التي اقامتها باريز سنة ١٨٧٨ و ١٨٨٩ و ١٩٠٠ ولا سيما المعرض الثاني الذي اقيم تذكاراً لمرور مئة سنة علَى الثورة الفرنسوية الاولى اعظم مظهر من مظاهر الصناعة عند الفرنسيس واول دليل علَى ارتقائهم التدريجي الذي لا يقف قط عن الجري

التي احتلها الانكليز من سنة ١٤٢٠ الى ١٤٣٦ وجاء طاعون جارف عَلَى الاثر اهلك الكثير من سكانها ومع هذا لاتزداد عروس الغرب الا عمرانا ٠

وفي سنة ١٥٣٣ وضع الحجر الاول في اساس دائرة المجلس البلدي الذي هو مفخر من مفاخر البناء في هذه العاصمة كما أسس قصر التويلري المشهور عَلَى ايام شارل التاسع وعادت باريز فاصبحت ميداناً لقتل من دانوا بالمذهب البرتستانتي من اهلها وانتشرت الفتن الدينية زمناً واصبح القول الفصل فيها للمتعصبين والجامدين

وفي خلال ذلك اشتد فيها القحط فاهلك من سكانها ثلاثة عشر الفاً وكثرت الفتن عَلَى الملك وقتل بعض ملوكها وبدأ عهد لويس الثالث عشر بالارتقاء المادي والعقلي فجعلت باريز سنة ١٦٢٢ مقر رئيس اساقفة وكانت اسقفية صغرى وفي سنة ١٦٢٠ انشئت مطبعة الامة وسنة ١٦٢٦ انشئت حديقة النباتات وسنة ١٦٣٥ أُسس المجمع العلمي وانشئت بعض الشوارع والساحات وغرست بالاشجار وكثرت الحارات والاحياء الجديدة واتصل العمران بالقرى المجاورة حتى تضاعفت مساحة المدينة وعَلَى عهد لويس الرابع عشر اخذوا يضيئون الشوارع بمصابيح يجعلون فيها شموعاً وذلك في الليالي الغير القمراء

ولقد نشط هذا الملك البحث في التاريخ والصناعات والعلوم بانشاء المجامع الاثرية والصناعات النفيسة والعلوم وبترخيصه للناس ان يختلفوا الى المكتبة وكانت من قبل خاصة بالملوك فقط ٠ وكان عهد الوزير كولبر المشهور عهد عمران هذه العاصمة الذي لم يسبق له نظير وزاد سكانها حتى بلغوا نحو ٥٦٠ الفاً وعلى عهد لويس الخامس عشر طبعوا اسماء الشوارع على

وكانت القرى في شمالي المدينة وجنوبها تؤسس تحت حماية الاديار وكثيراً ما كانت تخرب بايدي اشقياء من السكان او بغارات النورمانديين وفي سنتي ٨٨٥ — ٨٨٦ جاء النورمانديون وعددهم ثلاثون الفاً وعسكروا امام جزيرة المدينة وحاصروها ثلاثة عشر شهراً وبهذا الحصار افتتحت باريز ايام سعادتها واصبحت كما قالوا رأس فرنسا وقلبها ٠

وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر امتد عمران هذه القاعدة وانشئت فيها اديار وبيع ومستشفيات ومدارس واقيم لها في ايام لويس السادس عمدة ينظر في شؤونها وامور ضبطها وربطها وبدأ فيها العمران المادي ٠ وعَلَى عهد فيليب اغسطس وهو اهم دور من ادوار عمران هذه العاصمة كثرت الكنائس الكبرى وأُسست الاديار والمدارس ودور المرضى والاسواق والمجاري واحواض المياه والفساقي والمرافئ وفي سنة ١١٨٥ اخذوا يبلطون شوارع المدينة للمرة الاولى وفي سنة ١٢٠٤ انشئ قصر اللوفر وبعد ذلك جمعت مدارس باريز وكان عدد طلبتها عشرين الفاً وجعلت منها مدرسة جامعة اطلق عليه اسم الابنة الكبرى للملوك (السوربون) واخذ سكان المدينة ينمون حتى بلغ عددهم سنة ١٣٢٣ — ٢٧٥ الفاً وصرفت العناية منذ زمن شارل الخامس الى لويس الثالث عشر في تزيين مدينة باريز وتطهيرها وانشئت فيها فنادق جميلة

ولقد كانت القرون الوسطى عَلَى باريز كما كانت عَلَى فرنسا قرون مصائب واضطراب فاستباح الانكليز سنة ١٤٢٠ حمى باريز وحاولت الفتاة جان دارك على غير طائل ان تطردهم عنها فذهب سعيها عبثاً ومنذ سنة ١٤٠٨ الى ١٤٢٠ اكثر الارمنياكيون والبوركنيون من ذبح سكان باريز

عَلَى مفارقة الحياة اضعاف اضعاف ما يأسف غيرهم عليها ومن قال بان دواعي الراحة تطيل حبال الآجال يستعظم عَلَى اهل باريز لَم يعمروا اكثر من عامة الخلق وعندهم النعيم المقيم والخير العميم

تاريخ عمران باريز

١١

لعل باريز كانت في الاصل احدى تلك الضياع التي كان الغاليون ينشؤنها في جزر الانهار الكبرى ايام كان يسهل عليهم ان ينشؤا جسوراً يتخذونها مجازاً الى طرق مهمة واول ذكر ورد لها ولسكانها في التاريخ كان ٥٣ ق ٠ م فدعا القيصر ساكنيها باريزيا كما دعا المدينة لوتيتيا وضم اليها سنة ٥٣ نواب الامم الخاضعة ٠

مضى زمن لم يمتد فيه عمران المدينة خارج الجزيرة الاصلية ثم استفاض عمرانها على الشاطئ الشمالي على عهد الامبراطور كونستانس كلود الذي انشأ فيها قصراً تسمى بقاياه اليوم بقصر الترم وسكن فيه جولين لما نادى به جنده قيصراً وكانت الجزيرة محاطة بمتاريس وفيها قصر تفصل فيه الامور البلدية ومذبح عَلَى اسم جوبيتر اقامه الملاحون الذين كانوا يغدون ويروحون في تجارة نهر السين وفي سنة ٢٥٠ غدت لوتيس مركز اسقفية وعلَى ذلك العهد اطلق عليها اسم باريزي وهو اسم الشعب الذي يسكنها وكانت عاصمة بلاده

فتحت باريز ابوابها للفرنك سنة ٤٩٧ فدخل قصر الترم كلوفيس ثم ماتت القديسة جنفياف حامية باريز ووقف العمران عَلَى عهد الكارولنجيين بل تراجع فنقل الامبراطور شارلمان عاصمة ملكه الى اكس لاشبل وما كان يقيم في باريز الا نادراً وكان عهد خلفائه عهد شقاء

يد الانسان ويسعى العالم الى تعليم الجاهل في ساعة ماتعب في احضاره الايام والاعوام فمائدة الخطب والمحاضرات معروضة · ودروس الفضائل عامة موروودة ·

بعد الغروب يعمل معظم الكاتبين كتبهم والشاعرين اشعارهم والمؤلفين مؤلفاتهم والمخترعين اختراعاتهم والصانعين صناعاتهم كأن الافكار لاتنطلق من عقالها والايدي لاتحذق اعمالها الا عند ماترقد عيون البشر او كأن الزهرة ربة الجمال لاتحب ان تملي على من هم احوج الناس الى طلعتها الا من الليل ككوكب الزهرة لايبدو في مطلع الافلاك الا مع الدجى · ولذا يحرص اهل باريز ان يجعلوها بعد غروب الشمس مجمع الانس وريحانة النفس

وكأن الباريزيين وهم العارفون بتقسيم الاعمال عزّ عليهم ان تمضي ساعة في بلدهم ينقطع فيها العاملون عن اعمالهم فخصوا النهار ببعض الصناع والتجار والعملة والعاملات والليل بالمفكرين والمفكرات والمؤنسين والمؤنسات والمغنين والمغنيات والممثلين والممثلات · · · حتى لاتنقطع حركة ولا يقف دولاب عمل وكان بذلك الحظ الاوفر للغرباء فلا يدخل على الغريب ملل من تغير المشاهد ولايفتأ من الفجر الى الفجر ان احب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتنزه ·

يقول الباريزيون ان بلدهم مبارك عَلَى الغريب اكثر منه عليهم وانهم مضطرون ان يواصلوا السير بالسرى ويكدحوا الليل والنهار ولكن هذا قول من ملك شيئاً فزهد فيه والروح ترتاح الى التنقل اما الشرقي الذي يرى اهل باريز ويغبطهم عَلَى اكثر مادبروه لراحتهم ورفاهيتهم فانه يعجب لمن يساكنهم زمناً كيف ترضى نفسه ان يختار عن باريز بلداً كما يعجب لاهلها كيف لا يأسفون

والمتجرين والطالبين والعالمين والسياسيين والخاطبين وتغص دواوينها واداراتها وتلتئم مجالسها العامية والسياسية والاجتماعية ٠

ويزيد الوجوه بهجة في باريز تفنن القوم في الازياء وتغاليهم في التبرج والزينة تغالياً مهما تقدم عند غيرهم لا يزالون مصدره ومورده واساتذته وسدنته ٠ ومظاهر الازياء تتجلى في باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات وفي المركبات والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الارض وتحتها وفي دور التمثيل ومسارح اللهو والطرب ومحال الفرج والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق ويزيدها فتنة للناظرين مااعتاده الباريزيات الا من عصم ربي من ابداء زينتهن لغير المحارم اكثر من ابدائها لبعولتهن وذوي قرباهن ورنين اصواتهن في الكلام رنيناً تحسبه من مزامير داود وتستطيبه اكثر من تغريد العندليب وهناك الفتنة بعينها والفتنة اشد من القتل ونعوذ به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين

ولعل هذه المجالي في الحرية المفرطة حملت الكثير من الغرباء على نزول باريز ليشهدوا فيها مالا يشهدونه في غيرها وتربح منهم الليرات بالملايين والكرات عملاً بما قاله احد ملوك بروسيا وقد قيل له ليس من اللائق ان تضرب ضريبة على محال الاطمئنان في الشوارع فقال « الربح لا رائحة له » وارسلها مثلاً ولذلك يقول الافرنج ايضاً « الغاية تبرر الواسطة » فما دامت الغاية الكسب فلا بأس من الاحتيال لنيله ومن اجل هذا تظهر باريز بعد الغروب اقصى الفضيلة واقصى الرذيلة والناس معهما وما يختارون

بعد الغروب تعمر في باريز اندية الخطابة والمحاضرة والعلم وتلقى فيها من الفوائد ما يبلغ الاذهان عفواً صفواً ويفيض معين البيان ويبدو حذق

باريز بعد الغروب

١٠

ان فاخرت باريز بمعارضها التي اقامتها في اوقات مختلفة لتلفت اليها الانظار وتستفيد الفخار والنضار فان لها كل ليلة معارض لاتختلف عن السابقة الا في كون البقعة التي تقوم عليها هذه اوسع مجالاً واكثر جمالا ·

يصرف الباريزيون او معظمهم نهارهم في الاستعداد لليلهم وكثيرون لايعملون الا في الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم وادخار احسن ماعندهم لما بعد الشفق فهم لايجعلون الليل لباساً والنهار معاشا كما هي عادة معظم الامم بل ان الحركة عندهم تبدأُ قبيل الظهر بطيئة ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس وتطلع بدلها شموس واقمار ·

ترى المدينة في النهار عابسة مظلمة عَلَى كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة عَلَى جانبيها بالاشجار غالباً وطرقها وازقتها وساحاتها العامة وفي هذه الاماكن تشهد مجالي الحسن والاحسان وماتفننت في ابداعه العوامل وتلطفت في روائه الافكار والانامل ·

عَلَى تلك الارصفة تناجي النفس رب النجوى قائلة اللهم هل خلقت باريز من معدن اللطف والظرف لتكون مثالاً من جنة ارضية فخصصت اهلها بالاستمتاع بنعمة الجمال حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقفته عَلَى الباريزيات وشطر وزعته على سائر بنات حواء ·

ان امتاز الفرنسيس بالابداع في الصناعات فقد امتازوا ايضاً بنضرة الوجوه · والى باريز تحمل هذه الامة ولا سيما في فصل الشتاء افضل ماعندها من مجالي الكمال والجمال ايام تكون ام هذه القرى مقصد السائحين

سلام عليك يابلد ديكارت و كونت وروسووفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو وهوغو وباسكال ورنان ومئات اضرابهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك فلم تنس افضالهم عليك بعد مماتهم ·

انت ان خجلت من ذكرى الحروب الصليبية وديوان التفتيش الديني ومذبحة القديس برتلماوس ومقتل الفيلسوف فيفاني وجنون نابوليون وغير ذلك من الاعمال البربرية في عصور الظلمة فان سكانك يفاخرون وحق لهم الفخر بانهم احفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الاعمال المشكورة في عصور النور ماينسي الماضي الاقله · ان الحسنات يذهبن السيئات ·

السلام عليك باريز اجمل عواصم العالم واغنى البلاد ببدائعها الطبيعية والصناعية واجمعها لمرافق الراحة والرفاهية · لست انت اليوم عاصمة مئة مليون من البشر اربعون في ارضك وستون في المستعمرات بل انت بما فيك من المزايا عاصمة معظم الخافقين لاسباب هنائك وصفائك ونعيمك ونعمائك وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق وسلامة الابداع ووفرة العلماء والباحثين والكاتبين والشاعرين والقصصيين · فكل شيء في باريز مبذول حتي لتعافه النفوس من اقصى مايتصور الفكر من الفضيلة الى آخر مايجول في خاطر او يحوم حوله خيال

فباريز ولا مراء جنة ارضية جمع فيها موجدوها — استغفر الله — ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر علَى قلب بشر

استمد منها النور فان قلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الاقرب انا نأخذ عن المدنية الغربية فانما نعني المدنية الفرنسوية وبعبارة اصح المدنية التي تنبعث اشعتها من باريز ومن طريقها وبلغتها واسلوبها تيسر لنا ان نستطلع طلع سائر مدنيات الارض ·

سلام عليك علمت وعلمت فما احسن العلم والعمل اذا اجتمعا · وما احلى الاخلاص والشعور بالواجب ·

سلام عليك سننت للغرب سنة التضامن والتكافل · والعطف على البائسين والمساكين · والرفق بالضعفاء والعاجزين · والاخذ بايدي المقهورين والعاثرين · والانتصار للمظلومين من الآدميين خصوصاً اذا كانوا من طينة اوربية

سلام عليك انت العاصمة التي تركت القصور الفخيمة التي عمرت بدماء الامة مباحة للناس يدخلونها وكانت بؤرة المظالم والمغارم · ومنبعث الشهوات والاهواء · ولطالما جأرت جوانبها بالدعاء الى السماء من حيف الكبراء ايام كان يوقع احد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعاً واحداً يترك من الغد مئة الف اسرة في هذه البلاد تبيت جائعة عريانة ليعمر بما يجمع قصراً له او يدفعه لمحبوبته صبرة واحدة فلما اضناك الظلم والعنت قمت تجعلين من تلك القصور الفاسقة متاحف عامة ومن دور الظلم والظلمات مجالس عدل وعلم ونور ·

سلام عليك خلدت اعمال من خلفوا لك هذه المدنية واقمت تماثيلهم ونصبهم موقع الاحترام والاعظام وتوفرت على تكرير اسمائهم على المسامع كل يوم الوف الالوف من المرات لتجعليهم مهمازاً لمن يأتي بعدهم من الابناء والاحفاد ·

ابطال القرون الوسطى · ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها · ولم تعلقي مسائلك عَلَى القضاء والقدر بل اخذت بالاسباب والمسببات فقتلت من اراد قتلك · ووضعت من لم يهمه رفعك · وكنت للناهضين من الناس خير مثال ·

سلام عليك يامعهد المعارف والصناعات بما انشأتيه من مجامعك العلمية ومدارسك الجامعة والكلية · ومجالسك العامية والخاصية · وجمعياتك ونقاباتك لخدمة المدنية والانسانية · ودور تمثيلك ومعاهدانسك وسماعك · ومتاحفك وحدائقك ومكاتبك ومعارضك · وكل ماابدعته افكار ابنائك وايديهم ودل على مجد طريف وتالد وتاريخ عَلَى جبين الدهر خالد

سلام عليك ياماقنة الخلق معنى الاخاء والحرية والمساواة ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع حتي لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات بين المختلفين في الموالد والديانات وقطعت التفاضل الا بالاعمال الصالحة والاحلام الراجحة ·

سلام عليك يامتشبعة بافكار الحكماء ارتضيتيهامنهم قانوناً تجرين عليه لسعادتك ولئن حاد بعض ابنائك بعض الشيء عنها فذلك لان سياسة المنافع والمصالح قد تخالف ناموس الحق والعمل الصالح ولان نظام بقاء الانسب لا قلب له والتنازع في جهاد الحياة كثيراً مايدعو الانسان الى ركوب ماتحظره الشرائع الوضعية والسماوية ولا سيما في هذه العصور التي يفصل فيها كل عمل على قالب الماديات وما ذلك الا ليقر البشر بعجزهم ويعلموا ان الكمال الآن محال ولعله لايفوتهم في مستقبل القرون والاجيال ·

السلام عَلَى هذه العاصمة التي احسنت الى الشرق فيما مضى فعلمته حتي

الى اقصى بادية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سوريةوهي في مساحتها نحو مساحة فرنسا كلها من حيث عمرانهـا ارقى مدن المعمور ولكن الرزق لايأتي بالتمني والوجود لاينتفع به الا من يحسنـون استخدام مافيـه من القوى والعناصر ·

تحية باريز

٩

سلام عليك مرضعـة الحكمـة · وربيبـة الرخاء والنعمـة · وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية · ومحيية المدنية الاصـلية في الاقطـار الغربية والشرقية · ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين · والضرب عَلى ايدي الروساء والنبلاء والمالكين · انت هذبت طبائع البشر حتي غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل · انت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بل تأليهه فقضيت بالتقدم له عَلى كل شيء في الوجود · وبالغت في اكرام رجال العقول من ابنائك ·

سلام عليك ياعشيقة الابداع والاختراع · وسابقة الاقران في مضمار الانتفاع بماحوت الرباع والبقاع · استخدمت القوى المادية فاجدت استخدامها · واستثمرت القوى العقلية فابدعت في استثمارها · واحييت حضارات الامم السالفة · وانشأت لك حضارات لايزال يحسدك عليها اسبق الشعوب الى الترقي مهماتقلبت بك الحال · ويجدون في اوضاعك ماليس يجدونه في اوضاعهم من المرونة والجمال ·

سلام عليك ياواضعة حقوق الانسان · وملقحة الاذهان بالتناغي بحب الاوطان · والداعية الى ثل عروش الجبارين والمخربين · انت لم ترهبك تقاليد

على اولاده · وكانت مصر تعتمد في تنشئة اولادها من قبل علَى كليات الولايات الفرنسوية ولاسيما كلية مونبليه وذلك على عهد الخديوي اسماعيل لانه كان يعتقد ان اهل مونبليه اقل معاداة للملوك وابعد الفرنساويين عن التطرف ·

قضيت في ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقي محمد لطفي افندي جمعة الكاتب الخطيب الغيور فرأيت فيها غاية الرقي الأجتماعي والتكافل الانساني والذوق الفرنسوي وفي مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيس لما يشهده السائح فيها من السكون والانقطاع الى لاعمال الشريفة فلا يسفون كاكثر سكان العواصم في الاغلب للمكاسب الدنيئة او يرضون بان يكونوا عالة علَى الحكومة يأخذون رزقهم من خزانتها بالتوظف والاستخدام

و ياما ابهج ساحة بللكور (الفناء الجميل) يوم الاحد والرجال والنساء والاولاد غادون رائحون فيها لاتقرأ في وجوههم غير الادب ولا في حركاتهم الا التربية البيتية العالية والتشبع بالنظام المدني المعقول حتى اذا جن الليل يختلف القوم الى دور التمثيل واماكن اللهو والطرب وسماع الخطب والمحاضرات وهكذا ليلهم كنهارهم عمل وراحة واستفادة وافادة اخذوا بحظ وافر من دنياهم ولم ينسوا تعهد آدابهم · فليون بلد طيب امين يسكنه المهذبون العاملون ·

ولقد كنت كلما وقع نظري في ليون علَى شارع عظيم او بناء جسيم تحدثني النفس بسورية فاقول متى ياترى يكون فيها مثل مافي ليون علَى الاقل ولو ان عمران ليون وحدها وهي احدى مدن فرنسا وما فيها من قوة مادية وادبية وزعت علَى سورية من عريش مصر الى الفرات ومن البحر المتوسط

لئن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصنوعاتها بسرعة فان البخار البري عوض عليها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية ففي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية ١٤٠ قطاراً جائية ذاهبة من انحاء شتى ولاسيما من الشمال الى الجنوب · والمسافة بين باريز ومرسيليا ٨٥٠ كيلومتراً ليس فيها شبر واحد لا اثر للعمران فيه يقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة · وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسيليا ثغرها والحكومة اليوم شارعة بمد خط حديدي ثالث لتسيير القطارات لان الخطين الموجودين لا يتأتى ان يجري عليهما في كل بضع دقائق اكثر من قطار واحد مخافة ان يحدث اصطدام بين القطارات وسيكلف الخط الجديد بين باريز ومرسيليا مئات الملايين من الفرنكات وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بضاعة وتأخذ كل جهة حظها من العمران ·

لم تقف ليون عند حد الاعمال الصناعية والتجارية والمالية بان كانت هي التي أسست مصرف الكريدي ليونيه مثلاً من اعظم مصارف العالم · بل لها حظ كبير من النهضة العلمية واثر راسخ في الحضارة الفرنسوية وناهيك بكليتها التي تحوي فروع العلم ولاسيما الطبيعي والحقوق والطب والتجارة يختلف اليها ٢٥٠٠ طالب منهم الاجانب وفيهم نحو خمسين مصرياً اكثرهم يدرسون الحقوق وقليل منهم الطب واقل في التجارة والمصريون حديث عهدهم بنزول ليون للتخرج في كليتها وقد كثر ورودهم عليها بعد ان ترك المسيو لامبر احد اساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبه فعينته حكومته في كلية ليون استاذاً فكان من اثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له ان جذب عشرات منهم للتعلم في كليتها وهو يشرف عليهم اشراف الاب

الا الى جانب القصور · نعم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل وشاهد مدنية فرنسا فقط لحوقل واسترجع وقال هذه حضارة ليس لنا في وصفها مطمع ولو اتى المسعودي بقلمه وعلمه لعجز عن الوصف والتسطير ولو جيء بابن بطوطة لآب من رحلته الطويلة لايحسن املاء ما رأى وسمع ولو قام ابن جبير لاعترف بقصور ذرعه وعدم نفاذ طبعه وقال ان هذا الا حلم وخيال ونحن لانسجل في رحلتنا الا ماتقع علينا ابصارنا ويترامى الي آذاننا وتمسه ايدينا ·

وبعد فما ذا يصف القلم في ليون أَجمالها الطبيعي ام الصناعي · معاملها الحريرية ام مدارسها وكليتها ام انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها ام غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها ومخازنها وحوانيتها وتماثيلها وانصابها وخطوطها الحديدية والكهربائية وجسورها الحديدية والحجرية وارصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها ونهريها العظيمين الرون والسون اللذين يقطعانها شطرين ويزيدان في بهجتها ما تقر به العين

ماذا نذكر من ليون ثاني مدينة في فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية في كونها عاصمة دين كما هي عاصمة صناعة وعمل · وعَلى جسر ليون مر الصليبيون في القرون الوسطى ذاهبين الى المشرق لانقاذ البيت المقدس من ايدي المسلمين · نعم ماذا نعدد من ليون وبدائع صنع الانسان فيها وما ضمت من معاهد قديمة وحديثة ومشاهد بهيجة ويالله ما اعجب معرض نموذج الانسجة الذي حوى اربعمائة الف نموذج ليس لها نظير في العالم وعرضت عَلى انظار اهل البلاد والسائحين ينتفعون بالنظر اليها ويستدلون بها عَلى تفنن يد الانسان في كسوة الابدان ·

الماتين والايكودي باري كما يطبع البتي باريزيان (الباريزي الصغير) الذي يصدر في باريز مليوناً ومائتي الف نسخة في اليوم والثاني اكثر جرائد فرنسا انتشاراً · فكأن لهذه الاسماء الصغيرة من حسن التوفيق ما لا يخالف الاعمال التي تبدأ بالالقاب الضخمة والاسماء الفخيمة ·

زرت ادارة البتي مارسيليه فرأيت النظام مستحكماً في كل مايتعلق بها وهي اليوم في السنة الثالثة والاربعين من عمرها واقدم منها بل اقدم جرائد مرسيليا « السيمافوردي مارسيل » انشئت سنة ١٨٢٧ وهي من الجرائد الجدية المعتبرة الا انها اقل انتشاراً · وهذه الجريدة تباع في مقاطعة الرون وما اليها مثلاً فلو فرضنا ان مايطبع من جرائد مرسيليا ومجلاتها يبلغ كل يوم مليوني نسخة لاصاب كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف على اقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التي ترد على مرسيليا وتباع في شوارعها بالالوف ايضاً ·

ومن الاسف العظيم اننا لو احصينا عدد مايصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والايرانية لا يبلغ بكميته قدر ماتطبع كل يوم جريدة البتي مارسيليه احدى جرائد ولايات فرنسا · وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيس وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولا سيما في الامور العقلية



ليون

٨

ماذا يصف القلم من مدنية الفرنسيس وكل فرع من فروعها المدهشة لو تعاورته الاقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت

العيون وشقرة الشعور ·

والى اليوم يكثر في مرسيليا الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٥٠ الفاً من السكان خمسهم من الطليان وبيدهم كثير من الصناعات والمعامل وهم عشر الاجانب في فرنسا وكان في مقاطعة مرسيليا سنة ١٩٠٦ : ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٢٣٥٠٠ اجانب وفيها ٧١٨ مدرسة وفي مقاطعتها ٧١٧ كيلومتراً من الخطوط الحديدية و ١٦٣ كيلومتراً من الترام و ٢٨٤ من الطرق الاهلية و ٣٦٨٣ كيلومتراً من طرق العجلات الموصلة بين اقاليمها

واهم صناعاتها عمل الاقمشة وتحضير الاطعمة والمأكولات وصنع القرميد خل عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لاتختلف في الرقي عن زراعة عامة البلاد الفرنسوية وفيها دور صناعة للاساطيل والبواخر التجارية ولاسيما دار صناعة الميساجري ماريتيم

قال من كتبوا عن مرسيليا من المؤرخين ان تاريخها من اقدم التواريخ وهي اول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد انشائها الى القرن السادس قبل المسيح وفي مقاطعتها اليوم ٤٩ الف منزل منقسمة بين الفي شارع وطريق ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة الملكية الثانية ومن احسن متنزهاتها الكورنيش الذي انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التي دخلت مرفأها البالغ سطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧ — ١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ الفاً وقدروا مايدخل اليها ويخرج منها في اليوم بسبعة واربعين باخرة وبارجة وناهيك به من عدد ·

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجلة · وجريدة البتي مارسيليه (المرسيلي الصغير) اوسعها انتشاراً تطبع ١٨٠ الفاً كل يوم وهو في حجم

مايشاء ويختار ·

وبعد فلم يتسع لي الوقت لادرس جميع معالم المدنية في مرسيليا لاني لم اصرف فيها الا ثلاثة ايام قضيت اكثرها في الراحة من وعثاء السفر الذي طال علينا احدى عشرة ساعة زيادة عَلَى المعتاد لماصادفته الباخرة في طريقها من الانواء ولطارىء طرأ عَلَى آلتها في عرض البحر فاصلحتها ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الاسكندرية ومرسيليا في خمسة ايام بلياليها لاتقف قرب اليابسة · ومن البواخر الانكليزية مايقطع المسافة بين بورسعيد ومرسيليا في اربعة ايام وهذه البواخر خاصة بالبريد الانكليزي تنقله من اوستراليا والهند الى الجزائر البريطانية في خمسة وثلاثين يوماً لاتكاد تستريح في طريقها الا بقدرماتحمل زاداً ووقوداً وركاباً والمسافة المعتادة بين اوستراليا وانكلترا لاتجتازها الشركات المعتادة في اقل من سبعين يوماً ·

قامت مرسيليا في منقطع وادي الرون الجميل فكانت جملة الجمال الفرنسوي بما فيها من الجبال والسهول وما احرزته من مجد قديم وغنى حديث وان محيطها الذي لاتقل مساحته عن مئة كيلومتر مربع لاحلى من العافية في بدن السقيم او النضارة في خدود الجواري — كما يقول بديع الزمان — استغفر الله بل كاد يكون اجمل من الحور الذي تقرأوه في عيون المرسيليات الدعج · ولعل جمال العيون في النساء هنا التي فاقت عيون البدويات الرعابيب انتقلت اليهن من اجدادهن العرب فقد قال ميشله المؤرخ ان اصل سكان مضايق الرون مختلط كثيراً ففيه العنصر السلتي واليوناني والعربي وخليط من الطليان والغالب ان سكان جنوبي اوربا يوصف نساؤهم بدعج العيون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقة

بواخرها بحيث يطوفون العالم ويجتازون من نصف الكرة الغربية الى النصف الشرقي والاجرة في ذلك معتدلة فيسلك الراكب ان احب احد الطرق التي يجتازها في قطع البحور والبرور فالطريق الاولى عن مواني الصين واليابان وكندا ماراً بفانكوفر وهو يكلف في الدرجة الاولى ٣٢٨٨ فرنكاً والطريق الثانية اوستراليا وفانكوفر ويكلف في الدرجة الاولى ايضاً ٣٥٧٥ والطريق الثالثة الى اوستراليا فمضيق توريس فاليابان ففانكوفر واجرتها ٤٢٥٧ في الدرجة الاولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الخامسة الى اوستراليا ومضيق توريس واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٤٢٥٧ فرنكا في الاولى فيركب الراكب من مرسيليا الى هونغ كونغ عَلَى بواخر شركة الميساجري عن طريق السويس وجيبوتي اوعدن و كولومبو وسنغافور وسايغون ومن هونغ كونغ الى شنغاي الى كوبي فيوكوهاما عَلَى بواخر الشركة او عَلَى بواخر شركة الباسيفيك الكنادية بحسب مايختار الراكب ومن يوكوهاما الى فانكوفر على بواخر الشركة الكنادية ومن هنا يركب القطار الى كيبك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون او نيويورك ومن نيويورك الى ليفربول او سومتون عَلَى احدى البواخر الانكليزية او الاميركية او النمسوية او من نيويورك الى الهافر عَلَى بواخر التراسلانتيك ومن الهافر بالسكة الحديدية الى باريز ٠

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الارض ولو قال قائل هذا لاحد اجدادنا الاقدمين وقال له انني اريد السير للنزهة عَلَى هذه الخطة لنسب اليه الجنون وقال ان ذلك لن يكون ولكن اذا عرف سر الاسفار في هذه الاعصار يقول سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار يفعل

تجارة تصدر من بلادنا وترد اليها ولتعذر التنقل الا في السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمير او في المركبات وبعض القطارات القليلة التي تربط اجزاء مملكتنا بعضها ببعض

ولشركة الميساجري ايضاً اثنتان وعشرون باخرة تمخر العباب الى الهند الصينية وتوابعها وخمس بواخر لخط الكوشنشين وست بواخر لخط اوستراليا وخلكيدونيا الجديدة وخمس بواخر في المحيط الاطلانطيكي (الظلمات) وسبع اختصت بالبحر المحيط الهندي وذلك ماعدا السفن الصغرى التي جعلتها في بعض الموانى الكبرى · واشغال الشركة متوسطة مع ان حكومة فرنسا تدفع اليها اعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق والغرب وخدمة الجمهورية فيما يلزمها ·

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب ان البواخر الالمانية والانكليزية والطليانية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسوية وان الراكب يجد راحته في تلك اكثر من هذه مع ان الاجور واحدة ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها الى تخفيض الاجور في الصيف الى نحو النصف لركاب الدرجة الاولى والثانية والثالثة واخذت تحسم خمسين في المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان القيمة المقررة فاذا كانوا اربعة فاكثر تحسم للرابع فما بعده خمسة وسبعين في المئة ولذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال اجوره ·

ومن التسهيلات التي قامت بها هذه الشركة ان اتفقت مع شركات البواخر الانكليزية والاميركية وشركات السكك الحديدية على ان تنقل الركاب الى الموانى التي تختلف اليها بواخرها وتلك الشركات تنقلهم على

مرسيليا



في الساعة الرابعة بعد الظهر اقلعت بنا من الاسكندرية الباخرة ايكواتور (خط الاستواء) احدى بواخر شركة الميساجري ماريتيم الفرنسوية فبلغنا ثغر مرسيليا اكبر مواني فرنسا عَلَى البحر المتوسط والمحيط والمانش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر ولم نر في طريقنا شيئاً يستحق الذكر سوى بعض سواحل ايطاليا وفرنسا وقد تجلت عن بعد وكان نظرنا يختلف اليها بقدر بعدنا او قربنا منها ودام البحر رهواً حتي اذا خرجنا من مضيق مسينا اصبحنا واصبحت سفينتنا على كبرها وطولها وعرضها العوبة العواصف والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب في درجات السفينة الاربع الا وقد اخذه الدوار او كاد ولم نملك حواسنا الا عند بلوغنا ساحل السلامة

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصاناً ومحمولها ٣٨٤٨ طناً وتقطع في الساعة اثني عشر ميلاً وهي احدى بواخر الشركة التي تغدو وتروح بين مواني البحر الابيض والبحر الاسود والبحر الاحمر وبحر الادرياتيك ولهذه الشركة التي جعلت رأس مالها خمسة واربعين مليون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الاولين في الاغلب · ومن موانينا التي تقف عليها بواخر الميساجري ماريتيم خانيا وسلانيك والاستانة وجناق قلعة وازمير ومدانيا وفاتي ولارنكا ومرسين والاسكندرونة واللاذقية وطرابلس الشام وبيروت ويافا وحيفا ورودس والاسكندرية وطرابلس الغرب وصمصون وطربزون وبورسعيد والسويس ولولا امثال هذه البواخر الفرنسوية والنمسوية والروسية والايطالية والانكليزية والالمانية والرومانية لما بقيت لنا

حتى لاتخرج املاكها بطيش الطائشين من ابنائها الى ايدي الغريب فيعود المصري بعد بضع سنين والعياذ بالله كالغريب في بلده وما اصعبها من حالة

ان مسألة الراية التي تخفق علَى امة لاتهم بقدر ما تهم في الحقيقة مسألة الاملاك اذ انه مهما بلغ من حيف امة فاتحة او مستعمرة لاتحدثها نفسها ان تنزع من المالك ملكه الا برضاه · ومصر التي تتأذى اليوم بوطأة الرومي والطلياني والانكليزي وغيره لاتنتقل بعض املاكها منها الا برضى اولئك الوارثين والمسرفين الذين لايعرفون دخلهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم هذه هي الفئة الضالة المضلة في هذا القطر المحبوب ومنها يخشى علَى مستقبله· فبقلة عقول المستهترين اصبحت نحو تسعة اعشار الاطيان والاملاك في مصر للغرباء وعليها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون منها نحو مئة مليون دين الحكومة ولا نعرف متى توفيه والباقي علَى عنق الفلاح الصغير والمزارع الكبير ·

ان مانخشاه علَى مصر هو الاسراف الزائد وتقليد الغربي على العمياء ولو كان لاهل وادي النيل شيء من الامساك المحمود والاقتصاد المعقول اذاً لكانت حال مصر السعيدة ارقى مما هي اليوم · ومن حاز الثروة وقانون الحكمة يدبرها والحنكة قائدها ورائدها وانتظر الفرص التي لايزال الدهر يخبأوها للافراد كما لايبخل بها علَى الامم لابد ان يتمتع يوماً بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل امة حية في هذا الوجود

اليوم طبقات رجال مصر الحديثة ولا بد لهذا الامر من آخر ولمساعيهم الحسنة من نتيجة اذا سلك القوم سبيل التؤدة وطبقوا اعمالهم عَلَى قانون العقل الصحيح واستفادوا بتجارب الامم السالفة وانصاع العامة للخاصة ولم يبق المجال للغوغاء وحدهم وبذلك تصبح اسباب القوة المادية والمعنوية في بلادهم على مستوى ماهي عليه عند الامم الحية حقيقة لا مجازاً

لاجرم ان المصريين بما فيهم من الذكاء وماورثوه من حضارتهم القديمة وتيسر لهم من الرقي المادي هم بمجموعهم ارقى من مجموع الشرقيين خلّ عنك اليابانيين وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العالمين والباحثين من ليسوا دون ابناء طبقتهم في الغرب وربما فاق الاتراك المصريين في الامور السياسية والحربية .

ولا يعاب على مصر الا فتور همة ابنائها في منتصف الطريق في الاغلب وهذا الخلق يكاد يكون عاماً في القطر لا يقوى في التغلب عليه الا التربية العملية . وحبذا يوم نرى فيه مصر تقبل عَلَى تعلم العلوم الطبيعية والكيمياء والميكانيك والمعادن مثلاً اقبالها عَلَى تعلم الحقوق مثلاً فقد نرى من ناشئتهم زهاء خمسمائة طالب في كليات اوربا واميركا والقسم الاعظم منهم يدرسون الحقوق ليترشحوا منها الى الوظائف لانه وقر في النفوس ان فن المحاماة اكثر عائدة عَلَى صاحبه من غيره من الفنون خصوصاً وهو متوقف بعد العلم النظري على طلاقة لسان وفضل بيان والمصريون اكثر العرب حظاً من تينك المزيتين .

اصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من اوربا كما قال الخديوي اسماعيل ولكن احبابها يريدون لها ان تكون كاوربا في صفاتها العالية وحضارتها الراقية

فهل نسيتم ماضيكم ايام كنتم تساقون الى السخرة سوقاً وتستعبدون استعباد العبيد والارقاء ايام الحكومات الماضية المدمرة فاحمدوا الله على ان انجاكم مما كنتم فيه فحالكم الآن احسن من ماضيكم مئة مرة فعليكم ان تقنعوا بما حزتموه ·

ولكن نبهاء مصر لم يفتهم معنى هذه السياسة وكان الفضل الاكبر للجرائد في تنبيه شعور الامة المصرية الى ان وراء ماهم متمتعون به الآن مطلباً اسمى وانفع فقاموا يسعون اليه سعيهم وهم على اختلاف في الطرق الموصلة اليه لايختلفون في كون بلوغه لايتأتى الا من طريق التعليم والتربية

فبذل اهل الاقتدار المالي ماسمحت به نفوسهم من انشاء الكتاتيب في الارياف والمدن حتى اسفرت النتيجة بعد بضع سنين عن تكثير سواد القارئين والكاتبين ثم رأوا ان الامة لاترقى الا اذا كان فيها افراد يحسنون تعليم الامة بلغتها مايلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية فسعوا الى اقناع الحكومة بجعل التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية باللغة العربية وكان اكثره بالانكليزية من قبل ثم رأوا انه اذا لم يكن لهم من ابنائهم من يعلم العلم العالي سبب ارتقاء الامم لايكون العلم الا عقيماً ناقصاً فانشأوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية وهم اليوم ينظمونها لتكون بعد سنين على مثال الجامعات الاوربية تدرس علوم الجامعات الافرنجية باللغة العربية وهي اول جامعة من هذا النوع لامة لايقل الناطقون بها عن ستين مليوناً من البشر

نعم ان الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الاصلاح على الازهر ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة الهندسة والزراعة وسائر المدارس الاميرية والخصوصية هي التي تتألف منها

دخلت انكلترا مصر لاطفاء الفتنة اولاً ثم للمحافظة على ترعة السويس التي اصبحت اكثر اسهمها لجماعة من ابنائها · والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الاقرب ومادة حياة دولة البحار · ومن حافظ علي سلامته ومادة حياته يعذر

ولقد كان ميدان الاصلاح فسيحاً امام المحتلين لتوفر الاسباب الطبيعية لمصر وان بلاداً لا ينقطع ماؤها ولا تغيب شمسها ولا تتعب تربتها ولا تتعاصى على الانسان طبيعتها لأقرب البلاد الى معالجة الاصلاح في مجاهلها ومعالمها ·

ولما استتب الامن في انحاء القطر اقبل ارباب الاموال من الغربيين وغيرهم يتجرون ويزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية فكانت تلك الحركة نافعة في نهضة القطر الاخيرة نهضة اقتصادية كبرى حسدتها عليها بلاد كثيرة ·

تهيأ لمصر والحق يقال من رجال الاحتلال اناس عملوا باخلاص لتحسين زراعتها وريها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معاً · وكان عميدهم الاكبر لورد كرومر الذي ادار دفة السياسة المصرية اربعاً وعشرين سنة ارخى في خلالها عنان الحرية الفكرية والاجتماعية فهاجر الى مصر كثيرون من المشارقة · عمل هذا وغيره من الاعمال النافعة ولكنه كان يحاول ان يقف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القليلة التي لا تسمح الحال الا باعطائها للمصريين وماعدا ذلك من الارتقاء العقلي والسياسي فقد كان اللورد يقول لهم كل سنة تصريحاً وتلويحاً في تقاريره السنوية انكم لا استعداد لكم معاشر المصريين لغير ذلك من الاعمال

زمن طويل على مدينة الاسكندرية ايام الروم كانت تفيض العلم النافع على العالم اجمع بمدرستها كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة ايام الخلفاء وكما تفيض كليات اوربا واميركا على آسيا وافريقية اليوم

اتى على مصر دور انحطاط بعد دولة الفاطميين اشتغلت فيه بنفسها وكان حظها من المعارف حظ سائر بلاد الاسلام وان كانت لها الميزة ابداً في هذا الباب على الاقطار المجاورة فقد كانت على عهد الايوبيين والجراكسة والمماليك على انحطاطها مورداً تستقي منه البلاد الاخرى وكانت العلوم الاسلامية والادبية خاصة مما يحمل من ازهرها الى شمالي افريقية وداخليتها وبلاد العرب والترك وسورية وغيرها · ولما جاء نابوليون الاول ثم محمد علي الكبير دخلت فيها بواسطة علماء من الفرنسيس روح الحضارة الغربية واسلوب التعاليم الاوربية واخذت حكومتها ترسل بالبعثات العلمية بل بالبعوث السلمية الى اوربا ليدرس النشء في كلياتها ثم يعودوا الى مصرهم فينفعوها بما علمهم الله والبشر الراقي

وما برحت هذه الارساليات تكثر ومصر الحديثة تتكون على المناحي الغربية حتى جاء الخديوي اسماعيل واسرف في مالها اسراف جنون وجهل حتى اضطرت الى الاستدانة من الماليين الاوربيين واكثرهم انكليز وفرنسيس ولما حدثت الفتنة العرابية وجدت انكلترا مدخلاً لها بحجة ان ارباب الاموال يوجسون خيفة على اموالهم ورأت من فرنسا غفلة او تغافلاً فعملت وحدها على اطفاء الفتنة فصدقت عليها كلمة نابوليون في قوله وقد اخرجته انكلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين في القرن الماضي انها لم تخرجنا منها الا لتأخذها لنفسها في المستقبل·

حالة مصر

٦

هبطت مصر وعهدي بها ليس ببعيد غبت عنها اربعة عشر شهراً و كنت صرفت فيها اربع سنين ايام الحكم الاستبدادي في المملكة العثمانية فلم ارَ اليوم وانا عابر سبيل ان امكث فيها اقل من اربعة عشر يوماً قضيتها في مشاهدة من خلفتهم فيها من الاصدقاء الكثيرين · والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الافرنجية حوت ما في العواصم من ضروب الرقي والانحطاط مما تنفقه علَى غيرها طوعاً او كرهاً ويأتي الناس من القاصية فيأخذونه عنها و يهتمون بتقليده وتأييده

ان من ينظر الى مصر نظراً سطحياً يأسف لها كثيراً ويعدها كنزاً ضائعاً ودماً ضيعه اهله · ومن يمعن النظر في مواردها ومصادرها و يدرس مساعيها ومقاصدها و يقيس النتائج بالمقدمات والماضي بما هو آت يدرك ان المستقبل المخبوء لمصر في حياتها الاجتماعية والسياسية لا يقل عما احرزته في حاضرها من المنافع المادية والادبية اذا ظلت عناية اهلها متوفرة علَى التعليم والتربية وهم يتفننون سنة عن اخرى في تلقف ما ينفعهم من انواع المعارف لقيام بناء مجدهم الجديد على احسن نظام

ليس في اقطار الشرق ولا في اقطار الغرب بلد عرف تاريخه كما عرف تاريخ مصر ولا بلد مثله ابقى علَى آثاره الخالدة واحتفظ بتراثه القديم فنفع العلم والعالم بما ادخره ·

فقد قال لنا التاريخ ان عهد بعض سلائل فراعنتها كان عهد ارتقاء ومدنية وان مدنيتهم لا تقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية فكانت دولة فاتحة غازية مستعمرة كما كانت دولة فاضلة متحضرة وانه جاء

المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر الف نسمة اكثرهم من المصريين فلو فرضنا ان الواحد ينفق عشر ليرات لكان بذلك مبلغ لا يقل عن مئة وخمسين الف ليرة فما الحال لو زاد هذا العدد ونحن نرى ان سويسرا وايطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة مالا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة واذا زادت عناية حكومة لبنان واهله بالمصطافين في قمم لبنان لا يعتم ان يجلب اليه اناساً من المصطافين من اهل اوربا نفسها خصوصاً اذا رأى السياح ان النفقة في الجبل أقل مما في جبال الالب وانها لا تبلغ مع اجور النقل في البحر والبر المبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف·

وبعد فانا لا انفتأ نكرر القول بان من الانفع لابن لبنان ان يوجه بعد الآن وجهته الى الداخلية ليعتاش ويرتاش وانه اذا استفاد المهاجر منا الى اميركا من حيث ارتقاؤهم في اقتباس بعض اصول التمدن في الملبس والمأكل والمسكن فان الانفع له اليوم ان يستعمر بلاده نفسها وهي تحتاج الى اضعاف اضعافهم · وسوف يعلمون ان هذه النصيحة صادرة عن اخلاص لا يراد منها الا نفع لبنان خاصة وسورية عامة فان ما يقاسيه اللبناني من الم الغربة والمهانة في الاحايين واحتقار الغربي له مهما بلغ من مكانته جدير بان لا ينسيه بلاده والعيش بين اهله وجيرته· وقدر احد العارفين منذ ثلاث سنين ان ما حمله اللبنانيون المهاجرون الى لبنان يبلغ خمسمائة الف ليرة اي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا ان هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل مافقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والادبية

يستطيعون في استعمارها ان يقضوا معظم ايام السنة في جبلهم ·

وقد كتب قائمقام سروج من اعمال حلب منذمدة في جريدة المقتبس يقول ان خمسين قرية في قضائه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش فلو اشتراها بعض ارباب الاموال من اللبنانيين وانفقوا عليها النفقات التي ترقي زراعتها وغرسوا فيها الاشجار واقاموا البيوت لما اتت ثلاثون سنة الا وهذا القضاء وحده من اعمر البقاع السورية فما بالك بما في غيره من الاقضية والالوية والولايات العثمانية من الخيرات ·

لانوافق القائلين بالاغتناء بسرعة فان ما يأتي بدون عناء كبير قد يذهب في الاكثر كما جاء · وانا لنؤثر ان يوجه اللبنانيون ولا سيما في عهد الدستور السعيد وجوههم قبل البلاد الداخلية من سورية والعراق والاناضول ففيها متسع لهم وفيها لهم مغانم كثيرة لو صبروا على جنيها لكان لهم ولابنائهم واحفادهم منها مال خالد وملك لا يكاد يبلى

وفي لبنان من الصناعات القديمة ما يرتقي لو سعوا الى تحسينه كعمل الاقمشة والنجارة والحدادة (١) وغيرها وله مورد آخر للربح ينتفع منه الآن اكثر من سائر جبال سورية ونعني به موسم المصطافين فان لبنان من سورية ومصر كسويسرا من اوربا واميركا يقصده الكثيرون كل سنة التماساً لصحة والراحة فلو عني اللبنانيون اكثر مما يعنون براحة من ينزلون عليهم لاتاهم الصيف في كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة فقد حسب بعضهم عدد

(١) في قرية بيت شباب من مديرية القاطع تصنع اجراس الكنائس وهذه الصناعة لا تعرف في بلاد العرب ولا في مصر وقد دخلت اليها في الغالب على عهد الصليبيين وكان المسيحيون من قبل في بلادنا يستعملون النواقيس من الخشب وما زالت هذه الصناعة محصورة في عائلة واحدة من عمال تلك القرية ·

نافعة تصدق على كل لبناني المهاجر فاذا احب كل فرد من المهاجرين ان يقلد الاعيان في عيشه ورفاهيته فمن يبقى لتعهد التوت والزيتون وغرس الصنوبر والارز والسنديان والزان وحفر الاقنية والاحواض وتمهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الاقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وانواع الزينة ·

ولقد قال الاقتصاديون ان من جملة ماساعد المانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية انك تجد في رجالها انواع العاملين ولا يستنكف كل عامل من عمله بل ولا يريد ان يعرف الا به فالالمان اشبه بجيش منظم فيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم وكل واحد منصرف الى عمله لاتحدثه نفسه ان يقلد رفيقه او يعتدي عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه ماامكنه الحال ولو جرى اهل بلادنا على هذا المثال لاصبحنا بعد جيل امة راقية حقيقة ولما رأينا الصغير يشكو لانه يريد تقليد الكبير واسبابه لاتساعده ·

نحن لانجاري اولئك الذين يدعون ان لبنان كان خراباً لولا الهجرة لامور اقلها ان البلاد السورية واسعة واهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون ان ينزلوا الاقاليم القليلة السكان المحتاجة الى العناية ويستعمروها فان فتشوا ذات اليمين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعلبك والبقاع ومرجعيون وصيداء تتاخم جبلهم وتحصرهم فيه فان لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام وبلاد حلب مثلاً مايكفي لاغناء مئات الالوف من الناس فلو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدهم لاصبحت بعد سنين جنات زاهرة واقل ما في ذلك من المنافع ان هذه البلاد منهم على ايام قليلة

تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هي غنى لبنان وما الثروة في الحقيقة الا العمل ليس الا . فقد رأينا اسبانيا على عهد شارلكان يتسرب المال الى صناديقها بالبدر والسبائك من اقطار المعمور لان هذا الملك كان يعتقد ان كثرة النقود والذهب في بلاد كاف وحده في غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنين حتى امست اسبانيا افقر بلاد اوربا لان اهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والاخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرافعة من شأنهم

ان انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين الى نزول اميركا وافريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على امل العودة الى مساقط رؤوسهم متى امتلأت اكياسهم وجيوبهم وعبابهم قد حال دون تعهد ارضهم واستثمار صناعاتهم . ففي لبنان من الخيرات الطبيعية مايكفي اهله اذا زادوا ضعف ماهم الآن ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لايزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد . ولا يشعر بذلك الا ارباب الاملاك . مثال ذلك ان « كدنة » الفلاحة كانت تساوي منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشاً فاصبحت اليوم تساوي ستين على حين ان غلات التوت مثلاً لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة ايدي العاملين وارتفاع اسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش في البلاد ولان المهاجر اللبناني الذي كان فلاحاً حراثاً الى عشرين او ثلاثين جداً من اجداده اذا هاجر وقضى في هجرته ثلاث سنين ثم آب الى بلاده تكبر نفسه فلا يعود يتنازل الى معاناة الزراعة بل يفضل ان يعيش كما يعيش تجار اميركا وارباب الاملاك في بلادنا وهو لايملك رأس مال يكفيه سنة واحدة اذا ظل عطلاً من العمل .

في امثال العامة « انا امير وانت امير فمن يسوق الحمير » حكمة لطيفة

ليست السعادة بكثرة المال . السعادة شيءٌ غير مايتوهمه من همهم انشاء البيوت وتزيينها من الظاهر وفي باطنها الشقاء والحسرة . قالت لي عجوز في صليما وقد سألتها اين رجالكم : « ذهبوا الى اميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التي عمروها اتسرح فيها الفيران عادوا ليجمعوا كمية اكبر من المال لان ماجمعوه لم يكفهم لاتمام هذه الدور علَى مايحبون وفرشها ونقشها ثم ان حالة البلاد لم تعجبهم بعد ان شاهدوا مشاهد اميركا . » وقول هذه العجوز الذي احزنني مغزاه ولا تزال الاذن تردد صداه قد سمعت مثله من كثيرين من اهل لبنان رجال ونساء .

اي حسرة اعظم من ان تتوقع امٌّ في كل اسبوع قدوم ابنها وقد تمضي الشهور ولا تتناول كتاباً منه او زوجة تنتظر بعلها منذ سنين هي واولادها وهو لا يكاد يبعث لهم بنفقتهم فتضطر تلك المرأة المسكينة ان تعمل ليلها ونهارها لتطعم اولادها من كدها وما هي بمفلحة . واي بلوى اكبر من ان تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس ينتظرن عروساً لان شبان الضيعة هاجروا واكثرهم لا يريد ان يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة اميركية وزهد في أُسرته وقريته لانه تمدن بزعمه ولا يليق به ان يتزوج الا من متمدنة . ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يدرك سر تعدد الزوجات في مثل هذه الحال ويسجل بان اقل سيئة من سيئات الهجرة انقطاع الاهلين عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر اسباب الراحة فيه .

وان دعوى من يدعون ان لبنان لولا الهجرة لاصبح خراباً مردودة من وجوه احدها انهم يعتقدون ان تلك الاموال التي دخلت لبنان وهي

عشقوت وبسكنتا وعمشيت وعرنة ومعرونة امااولادهم فينطبعون بطابع البلاد التي ولدوا فيها واكثرهم لايتعلمون اللغة العربية ولذلك لايرجى البتة ان يعودوا الى موطن آبائهم وهذا القسم من خسرتهم البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم ان بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم علَى جانب من الاخلاق والمعرفة لم يعمدوا الى الطرق السافلة في تحصيل الثروة ·

نفعت الهجرة لبنان واضرته وعندي ان المضار اكثر من المنافع اذ لايظهر الى العيان في الغالب الا الحسن · فقد يذهب الف مهاجر مثلاً الى بلد كذا ولا ينجح منهم الا واحد او اثنان فيأخذ الناس يتحدثون في امرهما وينسون اولئك المئات الذين يعملون اربع عشرة ساعة كل يوم في اشق الاعمال ولا يكادون بعدمرورسنين يوفون اجرة الطريق التي استلفوها من احد المرابين في بلدهم او باعوا في الحصول عليها ارضاً لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هلكوا بالامراض وغيرها وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها ·

فان من نظر في الامور نظراً سطحياً وشاهد تلك البيوت البديعة في قراه ومزارعه التي عمرت بمال اتى به المهاجرون من غير ارض لبنان وسمع بان فلاناً اصبح يملك كذا وكذا من الليرات وان بلد كذا يدخل اليه كل شهر من تحاويل اميركا مايقدر بكذامن الذهب — من شاهد ذلك وسمعه لايعتم ان تعروه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد ان الحال اذا دام علَى هذا المنوال واموال اميركاتتسرب الى بلادنا نصبح بعد بضع سنين اغني من الاميركان وننقل شطراً عظيماً مماعندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهي السعادة البشرية

والثلث الآخر يموت . ونظن ان الثلث الاخير مبالغ فيه وان كان عدد الهالكين في المهجر غير قليل . واحصي (١) عدد السوريين المهاجرين الى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين الفاً منهم ستون الفاً في الولايات المتحدة وخمسون الفاً في جمهوريات اميركا الجنوبية وخمسة وعشرون الفاً في اميركا الوسطى وعشرة آلاف في اوستراليا وبعض الجزائر والباقون في افريقية والهند والفيليبين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون الفاً نصفهم ذكور ونصفهم اناث وربما كان الذكور اكثر

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان باقدامهم وذكائهم المعهود فنزلوا في دار الهجرة بلاداً تحتاج الى ايدٍ عاملة ونفوس لاتعرف التعب فانشأوا يعملون ويذخرون ويقترون علَى انفسهم في النفقة علَى خلاف عادة معظم المهاجرين الى اميركا من اهل اوربا مثلاً فآب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير صحته بمئات من الليرات فكان اول همه ان يعمر له داراً قوراء بالحجر النحيت والقرميد علَى المثال الذي رآه في بيوت المهجر

وكثر تقليد الناس بعضهم لبعض ومنهم من اشترى له ارضاً في بلده وطفق الآخر يتجر بما جناه من ذاك الرأس المال القليل اما الافراد الذين اغتنوا فعدت ثروتهم بالالوف فقد استوطنوا البلاد التي هاجروها جرياً علَى المثل العامي « في المطرح الذي فيه ترزق الصق » وهم ان كانت تحدثهم انفسهم بالرجوع لايهنأ لهم بال متى عادوا اذ يتجلى لهم الفرق الكبير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرنسيسكو وبونس ايرس وسان باولو مثلاً وبين

(١) دواني القطوف

الوقت والقوة في بلاد المهجر علَى طول السنة وحسبوا ماصرفوه في ذهابهم وايابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم لرأوا ان المعدل واحد والفرق قليل لا يساوي هذا النصب ٠

والذي ظهر من قرائن الاحوال ان ابن لبنان كان اول فلاح سوري هاجر الى اميركا او جرأ سائر السوريين علَى الهجرة مجذوباً بما اشتهر عن القارة الاميركية من الغنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبعدها ولان ابن لبنان اكثر اهل جبال سورية تعلّماً ونوراً واوفرهم نشاطاً ومضاءً وشمماً وادلالاً بل ان مجموع القارئين والكاتبين فيه اوفر من مجموع القارئين والكاتبين في مجموع مدن الشام

واول من دخل اميركا (١) من السوريين الخوري الياس بن القسيس حنا الموصلي الكلداني من سنة ١٦٦٨ — ١٦٨٣ واول من دخل اميركا الشمالية في القرن الماضي الخوري فلابيانوس الكفوري سافر اليها سنة ١٨٤٨ واخذ معه ناصيف الشدودي واول من دخل الجنوبية المطران باسيليوس حجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الاحسان واول من دخل اميركا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف الى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا الى بلادهم بثروة وافرة فاقتفى اثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالي لبنان وامتد في كل سورية ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد واوستراليا وجزر البحر المحيط بل وفي افريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها

وقدر بعضهم ان ثلث المهاجرين يسكن اميركا وثلثهم يرجع الى وطنه

(١) دواني القطوف لعيسى افندي اسكندر المعلوف

من طريق بيروت ودمشق وعشرون من تراموأي شمالي لبنان ٠

وفي هذا الجبل ٢٥ (١) مدرسة داخلية كبرى وصغرى و ١٠٤ مدرسة اكليركية و ٨ مستشفيات و ٢٠٦ من الحراج والغابات و ١٤٧ من معامل الحرير و ٨١٩٧ من الدواليب وبلغت حاصلاته من الفيالج (الشرانق) سنة ١٩٠٦ — ٢٠٢٧٠٣٠ اوقة ومن الزيت ٢٥٤٨٨ اقة وثمن الحرير الذي يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك في السنة وكثر سكانه حتى عدلوا ان في كل كيلومتر مربع ٦١ نفساً ولا يفوق الجبل في ذلك غير ولاية الاستانة وجزيرة سيسام (ساموس) ٠ وسكانه الآن زهاء اربعمائة وثلاثون الف نسمة منهم ٢٥٠ الفاً من الموارنة و ١٦٠ الفاً من الروم و ٣٦ الفاً من الكاثوليك و ٥٥ الفاً من الدروز و ٣٣ الفاً من المسلمين (سنة وشيعة) و ١٥٠٠ من البرتستانت والباقون ارمن واسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه خمسمائة من اهل الوبر يعيشون في مضاربهم خارج القرى واكثرهم فقراء يستوكفون الاكف وقد احصى غليلموس الصوري في تاريخ الصليبيين عدد الموارنة في عصره فكانوا اربعين الفاً وما زال عددهم يربو عَلَى عدد وفياتهم وان هاجر كثيرون بعد ذلك الى قبرص ورودس والقدس ومالطة ولا يبعد ان تكون اللغة العربية انتشرت في جزيرة مالطة بواسطتهم ٠

ولا يسعنا وقد وصلنا من بحثنا في شؤون الجبل الى هذا الحد الا ان نرسل جملة في شغف اللبنانيين بالهجرة الى اميركا وغيرها من البلاد التي توهم ابن سورية ان المال فيها ملقى عَلَى الشوارع لا يحتاج الا لمن يمد يده ليتناوله مع ان اولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف ما يصرفون من

(١) دليل لبنان

٥

منذ أمن السكان في لبنان على ارزاقهم وانقطعت شأفة ارباب المقاطعات الذين طالما اشتطوا في مطالبهم وبطلت او كادت السلطة الافرادية الذوقية وقلت الاوبئة والزلازل التي كانت تحصد العمران والسكان حصداً كالزلزال الذي عاود لبنان مرات سنة ١٧٥٩ م وخرب القرى واهلك الناس والطاعون الذي حدث سنة ١٧٨٩ وعم لبنان كله واستمر الموتان ثلاثين سنة (١) — منذ خفت العوارض الطبيعية والارضية اخذ كل فرد يحسن من حاله فنمت النفوس باستتباب اسباب الراحة واخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون ابناء الجبل على المنازع الدينية ويلقنونهم شيئاً من اللغات الافرنجية والعلوم العصرية كما ان الموارنة مازالت لهم علائق مع الكرسي البابوي في رومية يختلف اليه احبارهم منذ قرون وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد

ثم ان طبيعة الجبل تقتضي التحسين والتنظيم والمسيحيون على الجملة يميلون الى الرفاهية ويقدرون طعم الحياة قدرها ولم يكد يدخل القرن الثالث عشر للهجرة في دور العدم ويطلع القرن الرابع عشر حتى دخل جبل لبنان في طور جديد فكثرت طرق عجلاته حتى اصبح لديه منها الآن نحو الف كيلومتر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة وتهيء سبل التنقل على المصطافين في ربوعه واكثر هذه الطرق في قضاء المتن لانه ظهر لبنان ونقطته الوسطى ومقصد المصطافين من البيروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم · وفيه الآن سبعون كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها خمسون

(١) تاريخ المقاطعة الكسروانية

يتحول مناخ سورية وتكثر فيها الامطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذى بذلك العرب الرحالة في باديتهم كما يتضرر ابن المعمورة بهم ويصبح منهم بين نكبتين سماوية بقلة الامطار وارضية بسطو ابن البادية على مابقي لابن القرى من رزق

وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض عَلَى كل لبناني ان يغرس عشر شجرات من اصناف الشجر عله تقتدي بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا يأتي علينا جيل الا وتصبح سورية غنية بغاباتها كغنى سويسرا او اكثر والاشجار في بلادنا اكثر نمواً مما هي في اوربا لما عرف من اعتدال الفصول ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر فغرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة ان كثر اليوم تهطال الامطار فيها عَلَى طريقة منظمة وسيكثر خيرها كلما زادت اشجارها وعسانا نقتدي في سورية بهذا المثال

فوق قرية عين زحلتا وكان احرق اكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضها ايام حادثة سنة ستين لتجدد بخشبه بعض بيوت المنكوبين ورابعة بين افقا والعاقورة في جرد جبيل من بلاد كسروان وخامسة بين قرية تنورين وبشري صغيرة الشجر وعدد شجيراتها نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشري عَلَى علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها اضخم اشجار الارز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى واكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع اطولها خمسة وعشرون متراً وقدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة · ولا اثر الآن في سورية لشجر الارز الا في اعالي سير ببلاد الضنية (١) في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ مترعن سطح البحر وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند اهله تنوب ·

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم عَلَى غرس شجر الارز او اي كان من شجر الاحتطاب في الاماكن الخالية ولا سيما في القمم والقنن لما اتت عشرات من السنين الا وقد زادت ثروة الجبل زيادة محمودة وكان مع طول الزمن لابن لبنان من اشجارة مورد آخر غير التوت والزيتون مثلاً لان شجر الارز لايجود في الغالب الا في مثل هذا العلو من الجبل بل من جبال سورية التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها

واذا زاد عدد الغابات في سورية زيادة كبري وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتي القدس والزور بتكثير الغابات في الاماكن الخالية ولا سيما في المحال التي يعرف انها كانت غابات غبياء نافعة

(١) تسريح الابصار

الاحتطاب واخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصاً وقد جرت عادة بعض حكام لبنان اذا غضبوا عَلَى احد ان يقطعوا اشجاره ويخربوا داره والى اليوم لايزال من الامثال العامة السائرة في الجبل « الله يقطع رزقه » اي مايملك من شجر و « الله يخرب زوقه » اي بيته

مثال ذلك ان الامير احمد المعني طرد المشايخ الحماديين المتاولة لما كثر بغيهم في كسروان ففروا الى بلاد بعلبك فاحرق قراهم في القرن الحادي عشر وقطع اشجارهم وقد رسم مرة بيدمر (١) نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من امراء الغرب في لبنان وكان في دمشق ان يركب عَلَى خيل البريد ويتوجه الى قرية عين زحلتا من شوف صيداء ليكشف عما فيها من اشجار التوت النافع لعمل النشاب فلم يجده موافقاً وربما احب عدم تصديع اهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذاك العهد اجتهد اهل الشوف في قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته . قلنا ومثل ذلك مانشاهده في ايامنا من ان بعض اهل القرى البعيدة عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع اشجارهم فراراً من ظلم ملتزمي الاعشار واشتطاطهم في تقاضي العشور عليها اضعافاً مضاعفة

ولم يبرح شجر الارز موجوداً في عدة اماكن من لبنان عَلَى كثرة ماانتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار عَلَى مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الابهل واخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة النمو لكثرة الامطار والثلوج والعواصف في تلك الارجاء وثالثة

(١) تاريخ بيروت

والشاطئ حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين في سورية ادخلوا خشب الارز في بناء دورهم ٠

وكل هذه الاخشاب قطعت من لبنان او من الجبال المجاورة له وكانت تحمل في الغالب الى طرابلس وصيداء وصور حيث كانت دور الصناعات وقد انشأ بعض ملوك الاسلام اساطيل من خشب الارز وقالوا ان بيروت (١) كانت دار صناعة دمشق (ترسانتها او ورشتها) وبها عمر معاوية المراكب وجهز فيها الجيش الى قبرص ومعهم ام حرام واسمها العميصاء وقيل انه عمر من الارز الفاً وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهز اسطولاً اضخم من الارز نفسه وتبعه غيره من ملوك الاسلام في اختيار الاخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الارز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من قارة الى قارة ومن مملكة الى أخرى وهو عطر الرائحة اذا وضع في النار ويحسن في المشم اذا مسسته بيدك ولونه اصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبث به الارضة ولا يفعل فيه السوس ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم عَلَى استعماله في ابنيتهم وقصورهم وبيعهم وهياكلهم وتماثيلهم ونصبهم ٠

والغالب ان الحكومة السالفة (٢) القديمة في لبنان كانت تحتكر اربعة اشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها وهي السرو والعرعر والارز والصنوبر وتسمح بقطع غيرها واحتطابه او غرس غيره محله ٠ وقد بدأ النقص في هذه الاشجار ولا سيما الارز منها منذ خمسة قرون لان اللبنانيين احتاجوا الى

(١) تاريخ بيروت

(٢) دواني القطوف

٤

ليس في لبنان ارض تبلغ مساحتها مائة كيلومتر مربع بل غاية ما فيه من الاراضي منحدرات ومنعرجات واودية ضيقة ومسايل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم واشجارهم واكثر الاراضي مما يصلح للشجر اكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال الارض في الاكثر . وليس في الأيدي نص قديم يشير الى اصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير ما نقلناه في نبذة سالفة عن مؤلفي العرب من ان فيه اصناف الفواكه والزروع واكثرها مما ينبت بنفسه وهو كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع . واذ كانت طبيعة ارض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لا تناسبها ارضه ضعيفة فيه او تكاد تكون معدومة .

ولكن لم تخل ارض لبنان في زمان من ازمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الاشجار المثمرة والزان والسنديان والسرو والارز من الاشجار الغير المثمرة . وقد اكثر القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الارز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بني قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في ايام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم . وقالوا انه ثبت ان ملوك الاشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الارز وان المصريين ادخلوا من خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وان الاسكندر المقدوني وضع من خشب الارز في السد الذي اقامه بين الجزيرة

المشؤومة بين الدروز والنصارى في لبنان فمنحت الدولة هذا الجبل استقلالاً اداريًا بان جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين او تجدد انتخابه بمصادقة الدول · وجعل مال لبنان سبعة آلاف او ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش وضعت على الاعناق

وللحكومة لبنان موارد اخرى سنوية منها نحو اربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الاراضي الاميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات والعجلات وتعدل بثلاثة عشر الف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئًا من مال الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع اليه العجز في ميزانيته · وفي لبنان الف جندي لبناني بادارة امير الاي لبناني وفي بيت الدين فرقة من الجند العثماني المحافظ وعليها امير الاي بادارة حكومة لبنان ·

وتحاول حكومة الجبل الآن ان تزيد الضرائب قليلاً ليتيسر لها القيام ببعض الاصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور الا ان معظم الاهلين يقاومونها وفاتهم ان الليرة منذ خمسين سنة لا تعادلها اليوم الا الثلاث ليرات او اكثر لوفرة الذهب وغلاء الاسعار · وهم يعتبرون ان هذا العمل اخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون ان يتدرج الامر الى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من اجل هذا ابى اللبنانيون ان يبعثوا الى مجلس الامة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم وما نظن وطنيتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين ارسال نواب عنهم حتى يشتركوا وسائر اخوانهم العثمانيين في الغنم والغرم فليس من الانصاف ان يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياد وهو في وسط البلاد ويحسب جزءًا متممًا من اجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلبت الحال وتعددت المظاهر والاشكال

العاشر عقيب ان نهب بعض امراء لبنان الصرة السلطانية من جون عكا بينا كانت محمولة الى الاستانة فجمع ابراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بها الى مرج عرجموش قرب زحلة وامسك طريق البحر والبقاع على الدروز فقتل نحو ستمائة منهم واسر بعض الامراء ·

وما زالت حال الجبل في اقبال وادبار تقع اليوم فتنة العاقورة وغداً وقعة مرحلاتا وبعده وقعة ارض خلدة ثم فتنة برج الفلول وبعد ذلك وقعة عين دارة حتى اقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمر باشا النمسوي والياً فلم تطل مدته حتى منحت الدولة للجبل امتيازات وقسمته في السنة التالية الى مقاطعات · وتعرف الاولى (١) بقائمقامية النصارى وهي الشمالية تمتد من نهر البارد في عكا الى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت تولاها الامير حيدر اسماعيل اللمعي وتعرف الثانية بقائمقامية الدروز وهي الجنوبية تمتد من طريق الشام الى منتهى جبل الريحان في الشمال مع قرى اقليم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤُونها الامير احمد عباس الارسلاني اما قصبة دير القمر فكان يتولى شؤُونها رجل من قبل والي ايالة صيداء وكانت قائمقامية النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبترون والكورة وزحلة وقائمقامية الدروز تشمل قضاءَي الشوف وجزين وقسماً من غربي البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم في قضاء المتن وفرض عَلَى لبنان في كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس

ودام الحال عَلَى ذلك الى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة

---

(١) ذواني القطوف لعيسى افندي اسكندر المعلوف

اليهم ولا للمسلمين اصحاب البلاد الا ان هذا لم يمنع من الرواية الثانية من مما لأة الموارنة للصليبيين ودلالتهم علَى الطرق ونجدتهم (١) لهم وثباتهم معهم علَى العهد الى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢م ومن اجل هذا اضطر حكام البلاد ان يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل اهدن و بقوفا وحصرون و كفرسارون والحدث

وما برح لبنان ينقسم بين امراء المقاطعات يحكمونه علَى النحو الذي كانت عليه صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات. يقوى اليمانيون تارة والقيسيون اخرى والناس معهم في امر مريج ومن التحزبات القيسية واليمانية ماوقع في الربع الاول من القرن السادس عشر للميلاد بين الامير فخر الدين المعني القيسي وجمال الدين الارسلاني اليمني . قال المقريزي وعشير الشام فرقتان قيس ويمن لا يتفقان قط وفي كل قليل يثور بعضهم علَى بعض :

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكي نسبة الى يزبك جد الشيخ عبد السلام العماد زعيمه والجنبلاطي نسبة الى الشيخ علي جنبلاط زعيمه الآخر وذلك سنة ١٧٢٩ — ١٧٥٤ وامتد في لبنان ولم يزل له اثر كما نشأت احزاب اخرى كالمملوفي والمكارمي ومثل هذه الاحزاب قد لا تخلو من حدوث فتن تهرق فيها الدماء وتكثر الأيامي والاماء كما فعل الحماديون واحرقوا بلاد جبيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها الى بلاد ابن معن وكانت العداوة بين بني سيفا وبني معن سبباً في تخريب الجبل ايضاً .

ومن الوقائع التي يتمت فيها الاطفال تلك الوقعة التي جرت في القرن

(١) تاريخ البطريرك الدويهي وتاريخ المقاطعة الكسروانية للخوري منصور طنوس الحتوني

من تمرد الكسروانيين

واختلف العلماء في اصول سكان لبنان والارجح انهم خليط من الفينيقيين والآراميين والروم والعرب مزجتهم بودقة واحدة فغدوا مزيجاً واحداً كما هو حال معظم البلاد فانك ترى كثيرين من اسرات لبنان المشهورة نزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحوران في الداخلية ولاسيما في القرون الخمسة الاخيرة . ذكر المؤرخون ان معاوية نقل الى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء قوماً من الفرس يسكنونها . وذكروا ايضاً ان ابا جعفر المنصور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المعرة الامير ارسلان واخوه الامير منذر بجماعة من عشيرتهما فطابت نفس الخليفة بهما فامرهما ان يسكنا في جبال بيروت الخالية من السكان وانعم عليهما بمقاطعات معلومة فسكنوا وبعضهم في كسروان واخذوا يشنون الغارات على مجاوزيهم وفي بعضها احرقت قرى من كسروان السفلى ونقوي الامراء الارسلانيون بعشائرهم وعمروا العمائر في الشويفات وجوارها .

اما الموارنة فكان اول منشأهم في شمالي سورية في الاغلب ينتسبون الى قديس لهم اسمه مارون وهم طائفة كاثوليكية لا يكادون يختلفون عن الكثلكة في امر جوهري في المعتقدات جاؤا شمالي لبنان اولاً وما زالوا يمتدون ويطردون سكان الجبال الاصليين او ينصرونهم ويدمجونهم في جملتهم حتى بلغوا الجنوب واحتفظ الدروز ببلادهم بما فيهم من الشدة والاباء .

وزعم بعضهم ان الموارنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لانه لا يوجد بين اديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر وان جبيل والبترون كانتا على الحياد مع الصليبيين فلم تنحازا

فبقيت علَى ذلك الى سنة ٥٩٣ فباعها الاكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الافرنج بعد صلاح الدين لان الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال

ولذلك امر حسام الدين لاجين نائب دمشق بان تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما علَى عهد الافرم كما تقدم اذ قضى بقطع كرومهم وتخريب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرقوا في البلاد ايدي سبا ·

ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ تداركوهم (١) بثلثمائة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الاسد علَى حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستنكرونه ان يتعدى دربند نهر الكلب الا بورقة طريق من المتولي او من امراء الغرب كما كانوا يفعلون بقطية (١) على درب مصر وجعلوا التركمان ثلاثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهراً لحفظ المواني والدروب · وفي سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الامراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور قلاوون الى جمال الدين وزين الدين ابن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر الى جهة كسروان والجرد ان يتوجها اليه بجموعهما واسرتيهما وان من سبى امرأة منهم كانت له جارية او صبياً كان له مملوكاً ومن احضر منهم رأساً فله دينار وان سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب اموالهم وسبي ذراريهم · وهذه الفقرات علَى شدتها لم تصدر عن امراء الشام الا بعد ان طفح كأس صبرهم

---

(١) تاريخ بيروت

(٢) قرية في طريق مصر وسط الرمل كانت المجاز بين مصر والشام

المعنيين الامير فخر الدين الذي عهد اليه السلطان سليم فاتح سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن امرائهم الامير بشير المالطي الثاني ومن امراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر ·

وروى التاريخ ان سكان كسروان اخذوا في القرن السادس واوائل القرن السابع للهجرة يطيلون ايدي اعتدائهم عَلَى ابناء السبيل فيخطفون المسلمين ويبيعونهم من الاعداء فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين او الظنينين كما سماهم ابو الفداء وجيوش التتار التي انهالت عَلَى هذه البلاد كالسيل العرم ان نجا المسلم من التتري لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الاسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح اولئك العصاة فلما لم ينجع النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالاً هائلاً بزعامة جمال الدين اقوش الافرم نائب دمشق · والغالب ان سكان كسروان كانوا اذ ذاك خليطاً من النصيرية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة ·

وما زال نواب الشام (١) الاشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد ابن قلاوون يحاربون النصيرية في كسروان حتى اخرجوهم وجعلوا بدلهم قوماً من التركمان في بعض النواحي وبقي كثير من المتاولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان ولاسيما جبيل وأعمالها من ايدي الافرنج سنة ٥٨٣ فرتب (٢) في جبيل قوماً من الاكراد لحفظها

(١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى

(٢) معجم البلدان لياقوت

اتكلم على الجبل خصوصاً ولم ينقصني منه الا قضاء الكورة فقط ·

نبذة في تاريخ لبنان

٣

لم يخرج لبنان في دور من ادواره عن كونه معقلاً حصيناً كل من ساده يكون في الاعم من حالاته الى الشدة والمضاء يتعب من يسودهم وقد يتعب به جيرانه من اهل البلدان الاخرى · ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالاً وخضوعاً للغريب ولكن ايام الاستقلال اكثر من غيرها في غيره من اقاليم الشام

والغالب ان قاصيته خضعت للفينيقيين كما خضعت سواحله واستولت عليه حكومة الايثوريين العربية في عهد الروم · والايتوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب انكفأ من حوران واللجاه بلاده ونزل البقاع فانشأ له مدينة شالسيس او عين جر جعلها عاصمة واخذ يشن الغارات على لبنان ويتقدم الى الامام حتى تيسر له ان تسورقممه واخضعه لسلطانه ثم انحدر الى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزاً ثانياً (١) واكثر من كانوا يتأذون من بأس الايتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لانفسهم طولاً ولا حولا

نعم خضع هذا الجبل للفاتحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس اتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الايتوريين فنزل المردة (٢) في الشمال اوائل القرن الاول للهجرة ثم جاء التنوخيون ونزلوا جنوبيه وتوالى عليه الامراء المعنيون فآل عساف التركمان ومن سلالة

(١) تسريح الابصار

(٢) هذه اللفظة فارسية ومعنى مردالرجل

منها نبع الاربعين ونبع صنين وبقليع واللبن والعسل والباروك وعين زحلتا وقد زرت هاتين الاخيرتين

وصلنا الى الباروك في زهاء ساعتين من دير القمر مارين ببيت الدين مركز مصرفية لبنان الصيفي وكفرنبرخ وبعض المزارع وقرية الباروك في واد منفرج قليلاً تنبع عينها على قيد غلوة منها اما المصطافون فيها فيختارون في الغالب النزول بالقرب من رأس العين في نزل هناك او خيام لهم يضربونها وسط الحراج المبثوثة على آكام الباروك وجبالها فتوفر لهم بذلك الى جودة الماء التي مابعدها جودة فيما اظن — طيب الهواء ونسيم الارز والصنوبر العليل البليل · ومن الباروك الى عين زحلتا ساعة على الراكب وفي هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين اليها للتمتع بنبع الصفا وقاع الريم اللذين ينبعان في ظاهرها ولتسريح عيونهم بجمال موقعها وخصب واديها وحراجه الغبياء · وعين الباروك وعين زحلتا على مساماة واحدة في العلو وماؤُهما يكاد يكون متشابهاً والطريق من عين زحلتا الى عين صوفر ماراً بطريق السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة او على الراكب وهذه العيون ينتفع بها كلها في سقي الحدائق في القرى البعيدة والقريبة

ومن صوفر قصدت حمانا وقرنايل فصليما فعبدات فبحنس فبكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة · وهنا قضيت مع صديقي الابر امين افندي ريحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير اياماً رائقة ريثما ركبت البحر من بيروت قاصداً القطر المصري فاوربا · هذا وقد كان سبق لي منذ سنين ان زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحلة فاكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الاقضية الثلاثة الاخرى وهي جزين والشوف والمتن خليقاً بان

كل امريءٍ بالواجب عليه فسعى للمعاش سعي هذا الحبيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقلَّ احتياجنا للحكومات وقوانينها · وهذه المحابس (١) قديمة في لبنان ترد الى عهد هيلاريون الناسك او قبله وفي عدلون بين صيداء وصور على مقربة من صرفند عند الجسر صخر عال حفر فيه نحو مائتي كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم ·

وبالنظر لتوسط لبنان من سورية كان نافعاً بعمرانه لها بطبيعته فكأن علو قممه — واعلاها ظهر القضيب علوه ٣٠٦٣ متراً ثم في الوسط جبل صنين وعلوه ٢٨٠٦ متراً واعلى نقطة في جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً — وتكاثر ضبابه وكثرة اشجاره وقربه من البحر كلها داعية الى كثرة الثلوج والامطار فيه فيتكون من عصاراتها ومسايلها انهار ذات شأن عظيم في عمران الشام · فمن سفوح لبنان تنبجس اعظم انهار سورية فنهر العاصي الذي يروي اراضي وادي حمص وحماة وانطاكية ينبجس من الهرمل في شمالي لبنان ونهر الليطاني الذي يروي بلاد صيداء وصور وتنتفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان ونهر طرابلس المسمى بنهر ابي علي ويعرف قديماً بقاديشا يخرج من سفح لبنان ونهرا الكلب وبيروت اللذان يسقيان مدينة بيروت وضاحيتها ينبجسان من السفح الغربي من لبنان ونهر البردوني الذي يسقي زحلة وبعض البقاع هو لبناني المنبع ايضاً · ومن لبنان الشرقي ينبجس الاردن « الشريعة » كما ينبجس من غرب لبنان الغربي نهر ابراهيم

فلبنان في فائدته لسورية اشبه بجبال الالب في سويسرا او بنيل مصر من حيث امتداد المنافع · وللالب والنيل المثل الاعلى · وفي لبنان عدة ينابيع

(١) تسريح الابصار

السادس للهجرة مانصه : وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم ان احب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال وينهال الخبز عليه من اهل الضيعة ويلتزم الامامة او التعليم او ما شاء ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أُخرى او يصعد الى جبل لبنان او الى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل فيقيم معهم ماشاء وينصرف الى حيث شاء · ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به احد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت واحسنوا اليهم ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فيجب مشاركتهم وهذا الجبل من اخصب جبال الدنيا فيه انواع الفواكه وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة وقل مايخلو من التبتل والعبادة · وقال ابن بطوطة في القرن الثامن : ان جبل لبنان من اخصب جبال الدنيا فيه اصناف الفواكه ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه ·

قلنا ولذلك نرى المعروف اليوم بالاحصاء ان في لبنان نحو الفي راهب وراهبة لهم ١٠٨ ديراً ماعدا الكنائس والبيع والصوامع التي لاتخلو قرية عن واحدة او عدة منها ولا يقل دخل الرهبنات والاديار فيه عن مئة وخمسين الف ليرة في السنة كما أكد بعض العارفين · وهو نحو ثلث ايراد لبنان باسره · وفيه المحابس التي ينقطع فيها الى النسك بعض الرهبان فيقيمون في مغارة او مكان منفرد يتعبدون في الخلاء · زرت احدهم في مديرية القاطع فرأيته متوفراً على كرم له هناك حتى جاد واخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج ويصرف شطراً من وقته في النسك والصلاة · ولو قام

مشرفات على دمشق وقد اعرض منها بياض تلك القصور

وقال الجغرافي اليزه ركلو من المتأخرين يصف (١) لبنان : اذا ما القيت ببصرك من البحر الى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هذا الجبل منظراً مهيباً فيلوح لك ازرق او وردياً في الصيف ومشتملاً في الشتاء والربيع بجلباب ثلجه الفضي واذا تصاعدت الابخرة في الجو البست قممه الشامخة ثوباً شفافاً هوائياً غاية في اللطف بيد ان جمال هذا المنظر لا يخلو من سطوة الشدة فترى ذاك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم في وجهه قائم على ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كثب هي دون جماله عن بعد فترى ظهره على طول ١٥٠ كيلو متراً اقهب اجرد لا تكسوه الخضرة · اوديته متشابهة ومشارفه كأنها قدت على قالب واحد ·

وقال الاب لامنس : ان لبنان اشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من الجنوب الغربي الى الشمالي الشرقي وفي الجهة الشرقية تراه ينقطع بغتة اما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعاً متعددة على هيئات شتى من آكام وبطون وسهول وربى متسلسلة يدخل بعضها في بعض واذا استثنيت هذه التفرعات الثانوية والتجعدات الغير المتسقة تحققت ان سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية وجانب كبير من البساطة ولذلك قلما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقر بها العين وانما يقع البصر على حاجز كبير في حدود الافق يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قممه العليا تمتاز عن بقية اقسامه ·

ووصف شكله ايضاً فقال : ومن تفرع الجبل من الجنوب الى الشمال

(١) تسريح الابصار للاب لامنس

وجده يتزايد علواً و كذلك يتسع عرضاً ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كيلومتراً وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلومتراً ومعظم اتساعه بين طرابلس والهرمل ٤٦ كيلومتراً فيكون لبنان عَلَى كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتيه العلويتين اه ·

ولقد قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر يحده جنوباً صيداء واعمالها وشمالاً طرابلس و كورتها وشرقاً ولاية سورية وغرباً البحر المتوسط ومدينة بيروت · هذا هو حده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربي والاصل في التسمية · ويطلقون اسم لبنان الشرقي على وادي التيم وجبل الشيخ (حرمون) اي على قضاءي حاصبيا وراشيا وما اليهما والبقاع فاصل بين اللبنانين · وحدّه القدماء فقالوا : (١) انه جبل مطل على حمص يجيء من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل وما كان بالاردن فهو جبل الجليل وبدمشق سنير وبحلب وحماة وحمص لبنان و يتصل بانطاكية والمصيصة فيسمى هناك اللكام ثم يمتد الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الخزر فيسمى هناك القبق قال وفي لبنان سبعون لساناً لا يعرف كل قوم لسان الآخرين الا بترجمان (؟) وفيه من جميع الفواكه والزروع من غير ان يزرعها احد وفيه يكون الابدال من الصالحين · وقال القلقشندي ثم يمتد لبنان الى الشمال ويجاور دمشق واذا صار في شماليها سمي جبل سنير ·

وعلى ذكر الصالحين نقول ان لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس الى العبادة فيه قال ابن جبير في كلامه على العلم والمتعلمين في الشام في القرن

(١) الازهري في معجم البلدان لياقوت الحموي

الا بقصر فخيم جميل واسع الارجاء محفوف من اطرافه بالرياحين والازاهير العطرية وغرفه الكثيرة تلك الدساكر والضياع لا يكاد المتجول يمل من مقصورة حتى ينتقل الى أُخرى وما اسرع وصوله اليها من تلك الطرق المعبَّدة وهذا القصر مزدانة افنيته واروقته باقصى ماتخص به يد الصانع من بدائع الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيراً في تعهده ·

معنى لبنان الابيض وهو اسم عبراني سمي به لتعمم قممه بالثلج في الشتاء والربيع وبعض الصيف · وقد ورد ذكره في الشعر القديم فقال النابغة الذبياني :

حتى غدا مثل نصل السيف منصلتاً يقرو الاماعز من لبنان والأكما

وقال احمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخراساني الطرابلسي من المحدثين :

دعوني لقاً في الحرب اطفو وارسب ولا تنسبوني فالقواضب تنسب
وان جهلت جهال قومي فضائلي فقد عرفت فضلي معدٌّ ويعرب
ولا تعتبوني اذ خرجت مغاضباً فمن بعض مابي ساحل الشام ينضب
وكيف التذاذي ماء دجلة معرقاً وامواه لبنان الذُّ واعذب
فمالي وللأيام لا درَّ درُّها تشرّق بي طوراً وطوراً تغرّب

وانشد المتنبي في مدح ابي هرون بن عبد العزيز الاوارجي من قصيدة :

بيني وبين ابي علي مثله شمُّ الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وقال البحتري :

وتعمدت ان تظلَّ ركابي بين لبنان طلعاً والسنير

في حليها وعكست شمس الاصيل على زجاج نوافذها وسطوحها فاختلطت الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة فكان اجمل منظر تقع عليه عين انسان · واهل الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرقة وحسن العشرة يتحببون الى الغريب كيف كانت حاله · وفي هذه القصبة الى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناه احد امراء لبنان ولا يزال الديريون يحرصون على سلامته فيتعهدونه بالعمارة وان لم يكن له من يقيم فيه الصلاة ·

وقصبة الدير بكثرة سكانها وتوفر مرافق الحياة فيها اشبه بالمدن منها بالقرى وهي مشهورة بتجارة الحنطة تحمل اليها من حوران فتوزع في الاطراف · وليس دير القمر وحيداً في نوعه باكتظاظ الاقدام فيه فمدينة زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين الف نسمة واوصل بعضهم نفوسها الى خمسة وثلاثين · وتكثر النفوس في حمانا ورأس المتن وبرمانا وبيت مري وبعبدات وبيت شباب وبكفيا وبسكنتا وبعبدا والشوير وحصرون والشويفات وحدث الجبة وبعقلين ومجد المعوش وعالية ومعلقة الدامور وجزين وجبيل واهمج وتنورين وعمشيت وغزير وجونية وكفر ذبيان والبترون واهدن والمرمل وأميون وزغرتا وكوسبا وفي غير ذلك من القصبات التي يعد فيها النفوس بالالوف والمئات

والقرى والمزارع متصلة خصوصاً في المحال التي ترتفع كثيراً عن سطح البحر ولا يتعذر العيش فيها في الشتاء لكثرة ثلجها وبردها وجليدها واعاصيرها وما اشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسعمائة وستة وخمسين قرية (١)

(١) دليل لبنان لابراهيم الاسود



كنت في لبنان اشبه بابي زيد السروجي او ابي الفتح الاسكندري احتاج الى راوية مثل الحارث بن همام او عيسى بن هشام يروي كلٌ منهما لمثل الحريري او بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطررت الى الظهور فيها لانجو من مخالب عدو ممازق او جاسوس مخادع وليتيسر لي درس حالة البلاد بدون حجاب ·

فقد قيل اكتم ذهابك ومذهبك وذهبك ولكن هذه القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الاذكياء فتجدهم يحرصون كل الحرص عَلَى استطلاع طلع كل مصطاف بينهم او سائح في جبالهم والوقوف عَلَى مقصده ومبلغ ثروته والدين الذي يدين به · وربما كان سؤالهم عن الاخير قبل كل شيء لان عامتهم متدينون جداً فهم يسرون اذا شعروا انهم يتعارفون الى رجل يشاكلهم في المعتقد · وانيّ لمن قضى عليه شدة اخلاصه في خدمة وطنه ودولته ان يصرح لهم بهويته وهو مشرّد طريد محكوم عليه بالجناية حكماً قره قوشياً !

ودعني رفيقي غداة وصلنا الى جزين وعاد الى الفيحاء وبقيت وحدي لا رفيق لي الا كتابي وفرسي · فانقلبت لساعتي من جزين قاصداً دير القمر فاجتزت اليها تاتر وعماطور والمختارة وغيرها والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغاية تمشي فيه وسط اشجار الزيتون وهي غابات غبياء في الشوف كما ان شجار الصنوبر كذلك في قضاء المتن · ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت اليه قبيل الغروب وقد بدت القصبة بابنيتها الشاهقة كالعروس

بدبغ الجلود للاحذية اشتهار مدينة زحلة او اكثر والمسافة بين مشغرة من اعمال ولاية سورية وجزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلو قمة عالية ثم تنحدر في واد عميق :

ومع ان قضاء البقاع من اعمر اقضية ولاية سورية بزراعته لخصب تربته وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقي ومتاخمته لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ماتنبته ارض البقاع من الحبوب والثمار ومع كثرة الاعيان الذين يملكون فيه المزارع والاراضي الواسعة ومنهم من انشأ فيه حقولاً انموذجية حقيقية وصرفوا عليها الاموال الطائلة واستخدموا لها احدث الطرق الزراعية كالاراضي التي عمرها نجيب بك سرسق في عميق ودير طحنيش واقامها الآباء اليسوعيون في تعنايل — مع كل هذا العمران المستبحر وما تأخذه النافعة من اموال الاهلين كل سنة باسم الطرق والمعابر لاترى في القضاء طريقاً مسلوكاً اللهم الا طريق الشام القديم الذي تركته شركة الدليجانس لما انشيء خط بيروت الحديدي . وقيل لنا ان الحكومة صح عزمها مؤخراً على انشاء طريق عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشغرة في غربه وان هذا الطريق وصل او كاد الى قرية عيتنيت ولعله يكون جسماً لا اسماً كاكثر الطرق التي انشأتها النافعة في الولايات فكانت الفاظاً بلا معنى واسماً بلا مسمى لم ينشأ عنها الا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وبخدمة الاوطان

المثل العربي « ابت الدراهم الا ان تخرج اعناقها » « ان الغني طويل الذيل مياس » او الاثر المشهور « ان الله يحب ان يرى اثر نعمته على عبده » وليس كالبيوت تنم عن يسار وتدل على سعة · وبعد عيتا مررنا بكامد اللوز فجب جنين فلالا فبعلول من وادي البقاع وفي هذه القرية بتنا عند رجل من اهلها انزلنا عنده واكرمنا ولم يعرفنا ومع حرصه على معرفتنا اكتفينا من التعريف بالتعريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب ·

وقد سرت الى هذه القرية والى جميع قرى البقاع عدوى الهجرة وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم ومن حديث كثير من البقاعيين تبين ان اهل كل قرية في الغالب يؤثرون في بلاد المهجر اقليماً خاصاً لهم ينزلونه او مملكة يوجهون وجهتهم اليها فيقصد مثلا اهل قرية كذا ولاية كذا من شمالي اميركا واهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرون ينزلون كندا وغيرهم اوستراليا وفريق السنيغال وبعض الترنسفال فكأن عدوى الانتقال تسري اليهم بالعشرة فلا يحب المواطن الا ان يقلد مواطنه في مآتيه ومنازعه بل في شقائه وسعادته · وقد اذكرناهذا بحال العرب في الفتح وبعده فكان القيسيون ينزلون بلد كذا واليمانيون اقاليم كذا ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الاندلس كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جند حمص ولذلك كان الجند يدعون كل بلد ينزلونه باسم بلدهم الاول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك في الولايات المتحدة ·

وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة فمررنا بجسرها المخرب الممتد على نهر الليطاني وانجدنا قاصدين جزين اول حدود لبنان الى الجنوب · ومشغرة اقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة الى الآن

البقاء ويزهدوا في دار الفناء فلا يهتمون باسباب الهناء والصفاء

ومما عمت به البلوى في الفلاحين انك ترى القاذورات ايضاً تعمي العيون وتخنق الانفاس فترى روث البهائم وغائط الآدميين وسط الدور وخلفها وقدامها وعن ايمانها وشمائلها · ولولا بقية من عادة النظافة والتطهر ورثها المسلمون بالتسلسل عن آبائهم وشيء من جودة الهواء في الجملة في القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الاقليم ومن حوله ·

ركبت صبيحة العيد ورفيقي قاصدين سوق وادي بردى ولعلها سميت كذلك لسوق كانت تقام فيها فيما مضى للبيع والشراء على العادة في اسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلاً سوق الأحد وسوق الجمعة وسوق الخيل وسوق الحمير · ولهذه الاسواق امثال في اوربا · وبالقرب من السوق تضيق فوهة الوادي وينقطع العمران ليخرج منه الى منفسح وادي الزبداني · وجبال السوق لاتخلو من نواويس قديمة على نحو ماتجد منها في جبال الشام محفورة في الغالب في القمم والآكام

ومن السوق انتهى بنا نفس السير الى قرية عيتا الفخار من اعمال البقاع العزيز وهي القرية التي اشتهرت منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه اكثر بيوتها في تنانير خاصة وتبيعه في المدن الداخلية من اعمال دمشق ·

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ اطللنا عَلَى عيتا ورأينا بيوت القرميد التي بنيت بالحجر النحيت على المثال الذي نشاهده في اكثر بيوت سورية · وعلمنا ان سبب ماشاهدناه من جمال المساكن في عيتا تلك الاموال التي جلبها بعض سكانها من هجرتهم الى اميركا واحبوا حتى من لاتحدثهم انفسهم بالسكنى ثانية في عيتا ان يظهروا غناهم بانشاء الدور المنظمة ليصح عليهم

قضاء الزبداني على بضع ساعات فقد بات يرجى بفضل قائمقامه الغيور ان تنظم لاهل قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية ليتيسر للناس الغدو والرواح من ايسر السبل · وما اخال ذلك متعذراً على الحاكم اذا حث اهل كل قرية ان يقوموا بانفسهم لتمهيد طريقهم ايام انقطاعهم عن العمل كفصل الشتاء مثلاً لما يعرفون من الفوائد التي تجم لهم عنها او يعلمونها بواسطة الموظفين الامناء وان كانت هذه الطريقة لاتخلو من محظور لأنها تؤدي الى السخرة والسخرة ممنوعة بنص القانون الاساسي · وتمهيد الطرق وبث الامن من جملة الفروض العينية على كل حكومة ·

وبعد فانه لاوجود في وادي بردى لسائر المرافق التي يتمتع بها الفلاح في البلاد المتمدنة وذلك لان الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهمها من الفلاح الا ان تأخذ منه لاان تهيء له سبيل الاخذ · فكان قصاراها تكثير الجباية وتوفير الضرائب واخذ من تريده للخدمة العسكرية اما امتاع الاهلين بالوسائل الصحية وتعليمهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ وفتح سبل المواصلات ورفع علم الامن وتعليمهم الضروري من القراءة والكتابة فكانت اموراً لاتعرفها لافي وادي بردى فقط بل في جميع اودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها ·

ومن اغرب مارأيناه في وادي بردى ان بعض قراها تحفر القبور لموتاها امام الدور فترى حي الاحياء مع حي الاموات ومادري هل يأتون ذلك بالقصد حرصاً على رفات موتاهم من ان تسطو عليها الوحوش الكاسرة في مدافنها اذا لحدوها بعيدة عن العمران ولو بضع خطوات او انهم يؤثرون دفن الموتى امام اعينهم ليذكروا كل شارقة وبارقة مصير الانسان الى دار

المقبل وان كان عَلَى شيء من القوة والجلد يرحل الى بعض الكور المجاورة كقرى وادي العجم او الغوطة يعمل فيها اشهر الصيف ليأتي في الشتاء بمؤونة تكفيه من الحنطة في كنه وكانونه

وذلك لان هذا الوادي منذ قرية دمر حتى سوق وادي بردى لا يغل من الحبوب ما يسد عوز سكانه بعض السنة لغلبة اليبوسة عَلَى جروده وجباله ولأن اكثر تربته صخرية تحتاج للعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة لتأتي اكلها . اما الاشجار وبعض الخضر والبقول التي ينتفع بها الفلاح هنا فالفضل لنهر بردى في اروائها يأخذ من مائه في مجاري يعليها بقدر حاجته او اكثر

ولقد اخذت اثمان الفواكه تأتي اصحابها بارباح اكثر من السنين السابقة خصوصاً منذ تم استثمار السكك الحديدية في سورية كسكة بيروت — دمشق — حوران وسكة دمشق — حيفا — المدينة وسكة دمشق — حلب — بيره جك (البيرة) فاصبحت ثمارهم تصدر الى الجهات القاصية وكانوا يقدمون اكثرها في سني الخير علفاً للدواب او يلقونها في الطريق لان العطلة في نقلها من محلها الى دمشق او بيروت مثلاً على الدواب لا تقوم باجرة المكار ودابته

نعم لم ار ارتقاء محسوساً في حالة فلاح وادي بردى وانى يتم له ارتقاء وليس له طريق يسلك غير ما حفرته اقدام المارة وحوافر الدواب والماشية وجرفته السيول والرياح منذ قرون . فالطرق المعبَّدة المطروقة لا اثر لها في هذا الوادي ولعل ذلك ناشيء من كونه حديث عهد بالحكومة المنظمة فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لاقضية بعيدة اما الآن بعد ان غدا من مركز

القابون ينادي « هلموا الى طاعة الله يرحمنا ويرحمكم الله » فقلت كلمة حق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها لرحموا ولكنها جمل جميلة تقال ومعان شريفة لايعمل بها وعادات أنفت بمعزل عما فيها من الاسرار النافعة في صلاح المعاش والمعاد ·

التفت الى الغوطة الدمشقية التفاتة اخيرة وهي احب بقعة الى قلبي في الارض وقد كثر في افقها شفق الفجر فذكرت طرفاً من ايامها البيض والسود · ذكرت الغوطة المحبوبة وذكرت مطامع البشر وانحطاط اخلاقهم وعقولهم فقاد ذلك الى التفكر في شقاء الانسان بالانسان وموت بعض لحياة كل وافتقار مئات لاغناء افراد وشقاء ربوات لسعادة عشرات وتعب فريق لراحة امة فتمثل لي عجيب صنع المولى في خلقه سبحانه لايبقي العالم على حال هو المعز المذل القابض الباسط المغني المفقر يقلب الارض ومن عليها ولا يرثها الا عباده الصالحون ·

سارت بنا مطيتانا فاجتزنا قرية برزة ومعربا ولم تشرق الشمس الا وقد قطعنا اراضي معربا واشرفنا على اكماتها فالتفتنا الى ماوراءها وقد تجلت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج من خلف الجبال فالقينا عليها نظرة الوداع واغذذنا السير الى بسيمة ومنها الى دير مقرن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد وفي هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر ·

ولم اشاهد هذا الوادي وكنت مررت به راكباً منذ ستة عشر عاماً شيئاً من التغير والارتقاء المحسوس فالفلاح فيه لايزال ينتظر موسم الفاكهة ان سلمت اشجاره من لفحات الجليد يرتاش تلك السنة ويعتاش برمانه وجوزه وتفاحه وكمثراه وتينه وعنبه والا فيضطر في الاكثر الى لاستدانة على الموسم

الرحيل من دمشق الى لبنان

١

كان من اعظم اماني النفس منذ بضع سنين ان ارحل الى اوربا رحلة علمية اقضي فيها ردحاً من الدهر للتوفر علَى دراسة حضارة الغرب في منبعثها واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المنزهون والعلماء العاملون والساسة المستعمرون والقادة الغازون والتجار والصناع والزراع والماليون وهم علَى التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها

و كانت الاحوال تعوق هذا القصد عن تمامه وتحول دون البغية المنشودة الى ان قدر الله فاقام والي سورية السابق تلك القضية الملفقة علَى جريدة المقتبس واحتال انتقاماً لنفسه لأقفال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حكم المحكمة عليَّ فقلت الآن حان وقت الرحلة في طلب العلم لتفرغ لتحقيق مافي الخاطر ريثما يتبين الحق من الباطل والحالي من العاطل وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ·

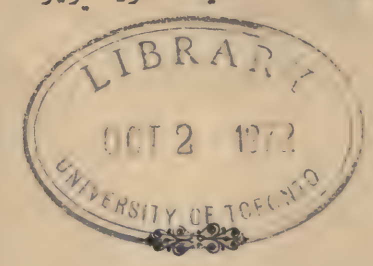
في الهزيع الاخير من ليل الثلاثين من رمضان (١٣٢٧) ركبت من دمشق عربة مع صديقين عزيزين قاصدين قرية القابون وفي ظاهرها وقفنا لحظات الى ان وصلت فرسي ووصل صديقٌ لي آخر راكباً فرسه فركبنا وعاد ذانك الحبيبان الى المدينة · وكان بدأ في تلك الساعة الاشراق في الافق والسكون لم يبرح مستحوذاً علَى الارباض والرياض ولم نكن نسمع من بعيد غير قعقعة اجراس الطحانين والمكارين وصياح الديكة او عواء الكلاب وما كدت اعلو متن مطيتي حتى ترامى الى مسمعي صوت مؤذن

مقدمة الكتاب

هـذه فصول ومقالات بل آهات وتأوهات كتبتها في وصف معالم الغرب وما لقيته فيه وثقفته عنه وانا عَلَى مثل اليقين بانها لاتحمل في مطاويها من تلك المدنية الساحرة الا بقدر ماتصـل اليه يد عابر سبيل و ينفطن له فكر النزيل والدخيـل . راجيًا من كرمه تعالى ان ينفع بها قراء العربية ومنه استمد العون والتيسير نعم المولى ونعم النصير

دمشق : في ٤ رجب سنة ١٣٢٨ وفي ١١ تموز « يوليو » ١٩١٠

محمد كرد علي



كتاب

غرائب الغرب

تأليف

محمد كرد علي

طبع بمطبعة المقتبس بدمشق عام

١٩١٠-١٣٢٨





صفحة

فهرس غرائب الغرب

صفحة









